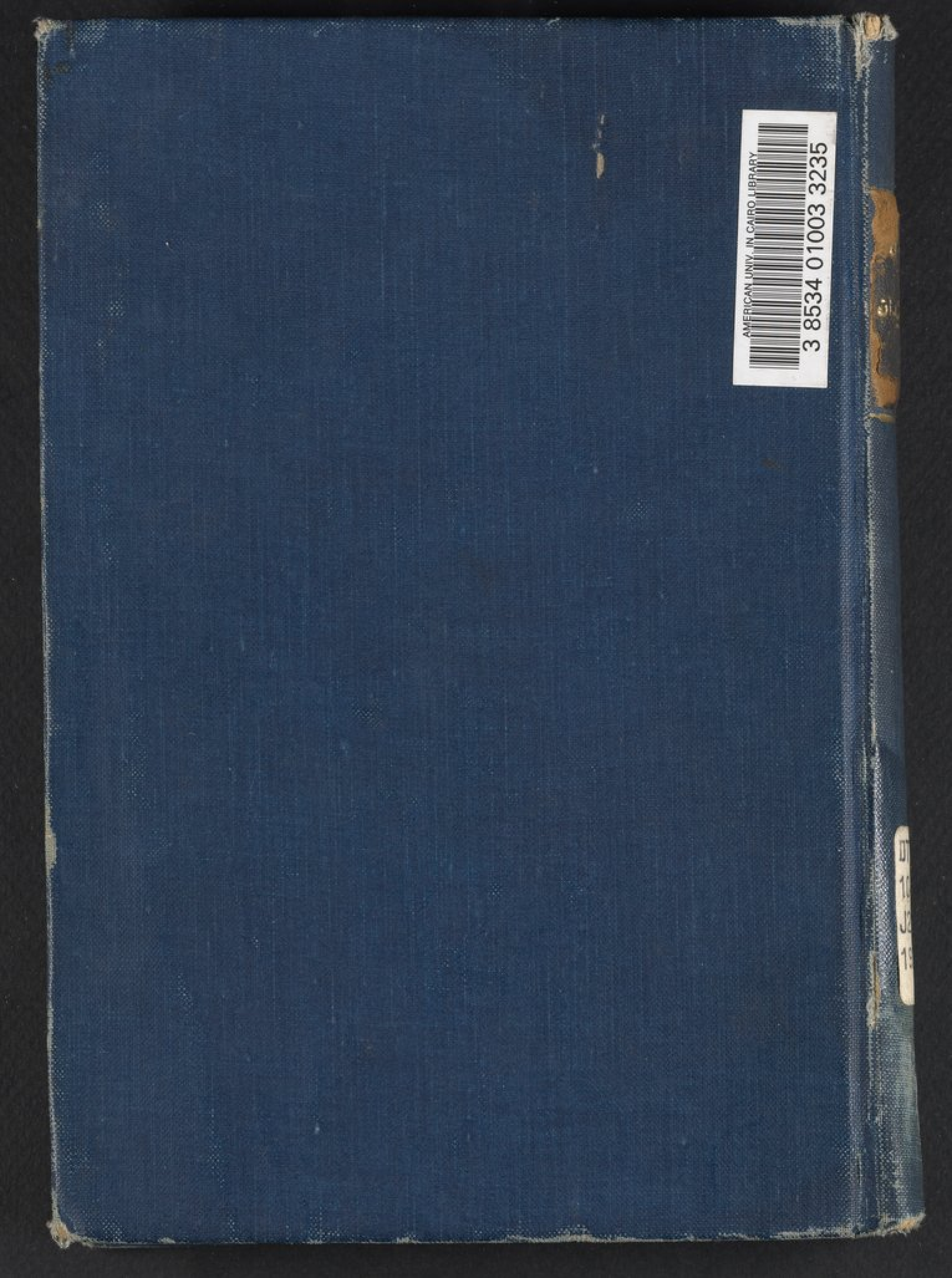
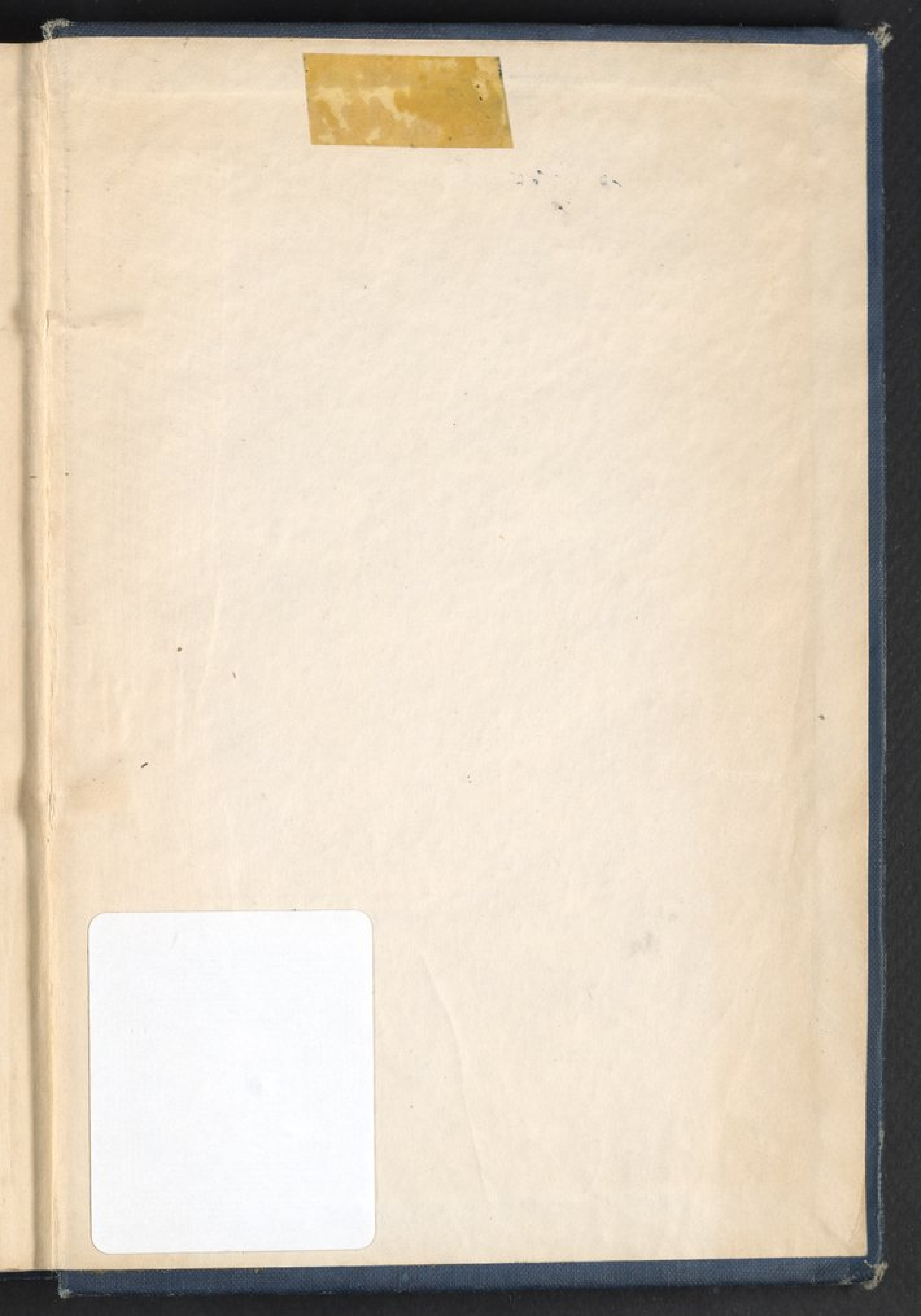
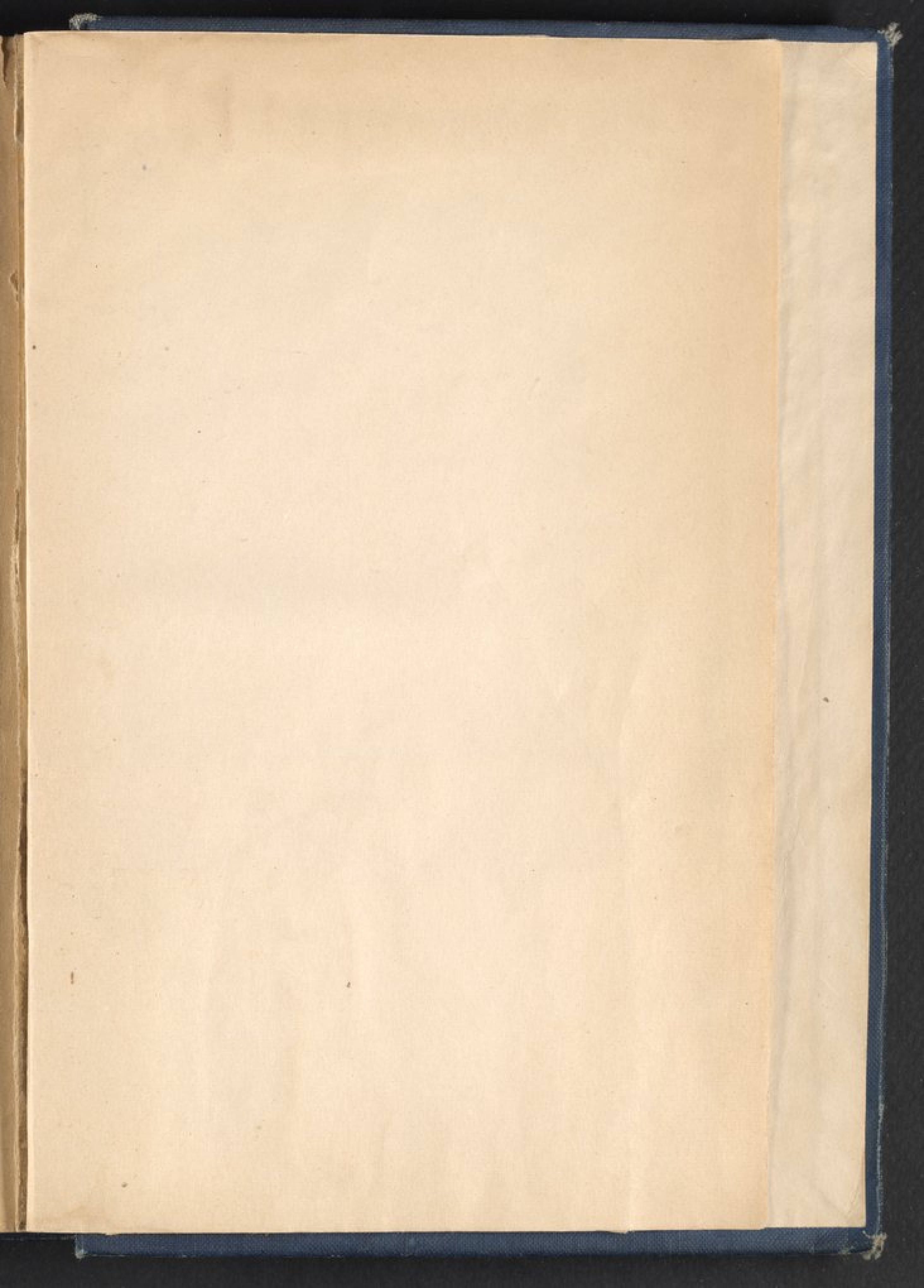






ابراهيم في الميدان

تأليف

حبيب جاماتي

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

١٩٣٤

اهداء الكتاب

الى الابطال الذين يشهرون السيوف في وجـوه الغاصبين،ويمحون الطغيان والعدوان ، وينتقمون للمظلومين من الظالمين ، في حومة الوغى وغمرة الميادين

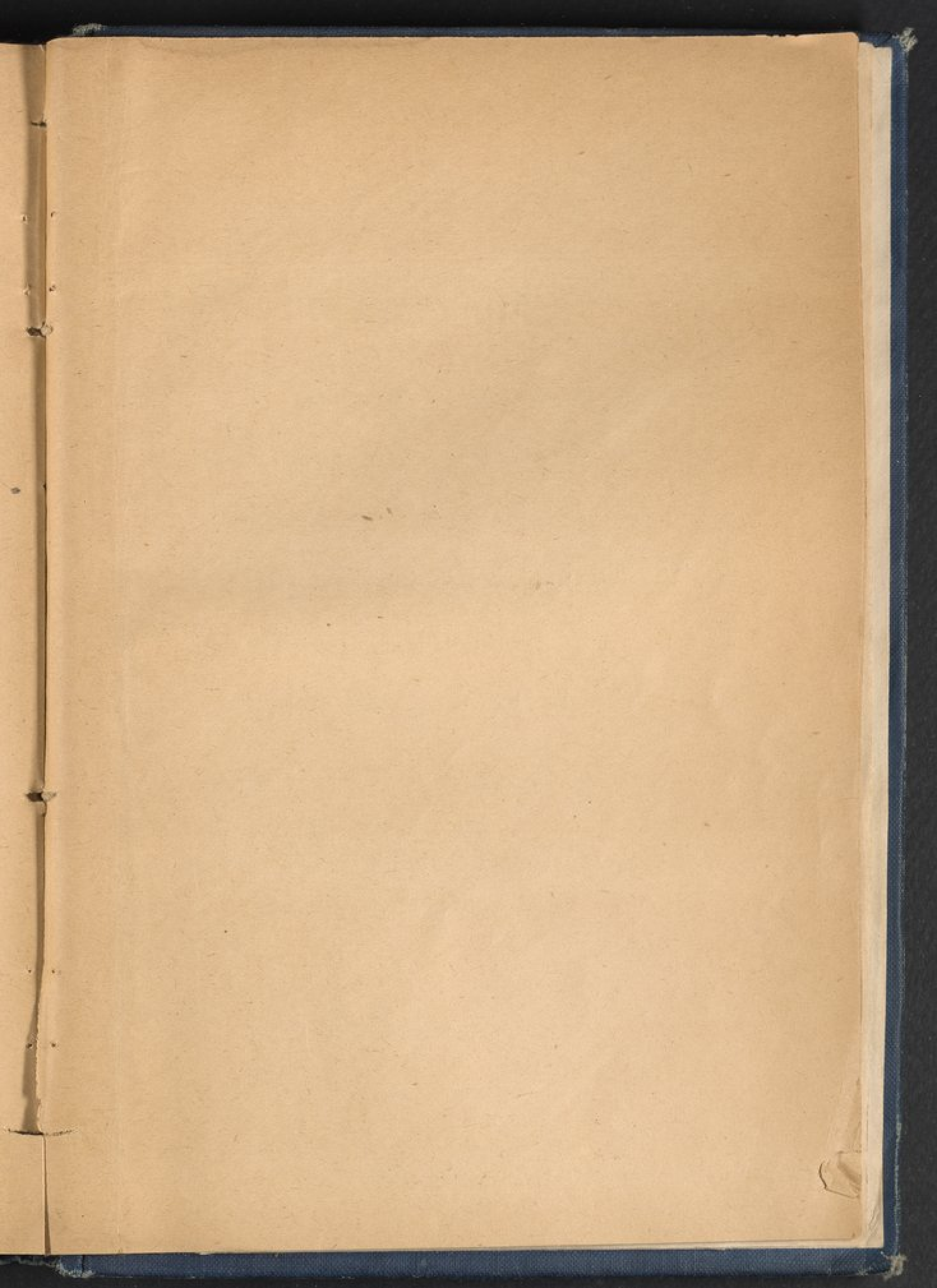
الى الابطال الذين يعيدون الى الشرق مجده الضائع ، وحقوقه المغتصبة ، واستقلاله المسلوب

الى أبطال الحروب ، هـذه الاحاديث عن أبطال الحروب

وعلى أبطال الامس السلام

والى أبطال الغد التحية !

ح . ج



تصدير لفقيد الصحافة العربية

المرحوم داود بركات

كان المؤلف قد طلب من المرحوم داود بركات تصديراً لكتابه « ابراهيم في الميدان » ومضت شهور ولم يكتب التصدير . ثم فجعت الصحافة العربية بوفاة شيخها . وبينما كان اخوه الاستاذ بركات بركات يجمع الاوراق المتناثرة التي تركها الفقيد في خزانته بجانب الفراش الذي قضى فيه نحبه ، عثر على التصدير الذي كان رحمه الله قد بدأ بكتابته وهو على فراش الموت ، وقد فاضت روحه وحطم قلمه قبل أن يأتي على نهايته . والمؤلف ينشر هذا التصدير كما تركه كاتبه رحمة الله عليه ، ناقصاً غير كامل ، فهو آخر أثر كتابي للراحل الكريم :

الى منشىء

العلم المصري في سورية ولبنان

طالعت رسالتك عن « ابراهيم في الميدان » او « العلم المصرى في سورية ولبنان » ثم أعدت هذه المطالعة العذبة التي يتنقل فيها الفكر من القصة الى الاسطورة والحكاية والى الوصف والعادات والتقاليد والاخلاق . ثم الى ما فوق ذلك كثيراً جداً وأسمى غرضاً وأنبل قصداً . الى ترابط نفوس هذه الطوائف والامم الشرقية ترابطاً روحياً ينتهي

مع تراخي الزمن الى ترابطها القومي الوثيق ، الذي كانت عليه يوم كانت مدنها عامرة وحضارتها زاهرة وعلومها باهرة، فكانت تعرف أن منافعها متحدة وانها واحدة كآدابها وفنونها وعاداتها واخلاقها . فلم يفرقها سوى الضعف ولم يمزقها سوى الجهل ولم يقم الفواصل بينها سوى هذين العاملين اللذين جعلاها اقساماً واشطراً ، وجعلا كل قسم وشطر عبداً ذليلا . الى أن نهض محمد على بمصر ، فنهضت مصر الفتاة بقيادته وهديه الى لم ذلك الشمل الممزق ، واضاءة ذلك الظلام المخيم ، وتوحيد تلك القوى المفرقة ، حتى تصير قوة واحدة تستعيد مجدها وتحيي ذكرى تاريخ تل العمارنة ، وقد سطر على جدرانه تاريخ سورية ومصر في وادي النيل ، وتاريخ بيبلوس (جبيل) وقد سطر على صخورها تاريخ مصر والفراعنة ملوكها ووزرائهم وكهانهم. وقد ضمت مصر بين ذراعيها الاختين الشقيقتين واشترك الجميع في جهاد واحد وسلم واحد تحت علم واحد انخلع له قلب أوربا فتألبت جميعاً على تلك الامبراطورية الحديثة النابتة وقطعت أوصالها . فكان عمل محمد على والامير بشير بروح قومية طبيعية . وكان عمل أوربا المتألبة عليها بروح القوة الغشوم . والقوة تنتقل من جانب الى جانب . واما فعل الطبيعة فدائم خالد . فهل أنت في أقاصيصك التاريخية تساير اليوم فعل القومية وفعل الطبيعة الخالد الدائم لتوقظ الهاجع وتدعو الى وصل ما انقطع ؟

انك اذن لموفق في عملك . وانك اذن لرافع بعلم مصر في سورية ولبنان علم القومية في البلدين الشقيقين . وهو أعز الاعلام يغالب الدهر وأحكامه الى أن يغلبه ويمحوها اذا ظل خافقاً بايدي الهداة المرشدين

. . . .

. . . .

لقد عرفوا الرواية ولا أدري من اخترع هذا الاسم لأنه لا ينطبق

من جهة اللغة على الحقيقة . والحقيقة انها القصة أو الحكاية. وتعريفها انها مظهر تاريخي ينير الطريق بايرادها مع الاهتمام، سواء كان بتحكيم الميول والعواطف والاهواء أو بتصوير الاخلاق والعادات أو بغرابة الحوادث

لذلك كانت هذه القصص والحكايات على ضروب شتى كالرواية الادبية والرواية الهجائية والرواية الفلسفية والرواية التاريخية . . .

حتى إنهم أطلقوا هذا الاسم على مالا يسلم العقل به . . .

ولقد عرفت أن الشرقيين هم الذين ابتدعوا هذه القصص وكانوا ينظمونها شعراً كالزجل عند العرب والقصيد . وتنشأ كل قصة عن شجاعة وفخر وتصوير عواطف الانسان فيما هو سام عال . وهي تورث العواطف في اعماق نفس الانسان . والمراد منها أن ننشىء لانفسنا نظاما للحوادث أكثر بهاء من نظامها الذي نلمسه ونعرفه

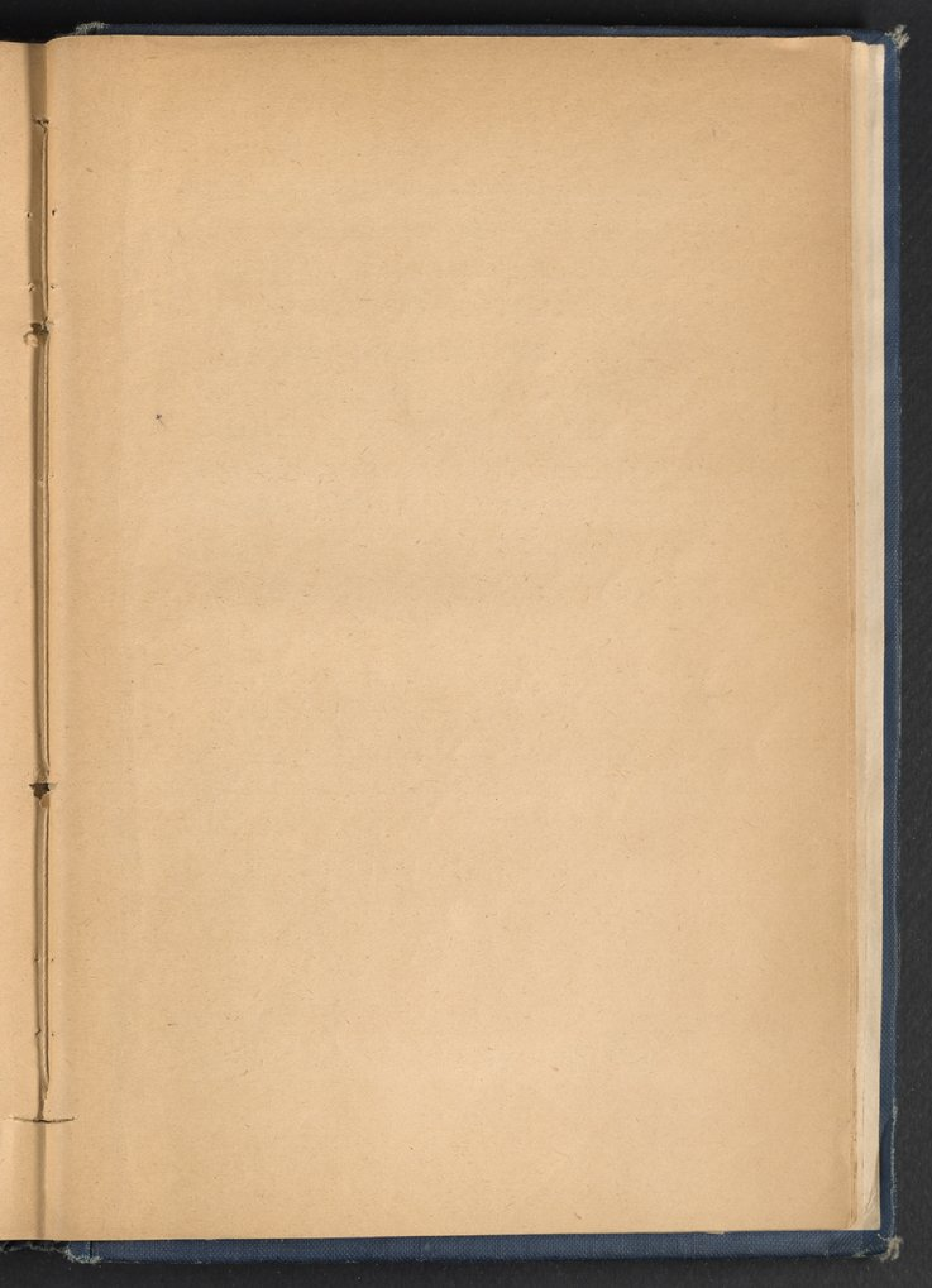
والغرض الذى كان يرمي اليه السلف هو مغزى الحكاية الادبي

أما التاريخ فهو رواية الوقائع أو هو درس الماضي والبحث عما فعل الذين تقدمونا في الحياة . ومثل كل جيل مع من تقدمه في الحياة كمثل الطفل بحاجة الى ماوصلت اليه خبرة والديه . والتلميذ الى خبرة معلمه . حتى قالوا انه لايشاد بحرفة أو عمل أو شأن في الاجتماع اذا لم يراجع في كل أمر ما تقدم منه وماسبق. فالتاريخ اذن هو قرارة اختبار الانسانية . . .

وما هي الحكمة في أعمالنا اذا لم تكن مكونة من خبرة آبائنا

. . . .

داود بركات



مقدمة

آليت على نفسي منذ سنوات أن ابحث في بطون التاريخ، ومحفوظات المكاتب الخاصة والعامة، والمخطوطات القديمة، وصحائف الذاكرات ومكنون الذكريات، عن الحوادث التاريخية المجهولة أو المهملة. وقد عثرت على الكثير منها ووضعتها في قالب قصصي. ونشرت بعضها فوجدت من اقبال القراء عليها ما شجعني على المضي في عملي

وكان لعهد محمد على باشا نصيب كبير من تلك المباحث والجهود. وعلى الخصوص تلك الصفحة المجيدة التى سطرها ابراهيم باشا في سجل التاريخ. واعني بها حملته على سورية والاناضول ووقوفه منتصراً على مقربة من البواغيز التركية متحفزا للوثوب على الاستانه

وهذه مجموعة من الاقاصيص التاريخية التي وقعت حوادثها في ذلك العهد الزاهر، وكانت ربوع الشام وهضاب لبنان ميداناً لها. وما هذه الاقاصيص في الواقع غير تاريخ تلك الحملة العسكرية التي جعلت العلم المصري المظفر يخفق عالياً بين الاعلام الخفاقة المظفرة

وتتناول هذه الاقاصيص أعمال الفروسية والشجاعة التي قام بها جنود ابراهيم باشا وأنصارهم في سورية ولبنان، والمعارك التى اشتركت فيها النساء مع الرجال جنباً الى جنب، والدسائس التى حاكت السياسة خيوطها في ذلك العهد على دولة مصر الفتية، والادوار التى لعبها الجواسيس، وغير ذلك من الحوادث المجهولة أو المبهمة

***

في سنة ١٨٣٢ ، دخل ابراهيم بن محمد على باشا والى مصر ، سورية ولبنان فاتحاً ، وسار بجيشه المظفر وألوية النصر خفاقة أمامه ، الى الاناضول والبواغيز ، فتراجعت جحافل الاتراك مرتبكة مذعورة أمام الغزاة الفاتحين . وحاولت أن توقف ذلك التيار المتدفق الجارف في مواقع تاريخية دموية ، فكان الفشل نصيبها ، وهزمها ابراهيم شر هزيمة ، من غزة إلى عكاء إلى دمشق إلى الزراعة إلى حمص فحماه فانطاكية فحلب فبيلان فقونية فغيرها وغيرها من المعارك ، التي بطش فيها المصريون بخصومهم بطشاً ذريعاً ، وأظهر فيها ابراهيم نبوغاً جعله منذ ذلك الوقت رجل عصره وفريد دهره

كانت سنة ١٨٣٢ سنة حرب وكفاح وكر وفر ، فقد بدأها ابراهيم بنصر مبين وختمها بنصر مبين . ولم يمض شهر من شهورها ، بل أسبوع من أسابيعها ، دون أن يطبعه ابراهيم بطابعه ، ويدون ذكره في التاريخ مقروناً بفوز جديد

ووقفت أوربا مذهولة لاهثة ، تنظر الى ذلك الاسد الهائج فى وثباته ، والى أشباله اللاحقين به ، وقد ملأوا الشرق الادنى زئيراً ، ورفعوا اعلامهم على الاقطار العربية ، وتطلعوا إلى الاستانة الجاثمة على ضفاف البوسفور ، وتحفزوا للانقضاض عليها ورفع أعلام محمد علي على أسوارها

***

عقد محمد على باشا النية ووطد العزم على غزو سورية في سنة ١٨٣١ وجعل يعد العدة لتسيير الحملة في صيف تلك السنة . لكن تفشى الامراض في مصر حال دون تنفيذ رغبته فاضطر الي تأجيل الزحف الى الخريف

وفي نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٨٣١ ، تحرك الجيش والاسطول

كانت الحملة مؤلفة من ثلاثين الف جندى ، معهم أربعون من مدافع الميدان وعدد كبير من مدافع الحصار ، ومن ثلاث وعشرين سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل . فسار الجيش براً بقيادة ابراهيم باشا الصغير . وسار الاسطول بحراً بقيادة عثمان نورالدين بك. وعين ابراهيم باشا الكبير ابن محمد علي باشا قائداً عاماً للحملة . وسافر بحراً من الاسكندرية الى يافا ، ونزل هناك الى البر وقصد الى حيفا ومعه أركان حربه ومدافع الحصار الضخمة

وجعل ابراهيم باشا مدينة حيفا قاعدة لاعماله الحربية ومركزاً للقيادة العامة . وما ان وطئت قدماه أرض المدينة حتى توافد عليه الزعماء ورجال الدين وقدموا له خضوعهم وعرضوا عليه مساعدتهم

وقبل أن يبدأ ابراهيم باشا بمحاصرة عكاء الحصينة ، التي كان عبد الله باشا قد جمع فيها جيشاً قوياً استعداداً للمقاومة ، أراد القائد المصري أن يثق من ولاء الامير بشير الشهابى الكبير ، أمير لبنان وسيده المطاع . فدارت بين الاثنين مفاوضات ودية ، ذكر فى خلالها ابراهيم لأمير لبنان ماقطعه من عهود لأبيه محمد على باشا ، والخطة المشتركة التي وضعها الحليفان في مصر لطرد الاتراك من سورية والاستيلاء على الاناضول

وأكد الامير للقائد المصري ولاءه وولاء قومه . وجاء الى حيفا حيث أكرم ابراهيم باشا وفادته ورسم بالاتفاق معه خطة السير في مستقبل الايام

وكان الجيش المصري قد احتل غزة هاشم ويافا وحيفا دون أن يلقى مقاومة ما . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ شرع ابراهيم باشا في محاصرة عكاء ، وجعل يهاجمها براً وبحراً

لكنه لم يحصر جهوده في ذلك ، بل سير جيوشه الى الشرق

والشمال لاحتلال المدن واخضاع الحاميات التركية في السهول والجبال . وتمكن في بضعة اسابيع من عزل عكاء عن سواها من قواعد الدفاع في سورية عزلا تاماً

ففي ١٤ ديسمبر (كانون الاول)سار أربعة آلاف فارس وراجل من حيفا واحتلوا صور وصيدا والقدس وطرابلس . وكان مع المصريين عندما دخلوا طرابلس ورفعوا عليها اعلامهم الف مقاتل من أبناء لبنان بقيادة الامير خليل ابن الامير بشير الشهابي الكبير . وذلك في اليوم العشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٣٢

أما بيروت فقد استقبلت المصريين بالترحاب وسار متطوعوها معهم الى طرابلس مهللين مكبرين

وبعد أن وزع ابراهيم جنوده على المدن والقرى والقلاع ، ضيق الخناق على عكاء براً وبحراً . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مايو (ايار) سنة١٨٣٢ دخلها بجيشه ظافراً منصوراً ، وأرسل حاكمهاعبدالله باشا اسيراً الى مصر حيث أكرمه محمد على باشا وعامله معاملة العدو الباسل الذى عبس القدر في وجهه وخانه الحظ فى الميادين

***

ولا اتبسط هنا في ذكر الحوادث السياسية التي وقعت في اثناء تلك الحرب الشعواء والدسائس التى حيكت في الجهر والخفاء في الاستانة ولندن وبطرسبرج وغيرها من عواصم الغرب ، لمنع الجيوش المصرية من التقدم الى الامام ،والقضاء على الخطة التي رسمها محمد على باشا للاستيلاء على السلطنة العثمانية وتأسيس الامبراطورية المصرية على انقاضها

ففي شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ زحف القائد التركي عثمان باشا اللبيب ببضعة آلاف مقاتل على طرابلس لانتزاعها من حاميتها المصرية

واللبنانية ، بعد أن عينته الدولة العلية حاكما عليها . فهاجم المدينة لكن الحامية الباسلة ردته عنها خائباً خاسرا

وبلغ الخبر ابراهيم وهو امام عكاء فغادرها الي طرابلس للقاء عثمان باشا اللبيب . لكن « اللبيب » أدرك انه يسعى الى حتفه بظلفه ففر هاربا قبل أن يدركه ابراهيم بجيشه

غير ان المصريين تعقبوه . واذا كان القائد العثماني قد تمكن من الوصول الى حماه فان جيشه قد وقع في قبضة الفاتحين

ومنذ ذلك الوقت تتابعت المعارك بسرعة وخفقت الوية النصر على الجيوش المصرية بلا انقطاع

دخل ابراهيم حمص فاتحاً

ثم عاد إلى بعلبك حيث أخذ لجيشه ما يحتاج اليه من مؤونة وذخيرة

وتبعه الجيش التركي إلى هناك فلاقاه ابراهيم في سهل الزراعة ، في ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٣٢ - ١٤ ذي القعدة ١٢٤٧ ، وعهد إلى سليمان باشا الفرنساوى في ادارة المعركة،وكان عدد الأتراك أضعاف عدد المصريين . لكن سليمان باشا أحرز في ذلك اليوم انتصاراً عظيما فانهزم الجيش التركي تاركا مدافعه وخيوله

والتقى ابراهيم باشا في بعلبك بعباس باشا ابن طوسون باشا ، واستراح قليلا

ثم عاد إلى عكاء ، فاقتحم أسوارها وحصونها في مايو (ايار) سنة ١٨٣٢

وفي ١٦ يونيه (حزيران) دخل المصريون دمشق وعرض ابراهيم في السهول الواقعة حول المدينة فرق المتطوعين الذين التحقوا بجيشه من لبنان والبادية

ومكث ابراهيم في دمشق ثمانية عشر يوماً ، ثم سار شمالا إلى حمص حيث هزم الأتراك في معركة دموية في اليوم الثامن من يوليه (تموز) ١٨٣٢

وبعد أن نظم شؤون الادارة في حمص ، واصل الزحف الى حلب فاحتلها في ١٥ يوليه ١٨٣٢ بلا مقاومة . وأخذ الجيش نصيبه من الراحة استعداداً للقاء الاتراك فى بيلان

وفي ٢ ربيع الأول سنة ١٢٤٨ هجرية ، أي في ٢٩ يوليه سنة ١٨٣٢ مسيحية ، اشتبك الجيشان في معركة بيلان الشهيرة

وفي ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ - الموافق ٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ سحق ابراهيم البقية الباقية من جيوش الاتراك في قونية . وكان انتصاره في هذه المعركة أعظم انتصار أحرزه منذ اليوم الذي بدأ فيه حملته على سورية والاناضول

أقف بك الآن عند هذا الحد لأنني ما أردت الا أن أتحدث عن سنة ١٨٣٢ دون أن أتجاوزها الى السنوات التى تلتها والتى بدأ فيها عهد الحكم المصري في سورية ولبنان، ذلك العهد الذي دام عشر سنوات لا يزال أبناء البلاد يذكرونها بالخير

***

مرت السنوات على تلك الحوادث الجسام والمواقع التاريخية والعهد السعيد المجيد ، ومصر الآن تجول في ميدان الجهاد وتتحفز للوثوب من جديد نحو تلك القمة التى بلغتها فى وقت من الاوقات ، وهي اليوم كما كانت بالامس جديرة بان تتولى زعامة هـذا الشرق الناهض ، كما تولتها في عهد محمد على وابراهيم

فان سنة ١٨٣٢ من السنوات التى يحق للمصريين أن يفاخروا بها ويخطوا أرقامها فى تواريخهم باحرف من ذهب ، فهى سنة قلما تجود

الاقدار والظروف بمثلها على الامم . واذا كان الاوربيون لا يزالون الى اليوم يحتفلون بايام معلومة من سنين معينة ، لان جيوشهم فى تلك الايام قد احرزت نصراً أوردت عن الوطن عدواً، فان المصريين في استطاعتهم أن يحتفلوا على الدوام بذكرى سنة كاملة كانت من أولها الى آخرها سلسلة انتصارات باهرة وأعمال مجيدة زاهرة

لو راجعنا حوادث سنة ١٨٣٢ ، الكبيرة والصغيرة ، من شهر يناير إلى شهر ديسمبر ، واحصينا المواقع والمعارك والمناوشات التى خاض الجيش المصرى غمارها في الاثنى عشر شهراً التى تتألف منها السنة ، لوجدنا ان ابراهيم باشا وقواد جيشه وحلفاءه قد انتصروا في أكثر من مائة موقعة ومعركة ومناوشة ، أي بمعدل انتصار واحد لكل ثلاثة أو أربعة أيام . وهذا مالم يذكر له التاريخ مثيلا ، حتى في أعظم الحروب شأناً وأبعدها مدى

فاذا حق للفرنسيين أن يحتفلوا بذكرى انتصار نابوليون في وجرام. وللانجليز أن يحتفلوا بذكرى واقعة واترلو أو الطرف الاغر أو غيرهما. وللامم الاوربية الاخرى أن تحتفل باى يوم من أيام تاريخها الذي طبع بطابع النصر . فان الامة المصرية يحق لها أن تفاخر أمام تلك الامم جميعاً بمعركة عظيمة دامت سنة كاملة ، وانتصار باهر خفقت اعلامه مدة اثني عشر شهراً بلا انقطاع ، ثم استقبلت السنة التالية ، سنة ١٨٣٣ ، وظلت فيها اعلامها خافقة على رءوس الجنود البواسل الذين قادهم ابراهيم من ضفاف النيل الى شاطىء البوسفور !

***

كان لبنان يعد ولاية عثمانية وان كان يتمتع باستقلال ذاتى واسع . وقد بذل الاتراك جهدهم للتأثير على الحياة اللبنانية من وجهتيها السياسية والاجتماعية لكنهم فشلوا . وعهد الاتراك الذى ظل بمئات السنين لم

يترك في لبنان من هاتين الوجهتين أثراً يذكر ، بعكس عهد المصريين الذي لم يدم غير عشر سنوات

كان اللبنانيون فى القرن الثامن عشر يتخذون عهد أميرهم فخر الدين المعني قاعدة لتواريخهم . لكنهم بعد اقامة المصريين بين ظهرانيهم أبدلوا القاعدة القديمة بأخرى جديدة . فصاروا يقولون : « الحادث الفلانى وقع بعد وصول المصريين بكذا أو بعد رحيلهم بكذا . . . »

بل انهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاتخذوا في أواخر القرن الماضى حوادث الاسكندرية وحركة عرابي باشا قاعدة لتواريخهم أيضاً. فصارو يقولون ـ ولا يزالون كذلك : « فلان ولد سنة عرابي أو قبلها أو بعدها بكذا . . . »

وهم يضربون الامثال بعدل المصريين . فاذا أرادوا الثناء على احد القضاة قالوا عنه : « انه كابراهيم في عدله وانصافه ! »

ولا يزالون إلى اليوم يقولون عن الغني : « عنده مصاري كثير أو مصريات كثير . . » وذلك اشارة إلى النقود التى كانوا يتداولونها في عهد ابراهيم والتي كانت القطعة منها ـ أي البارة ـ تسمى « مصرية »

والبنادق الطويلة لاتزال تعرف في بعض أنحاء لبنان بالبنادق أو « البواريد الابراهيمية » وذلك لان البنادق التى كان يحملها جنود ابراهيم كانت من البنادق الطويلة . ويوجد كثير منها الى الآن في البيوت اللبنانية مع انها قد انقرضت في مصر

هذا قليل من كثير مما تركه من أثر في الحياة اللبنانية مرور المصريين في تلك البلاد واقامتهم فيها عشر سنوات فقط

حبيب جاماتى

مصر ـ يوليه (تموز) سنة ١٩٣٤
ربيع الاول سنة ١٣٥٣

تحية ورجاء

عندما دخل ابراهيم باشا مدينة بيروت في سنة ١٨٣٢ ، وقف في غابة الصنوبر على ابواب المدينة ، وخاطب بشيراً الشهابي اميرلبنان قائلا :

ـــ ها نحن يابشير ! لقد جئنا نبرم بالدم ميثاق المودة والاخاء الذي قطعناه على انفسنا ، عندما نزلت علينا في « شبرا » ضيفاً مكرماً !

فأشار بشير الى من كان يحف به من زعماء الجبل وكماته ، وأجاب :

ـــ احيي ابطالك باسم هؤلاء الابطال يا ابراهيم. واذا كانت الظروف والاحوال قد أقامت بين بلدينا الحدود ، فثق أن ليس هناك من حدود تفصل بين القلوب !

ثم صاح أحد الزعماء قائلا :

« إذا ما ابرقت السماء في مصر ، سمعنا هزيم الرعود في لبنان ! »

هكذا كان القوم يتخاطبون في ذلك العهد . ولم يذكر التاريخ في صفحاته حماسة كالتي استولت على اللبنانيين يوم وافاهم ابراهيم بكتائبه المظفرة . فقد انحدر المتطوعون الاشداء من أعالي جبالهم انحدار السيل الجارف ، للانضمام الى الغزاة الفاتحين ، يشاركونهم في غزواتهم وفتوحاتهم . فامتزجت دماء أولئك الحلفاء من مصريين وسوريين ولبنانيين ، في وهاد الاناضول ونجاده ، وكانت أساساً لعهد الاخاء والمودة والاخلاص

وقد لعبت الاقطار الثلاثة ـ مصر وسورية ولبنان ـ في القرن الماضي دورا سياسياً وحربياً ألقى الرعب في اوربا ، وبعث الذعر في قلوب ساستها.

وطالما شهدت العصور الخوالى من قبل، ادواراً عديدة مثل ذلك الدور، عبتها أيضاً الامم الشقيقة الثلاث :

مصر أم المدنية منذ عهد الفراعنة الجبابرة . وسورية مهذبة الصحراء ومشيدة المدن وسط الرمال . ولبنان ناقل الحضارة إلى ما وراء البحار فى عهد الفينيقيين ذوي الهمم القعساء

مصر التى تحفظ معابدها إلى ايامنا هذه بقايا الارز القديم - ذلك الارز الخالد الذي استوردته من غابات لبنان . وسورية التى تضم في ثنايا سهولها آثار الفراعنة الغزاة . ولبنان الذي يحمل رسومهم منقوشة على صخوره الصماء

مصر درة الفاطميين . وسورية جنة الامويين . ولبنان معقل «المردة» وحصنهم الحصين

مصر وسورية الغازيتان بقيادة الاسد صلاح الدين . ولبنان وكر الصقر فخر الدين المعنى الكبير

فسلام على الاقطار الثلاثة ، وحقق الله آمال مصر وسورية ولبنان، في الحرية التامة والاستقلال الكامل !

- ١ -

درة بنت النصيرى

عصى عبد الله باشا والى عكاء أوامر الدولة العلية ، وانضم اليه الأمير بشير الشهابى أمير لبنان . فاصدر السلطان إرادته السنية بعزل الاثنين. ولجأ الامير اللبناني إلى عزيز مصر محمد علي باشا ، وسافر الى القاهرة في سنة ١٨٢٢

نزل في ضيافة صديقه وحليفه ، في قصر شاهق فاخر الرياش ، على ضفاف النيل ، حيث توافرت له أسباب الراحة . وأقام في ذلك القصر ضيفاً كريماً مكرماً

كان محمد علي باشا في ذلك الوقت قد وطد دعائم حكمه في مصر ، حيث استتب له الامر ، وبدأ يفكر في توسيع دائرة سلطته ، وابعاد القاهرة عن تخوم السلطنة العثمانية ، باقامة حاجز حصين بينه وبين الاستانة ، وإنشاء دولة مستقلة في وادى النيل

لم تكن مصر في مأمن من الغزوات . فقد غمرتها جيوش الفاتحين مقبلة عليها من طريق واحد لم يتغير : سورية وصحراء سيناء

ذلك هو الطريق الذى سلكه قمبيز والاسكندر

ومن هذا الباب دخل الفاتحون المسلمون ، وتبعتهم الجحافل التركية

لكن سورية كانت أيضاً طريق الغزاة المصريين من وادى النيل الى ممالك الشرق فى عهد الفراعنة . وهى كثيرة الجبال والوديان . وكأن

القدرة الالهية قد أوجدتها هناك سداً منيعاً في وجوه الطامعين

وضع محمد على باشا بثاقب رأيه جميع تلك الاعتبارات في كفتى الميزان . واتضح له أن لا سبيل إلى الاطمئنان على حدود ولايته ، إلا بنقل تلك الحدود إلى ماوراء قمم لبنان . وبدل أن يكون خط الدفاع عن مصر في السويس ، لابد أن ينتقل إلى جبال طوروس

سيغزو إذن محمد على ذلك القطر كما غزاه الفراعنة من قبل . وسيتخذ من أهله الاقوياء الاشداء ، حلفاء يزداد بهم جيشه عدداً وقوة ، فتخف بذلك وطأة التجنيد عن الفلاح المصري . كما أنه سيجد في غابات لبنان ووهاده ، الخشب والفحم والنحاس وغيرها من منتجات الطبيعة ، التي تفتقر اليها مصر فى نهضتها الحربية والصناعية والتجارية

ثم إن سورية طريق الحجاج الى بيت الله الحرام. ومحمد علي يرمى الى السيطرة على أبواب مكة المكرمة والمدينة المنورة

إن امتلاك سورية ولبنان أمر لازم لا مناص منه

لذلك أقسم منقذ مصر من شر المماليك ، أن يغزوهما وينتزعهما من قبضة السلطان

***

ولكن ، لابد من حليف يعتمد عليه في تنفيذ هذه الخطة الواسعة النطاق

وأى حليف اكثر صلاحية لذلك من سيد لبنان ومعبوده : الامير بشير الشهابي ؟

لقد أرسلته العناية الالهية ، طريد يوم وشريد ساعة ، الى مصر ملتجئا . فعلى صاحب الامر والنهي فى مصر أن يغتنم الفرصة السانحة، ويجعل من عدو السلطان صديقاً له ، ومن القائد المغوار والسياسي المحنك حليفا فى السراء والضراء

وهذا ما فعله محمد علي باشا

وظل كل من الصديقين مخلصاً لأخيه ، في أيام النصر وأوقات الاحن على حد سواء

* * *

عقد محمد علي باشا وضيفه الامير اللبناني في القلعة المشرفة على القاهرة مجلساً سرياً ، لم يحضره معهما غير ابراهيم بن محمد علي . ورسم الزعماء الثلاثة خطة العمل بحذافيرها

قال محمد علي :

— ان الدولة في انحلال مستمر . ومتى يبست الشجرة أو نخر فيها السوس ، وجب أن تقطع منها الاغصان وتغرس في الارض ، فتنمو وتزدهر وتصبح أشجاراً فتية تحل محل الشجرة البالية النخرة . سوف نقتطع من ذلك الجسم المريض عضوين لم يدب اليهما الفساد بعد . وعلى أنقاض الدولة المتداعية ، نقيم دولتين قويتين . سأستقل في مصر كما تستقل أنت يا بشير في لبنان . واطلب منك عهداً على أن تكون في الحرب إحدى ذراعي . فعليك بعد ولدي ابراهيم أعتمد ، وأضع فيك ثقتي التامة الخالصة

فأجابه بشير :

— اقسم ان اسير معك الى النهاية يا اخي . ومرحى للحرب ما دامت في سبيل المجد يضرم سعيرها . إن الحرب نار والامم وقودها . لكن تلك الامم تخرج من اتونها كما يخرج الذهب من المواقد ، وقد صهرته النيران . قل : ماذا تطلب مني ؟

فأجابه محمد علي :

— سأسعى للحصول من السلطان على العفو عنك . فتعود الى لبنان ، وتعد للحرب المقبلة عدتها ، وتمهد للحادث المنتظر سبيل النجاح .

إنني اعتمد على رجالك الاشداء . ولن اخشى عدواً ما دمت لي مخلصا

وتم الاتفاق بين الرجلين ـ وهما من اتباع الدولة ـ على مهاجمة الدولة ، واقتطاع جزء من املاكها وولاياتها

***

كان الامير ذات ليلة جالساً في حفلة سمر وطرب ، احياها القائد ابراهيم بن محمد على لضيفه الكريم ، فدخل حاجب وقال له : ان فارساً من رجال حاشيته يطلب المثول بين يديه

أذن له الأمير بالدخول . فدخل الشاب وقال :

ـ مولاى . وصل رسول من الجبل يحمل اليك اخباراً

فقاطعه بشير قائلا :

ـ كنت في انتظار ذلك الرسول يا فريد. فدعه حتى يستعيد قواه ويأخذ لنفسه بعض الراحة . سأجتمع به الليلة في دار الضيافة

فالتفت محمد علي الى ضيفه مبتسما وقال مستفهما :

ـ أرجل هذا أم امرأة ؟ والله لو لم تناده « يافريد » لظننته فتاة!

فقال بشير :

ـ ولكنك على صواب في ظنك ايها الأمير ! ففريد فتاة كما تقول !

ـ كيف ذلك ؟ وما جاء بها الى هنا ؟

ـ انها لاتفارقني خطوة واحدة منذ سنتين. وستظل في معيتى الى أن يفرق الموت بيننا . ألست صادقاً في قولي يا فريد ؟

فنظر الشاب إلى الامير نظرة حب وحنان وقال :

ـ أنت صادق يا أبى : لن يفرق بيننا غير الموت !

حار محمد على في أمر الفتى ـ أو الفتاة ـ وطلب الى ضيفه ان يقص على المجلس قصة فريد . لكن الامير التفت الى الفارس وأمره بلطف قائلا :

— قص عليهم قصتك بنفسك يابني. فليس فيها مايدعو الى التكتم

* * *

قالت الفتاة :

— ان اسم «فريد» الذى اطلقه علي مولاي الامير، اسم مستعار . انني ادعى « درة » . وكان ابي « ابو ضرغام النصيري » من تجار الخيل في بادية الشام . ربيت في كنفه ، بعد أن ماتت أمى وأنا في الثالثة من العمر . وترعرعت في البراري والقفار ، تارة أرافق أبي في روحاته وغدواته ، وتارة أقيم عند الأهل والأصدقاء في سهول « حوران » أو في وعر « اللجاه »

« وحدث يوماً أن سافرت مع أبي إلى الحجاز ونجد . وعدنا من هناك ومعنا مائة من جياد الخيل ، ووجهتنا فلسطين وجبال لبنان . فطوينا الفيافي والقفار . واجتزنا جبل الدروز وحوران . وأوشكنا أن نصل إلى نهاية رحلتنا . لكن ركباً من العربان فاجأنا بهجومه . ووقعت مصادمة شديدة بين رجال القافلة وأبناء البادية

« دافعنا عن أنفسنا دفاعاً مجيداً . وحاول رجالنا أن ينقذوا جزءاً من الأموال والخيول . لكن المهاجمين كانوا أكثر منا عدداً ، والمثل السائر يقول : « الكثرة تغلب الشجاعة ! »

« غلبنا على أمرنا . فمات منا من مات وتشتت الباقون في البراري . وعاد البدو من حيث أتوا بعد أن ساقوا معهم الجياد والأموال . أما أنا ، فقد أصبت بجرح في جنبي الايمن ، وبقيت على الارض مغشياً علي ساعات عديدة

« ولما استيقظت من ذلك الحلم المزعج ، وجدت نفسى وحيدة على قيد الحياة ، بين جثث القتلى المبعثرة هنا وهناك

« نهضت . . . وأخذت أعدو في ذلك الجحيم ، باحثة عن أبي ، منادية مستغيثة والدم يسيل من جرحي

« أبي ! . . وجدته ! . . ولكن جثة هامدة بين الجثث الهامدة الأخرى ! قضى المسكين بطعنة رمح سددتها إلى صدره يد مجرم أثيم من أولئك القتلة السفاكين . فصعدت روحه إلى خالقها تشكو اليه ظلم الانسان لأخيه الانسان

« وكدت أموت غماً وكدراً ، لو لم يلتقطني الرعاة في ذلك السهل اللعين

« ثم أخذوني معهم إلى « وادي التيم »

« وهناك ، نظرت في أمرى ، وعولت بعد التفكير الطويل على الذهاب إلى سيد لبنان وأميره ففعلت

« وحسناً فعلت ! »

فقاطعها بشير قائلا :

— جاءتنى درة في حالة يرثى لها .فأشفقت عليها، وأعجبت بجرأتها وذكائها ، وأمرت بادخالها القصر في « بيت الدين » حيث أقامت مع أهلى وأبناء أسرتى

« لكنها رغبت الي ، بعد أشهر مضت على ذلك الحادث ، في ان تسير في معيتي وتدخل في سلك حرسى . فأجبتها إلى رغبتها . لكنني حذرتها من الاختلاط بالرجال . ولم ابح في بادىء الأمر لأحد بانها فتاة . وهذا هو الداعي إلى تسميتها باسم رجل . فانني دعوتها منذ ذلك اليوم باسم « فريد »

« أما الآن ،فالجميع يعلمون انها فتاة وانها في معيتى ، تقوم بخدمتي الخاصة وتحرس بابي. »

***

صدر العفو عن أمير لبنان بفضل المساعى التى بذلها صديقه محمدعلي باشا . فعاد الى وطنه في شتاء سنة ١٨٢٣

ومضت عشر سنوات على ذلك اليوم الذي قصت فيه درة قصتها على مسمع من عظماء مصر وقوادها ، في تلك الحفلة التى احياها ابراهيم اكراماً لضيفه

وكان الحليفان ـ محمد علي وبشير ـ قد نفذا خطتهما، فمشت جحافل المصريين على سورية . وانضم اليها هناك عدد عظيم من المتطوعين . وأصاب محمد علي هدفه ، فتم له ما أراد من سؤدد وسلطان

وكانت درة في اثناء ذلك تقوم بواجبها كحارس وجندى ، تسهر على راحة سيدها ، ولاتحجم أمام الاخطار ، فتخوض غمار المعارك عندما تقتضى الحال

لكنها أحبت فتى لم ينل حظوة في عين ولي نعمتها . فأنبها الأمير على ذلك ، وحاول عبثاً أن ينتزع من قلبها جرثومة ذلك الغرام ، الذى كان يوجس منه خيفة لاسباب لم يبح بها لأحد

لكن الحب ، متى تملك قلبا وبسط سلطانه عليه ، كانت له الغلبة وفشل أمامه كل سلطان !

أحس الامير بأنه لم يعد وحده مالكا قياد الفتاة . وان هناك قوة اعظم من قوته تسيطر عليها، ونفوذاً أبعد من نفوذه يسيرخطاها . وفي صباح يوم من أيام شهر يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٩ ، نادى بشير الشهابى صديقته الباسلة ، وكانت أمارات القلق والاضطراب بادية على محياه . وبعد أن تنهد مراراً وحدق البصر طويلا في درة ، قال لها :

— درة . اني مرسلك في مهمة خاصة اعلق على نجاحها اهمية كبرى. ويحملنى على اختيارك دون سواك ماوضعته فيك من ثقة لاحد لها . خذى هذه الرسالة واسرعى الى دمشق . وهناك ، عند قوس النصر القديم المتهدم ، تجدين رجلا في زى بدوى. اقتربى منه وقولى : «بشار!»

وعند ما يجيبك الرجل : « بشير ! » ادفعي اليه هذه الرسالة وعودي إلي بلا ابطاء

* * *

— لا حياة فيها

— من تـكون هذه الفتاة ؟

— من يدري ؟

— فتاة متنـكرة بملابس الفرسان

— أمر غريب !

كلمات تبادلها المارة عندما عثروا على جثة الفتاة المسكينة ، مطعونة في ظهرها، وملقاة على الحضيض في أسفل « قوس النصر القديم المتهدم »

هكذا ماتت « درة بنت النصيري »

من هو ذلك النذل الجبان ، الذى بادر فتاة بطعنة خنجر في ظهرها، بينما كانت تبحث عن الرجل الذي اوفدها اليه الامير ؟ هل يكون الرجل المنشود هو نفسه الذي فعل تلك الفعلة الشنعاء ؟وماهو مضمون الرسالة ياترى ؟

هل يكون الامير الشهابي قد أرسل صديقته إلى الموت متعمداً ؟ هل في الأمر خيانة أو مكيدة ؟ ام كتب لتلك الفتاة على صفحات القدر ، ان تموت بخنجر سفاح زنيم ، بعد أن عجزت عن النيل منها في ساحات الوغى رماح الفرسان وصوارم الابطال ؟

— ٢ —

دموع سليمان

خاف عبد الله باشا على نفسه من اتساع سلطة محمد علي باشا . وداخله الحسد من نجاح عزيز مصر المستمر ، وازدياد قوته ونفوذه . فقرر البقاء في طاعة الدولة العلية ، ومناصرتها عليه . وكان يفخر بأن عكاء ، مدينته الحصينة ومعقله المنيع ، لا تنال أسوارها ولا تدك أبراجها ، ويعلل النفس بأن يرى جيوش المهاجمين ترتد عن تلك المدينة خائبة ، كما ارتدت عنها من قبل جيوش بونابرت ، وخارت أمامها عزيمة ذلك القائد العظيم

أما محمد علي باشا ، فكان قد أعد للهجوم عدته ، بعد أن مهد له السبل ، وعقد مع حليفه الأمير بشير اللبناني معاهدة أبرمت بالدم والأقسام المغلظة . ودرب على القتال ثلاثين ألفاً من جنوده البواسل ، زودهم بأربعين من مدافع الميدان ، وعدد كبير من مدافع الحصار . وجهز للسير بحراً إلى السواحل السورية ، اربعين من مراكب النقل وسفن القتال

لم يبق غير تحين الفرصة للهجوم ، وتنفيذ الخطة المرسومة منذ عشر سنوات

كان محمد علي ينشط زراعة التوت وتربية دود الحرير في مصر . وكان يجلب البذور من لبنان . فحال عبد الله باشا دون ذلك ، واستولى عنوة على المؤن المرسلة من بشير إلى صديقه وحليفه

وكان محمد علي باشا قد منع هجرة الفلاحين إلى خارج القطر فراراً من الجندية . ففتح لهم عبدالله باشا أبواب ولايته، ورحب باقامتهم في كنفه ، نكاية بخصمه وتشفياً منه

فكان ذلك كافياً لاشعال نار الحرب

وبدأ الزحف في اليوم الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣١ سارت الحملة، بعضها برا بطريق العريش فيافا فحيفا، بقيادة ابراهيم باشا « الصغير . » وبعضها بحرا من الاسكندرية الى يافا فحيفا ، بقيادة ابراهيم باشا « الكبير . »

وكان أمير البحر عثمان نور الدين بك يقود الأسطول ويشرف على نزول الجند إلى البر

وهناك - في حيفا - التقت القوتان ، ووحدت الصفوف ، ووضع قاهر الوهابيين ومدوخ المورة الخطة النهائية للهجوم

خضع له فى بادىء الأمر مشايخ القدس ونابلس وطبريا ، لاستيائهم من عبد الله باشا . فبسط الفاتح المصري حكمه على المقاطعات المحيطة بعكاء بلا قتال ، فأصبحت طرق مواصلاته في مأمن من المفاجئات

وشخصت الأنظار إلى عكاء !

عكاء الحصن الحصين ، الذى طالما تحطمت تحت أسواره الضخمة هجمات المهاجمين ، وتبددت أمام أبراجه الشاهقة أحلام الفاتحين !

عكاء التى تحوم حولها في سكون الليل أرواح الأبطال الصناديد ، الذين أهرقت دماؤهم في خنادقها، وتكدست اشلاؤهم في أزقتها، من عهد الاسكندر قاهر الفرس والماديين ، الى عهد « غودفروا » قائد الصليبيين ، الى عهد صلاح الدين فخر المسلمين ، الى عهد بونابرت نابغة الفرنسيين !

عكاء الشامخة التى لابد من اذلالها !

كانت منيعة فزادها « الجزار » مناعة بعد ارتداد الفرنسيين عنها، وطوقها بسلسلة ثانية من الاسوار والخنادق

وبذل عبد الله باشا جهده فى اعدادها لمقاومة الحصار المنتظر . فوزع فيها جنوده من دالاتية والبانيين وعرب . وكان لديه من الذخيرة والمؤن والمياه ما يكفيه للمقاومة سنوات

***

شرع المصريون في الحصار براً وبحراً ، في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٣١

وفي الثامن من دسمبر (كانون الاول) ، اطلقت المدافع للمرة الاولى على المدينة من جميع جهاتها . فقابلها رجال عبد الله بنار حامية

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

أقبل عليه المتطوعون من كل صوب ، وحمل اليه بشير الشهابى وأبناؤه ـ تحف بهم كواكب الفرسان ـ تحية الجبل الابيض ، ودعاء اللبنانيين بفتح قريب وفوز مبين

وزع ابراهيم جنوده على المدن المحتلة ، فبقى معه عشرون الفاً من الرجال ، وستة وثمانون من مدافع الحصار

واستبسل عبد الله باشا في الدفاع عن أسواره . فأرسل اليه ابراهيم يعرض عليه التسليم ويعده بمعاملته بالحسنى . لكنه أبى وعهد الى مدافعه في الاجابة عنه

فشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وقلق السلطان . فأوفد الى محمد على باشا رسولا يفاوضه في القاء السلاح ، لان الحرب تحول دون وصول الحجاج الى بيت الله الحرام

فأبقى محمد على رسول السلطان شهراً كاملا في المحجر الصحى ، بحجة

أن في الاستانة وباء، وأن الرسول قد يكون حاملامعه جراثيم قاتلة من ذلك الداء

وكانت نيران الحرب تشتد في تلك الاثناء سعيراً . ففطن السلطان الى الحيلة . وأصدر أوامره الى حكام البلاد بأن يجردوا جيوشهم لملاقاة ابراهيم ورده على أعقابه

فاشتد ساعد عبد الله باشا ، وتضاعف عناده في المقاومة

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وفي الثالث والعشرين من دسمبر ١٨٣١ أحدثت المدفعية المصرية الثغرة الاولى في سور المدينة الشرقي

واحتل المصريون بمساعدة اللبنانين مدن صور وصيدا وطرابلس

وفي أول شوال ١٢٤٧ هـ – الموافق ٣ مارس ١٨٣٢ م – صدرت « التعيينات الشاهانيـة » خالية من ذكر مصر . ووجه السلطان الى محمد علي وابنه ابراهيم انذاراً نهائياً بالرجوع الى الطاعة

فضرب محمد علي بالانذار عرض الحائط

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

كان يتفقد الجنود بنفسه . ويشرف على الاعمال الحربية في الليل والنهار . وفي العاشر من شهر مارس (آذار) أحدثت المدفعية المصرية في الاسوار ثغرة ثانية . فدخل منها الى المدينة قسم من الجيش ، ودارت معارك دموية هائلة في الشوارع والمنازل ، وانفجرت الالغام تحت أقدام الجنود ، فاضطروا إلى العودة الى ماوراء الاسوار . . .

لكنهم لم يفقدوا قوتهم المعنوية ووثوقهم من النصر، فهتفوا لقائدهم وجددوا له ايمانهم فيه وثقتهم به

وشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وفي أواخر مارس ، عين الباب العالى وزيره حسين باشا قائداً عاماً

للجيوش المصرية .وولاه حكومة مصر وكريت والحبشة . وصدر الأمر بعزل محمد علي باشا من ولايته

فاستصدر محمد علي من الشريف محمد بن عون فتوى بتكفير السلطان محمود . وطلب من ولده أن يذكي نار الحرب سعيراً

فشدد ابراهيم على عكاء الحصار !

وسار بنفسه الي طرابلس وبعلبك وحمص . ونكل بالاعداء في مواقع عديدة

ثم عاد الى المدينة المحاصرة ، وعقد في السادس والعشرين من شهر مايو (ايار) ١٨٣٢ مجلساً حربياً ، تقرر فيه القيام بهجوم عام للاستيلاء على عكاء

وفي اليوم التالي ، تمكن قائد المدفعية ، سليمان بك الفرنساوى ، من إحداث ثغرات جديدة في الاسوار

فجرد ابراهيم باشا سيفه ، وهجم في طليعة الجند كأنه الريح الهبوب أو البلاء المصبوب . فاندفع الجيش في أثره وتدفق الى داخل المدينة كالأمواج المائجة المزبدة . ودارت رحى القتال بين الفريقين . فسالت الدماء غزيرة ، وبيعت الأرواح رخيصة ، وكان ابراهيم يرى في كل ناحية من ذلك الجحيم ، وقد صدق فيه قول القائل :

كأن سيوفه صيغت عقودا   تجول على الترائب والنحور !

***

دافع عبد الله باشا عن معقله دفاع اليائس المستميت ، وحاول عبثاً أن يصد عنه هجوم « أبالسة الميادين » وأن ينقذ فى آن واحد أسرته من الموت ، وثروته من السلب ، وولايته من الضياع

كانت الحصون تحمي جيشه أثناء الحصار . أما في مضمار القتال ، فان ذلك الجيش كان أضعف من أن يقوى على الثبات امام الجنود

المصرية المنظمة. وبعد أن دكت أسوار المدينة ، وانهزم المدافعون عنها، سقط ذلك الحصن الحصين في قبضة الغزاة ، وفاز ابراهيم باشا المصري بما عجز دونه القائد العظيم بونابرت الفرنسى !

ظل القتال الى ما بعد منتصف الليل . وعلى ضوء المشاعل ، تقدم عبد الله باشا طالباً العفو والأمان

فعفا ابراهيم عنه ، وأمنه على حياته ، وأرسله الى مصر حيث أسكنه محمد علي قصراً فخماً في جزيرة الروضة

***

كان معظم الفضل في ذلك الانتصار الباهر لقائد المدفعية المصرية « سليمان بك الفرنساوي » الذي أحدث الثغرة الاولى في تلك الجدران الهائلة المحيطة بالمدينة احاطة السوار بالمعصم ، وحطم بقذائفه الصائبة الابواب الضخمة المنيعة ، ومكن الجنود من اقتحامها وإبادة حاميتها والقبض على عبد الله باشا وسوقه الى الأسر ذليلا

وقد هنأ ابراهيم قائد مدفعيته ، وأثنى على مهارته، وعهد اليه بقيادة ستة آلاف من أبطاله البواسل . فسار بهم من ميدان الى ميدان ، والفوز حليفه وحليفهم . فهزم الاتراك في بيلان واسكندرونة ، ومهد السبيل للنصر في واقعة قونية الفاصلة ، كما مهده من قبل أمام أسوار عكاء

فكافأه ابراهيم بأن أنعم عليه برتبة «باشا» وخصه بثقته ومحبته دون سواه من القواد والانصار

***

القدس الشريف . . . أورشليم . . . بيت المقدس . . .

قف خاشعاً أمام تلك القرية الكبيرة المتهدمة ، وسمها ما شئت ، فهى في نظر الاديان الثلاثة مهبط الوحى وموضع الاجلال والاكرام

ثم تجول في طرقاتها ، وتوغل في ثنايا أزقتها ، وتصفح تلك الوجوه التي تلاقيها في طريقك ، تجد فيها أنموذجاً من كل بشرة وسحنة

ذلك لأن المدينة المقدسة ، التي اتخذها الانبياء والرسل موطناً ومقاماً لهم ، كانت ولا تزال في أعين البشرية وعرفها ، موطناً ومقاماً لكل انسان مهما يكن مذهبه أو جنسه !

وهذا الاختلاط الغريب الذي نشاهده اليوم في أورشليم ، كان من قبل وسوف يظل من بعد على كر الدهور ، صبغة خاصة بالمدينة السورية ، وطابعاً يميزها عن اخواتها في مختلف الاقطار والامصار

***

تمتعت أورشليم في عهد المصريين براحة لم تعهدها من قبل . وساد بين سكانها روح وئام لم يألفه أسلافهم فى العصور الحوالى . فعم الهناء والحبور ، وارتفعت الاصوات بآيات المديح والثناء ، تترنم بعدل ابراهيم وتضرع الى الله ببقائه وتثبيت سلطانه

وكان « سليمان باشا الفرنساوي » ممن يحملون في طيات صدورهم اجلالا خاصاً لتلك المدينة التاريخية العظمى . فكان يتردد عليها أثناء إقامته في أرض الشام ، ويطوف فيها باحثاً متفرجاً سائلا

دخلها ذات يوم بعد عودته من قونية ، ممتطياً صهوة جواده العربى ، وجعل يتفقد بيت المقدس كعادته

وصل الى قبر المسيح ، فوقف أمامه خاشعاً ، وسرح بصره يمينا ويساراً ، وهم بمتابعة السير

لكنه أجفل لجأة ، وترجل مسرعاً ، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة والحيرة

ذلك لانه أبصر ، على مقربة منه ، شخصاً لم يكن ينتظر لقاءه فى ذلك المكان . شخصاً أعاد الى ذهنه ذكرى أيام خلت ، وحوادث تركت فى نفس ذلك الجندى أثراً عميقا !

اقترب سليمان من ذلك الشخص مضطربا مرتجفاً ، يحدق فيه البصر ، ولا يدري أفي حلم هو أم فى يقظة

وتمتم سائلا :

— مارى لويز ؟

رفع الشخص رأسه . . .

هى امرأة فى الخامسة والاربعين من عمرها ، لعب الشيب فى رأسها ، وحفرت الشيخوخة فى وجهها الاخاديد قبل الاوان

نظرت الى الرجل الشاخص أمامها بعينين قد أطفىء فيهما بريق الذكاء . وزاد جبينها تقطباً ، كأنها تبحث فى سجل ذاكرتها ، عن اسم سبق لها أن طبعته فيه . ثم اختلجت شفتاها وسقط من بينهما هذا الاسم :

— سيف ؟

هو اسم سليمان باشا الفرنساوي ، قبل أن يهجر وطنه فرنسا ، ويحط رحاله في مصر ، ويستعيض عن فرنسيته ومسيحيته ، بمصريته واسلامه

سأل المرأة :

— كيف وصلت الى هذه الاقطار وماذا تصنعين هنا ؟

— اقيم في هذه المدينة مع زوجي ، وهو خادم في كنيسة اللاتين

— زوجك ؟ أتعنين الضابط شارل جيرار ؟

— أجل

— هل شفى من جرحه ؟

— نعم . لكن الاطباء قد بتروا ذراعه اليمنى

— مسكين جيرار !

***

وعاد سليمان بذاكرته الى الماضى ، الى ثلاثين سنة خلت ، حيث كان جندياً فى البحرية الفرنسية

كان يحب الفتاة « مارى لويز » وهي من مدينة « ليون » مسقط رأسه . وكان الفتى والفتاة قد تعاهدا على الزواج

لكن الضابط « سيف » كان شرساً نزاعاً الى الحرية والاستقلال فى الرأى والعمل . فقامت ذات يوم مشاجرة بينه وبين رئيسه ، فى السفينة الحربية التي كان يخدم فيها ، فهجم سيف على غريمه ، وانهال عليه ضربا ، وكاد يودى بحياته لو لم يدركه الجنود

ومثل سيف أمام محكمة عسكرية حكمت عليه بالاعدام . . .

لكن أحد اصدقائه المعجبين بشجاعته واقدامه ، بذل نفوذه لدى الامبراطور نابوليون . فأبدل حكم الاعدام بعقوبة اخرى

وقطعت اسرة الفتاة بعد ذلك الحادث كل علاقة بالجندى الشرس المحكوم عليه

ثم مرت الايام. وارتقى سيف فى سلك الجندية من رتبة الى رتبة ، مشتركا فى حروب نابوليون وغزواته ، يبلى في الميادين البلاء الحسن ، ويصاب بجرح اثر جرح ، وينتقل من نصر الى نصر . . .

وكانت حروب روسيا سنة ١٨١٢ . فاخذ سيف نصيبه منها ، وقطع مرحلة جديدة في مراقى المجد

وهناك ، فى تلك الاصقاع الثلجية ، بينما كان جيش نابوليون عائداً أدراجه الى فرنسا ، والاعداء يحدقون به من كل صوب ، والجنود يسقطون فى الطريق جوعا واعياء ، هناك التقى سيف ثانية بالمرأة التى احبها وأحبته

كانت مارى لويز قد التحقت بالجيش ، تخدم الجنود وتواسي الجرحى ، وقد ارغمها اهلها على الزواج بالضابط جيرار ، من رجال المدفعية

أصيب الزوج بشظايا قنبلة هشمت ذراعه اليمنى ، اثناء اجتياز الجيش جسر « البرزينا » ولو لم يدركه سيف ويحمله وراءه على سرج

جواده ، الى مركز الاطباء والممرضين ، لقضى الرجل نحبه في ديار الغربة ، بين الثلوج المتراكمة

وهكذا أنقذ سيف الرجل الذى حل مكانه في قلب حبيبته !

* * *

قصت مارى لويز على سليمان باشا قصتها . وأخبرته كيف خرج زوجها من الجيش بعد زوال الامبراطورية من فرنسا ،وقبوله العمل في دير الرهبان اللاتين بالقدس الشريف ، بعد أن سدت في وجهه أبواب الرزق في وطنه

أصغى اليها القائد واجماً حزيناً . ولما أتمت حديثها سألها :

— وأنا . أما زلت تذكريني بالخير يا مارى لويز ؟

فسكتت المرأة لحظة، ثم نظرت اليه بعينيها ، وقد عاد اليهما بريقهما الاول ، وترقرقت فيهما الدموع ، وقالت بصوت متهدج حزين :

— لقد أحببتك يا سيف ولم أحبب قط سواك . لكن ذلك الحب قد أمسى من آثار الماضي ، فانتقل من القلب إلى الذاكرة !

فأخذ سليمان باشا يد مارى لويز ، ووضع عليها قبلة حارة

لم تنم تلك القبلة عن حب وهيام . ولكنها كانت رمز احترام واجلال

واغرورقت عيناه بالدموع . وهى الدموع الاولى التى سقطت من مقلة ذلك القائد المغوار !

- ٣ -

خيط العنكبوت

دسمبر سنة ١٨٣١ ...

دخلت الجيوش المصرية بيت المقدس . فنفخ في الابواق ونادى المنادى داعياً وجوه المدينة وأعيانها الى الاجتماع أمام المسجد الاقصى . فلبى الجميع النداء ، ووقف فيهم رسول ابراهيم يفضي اليهم بمشيئة القائد العام ، ويتلو عليهم «مرسوماً» يوجه فيه ابن محمد على الخطاب الى الناس باسم أبيه عزيز مصر :

«الى شيخ الحرم القدسي ، الى مفتي هذه الديار ، الى النائب وجباة الاموال وغيرهم من حكام ومشايخ وزعماء في ولاية صيدا وبيت المقدس والحاضرة والبادية . يقول ابراهيم بن محمد علي : بلغنى أن اليهود والنصارى لا يعاملون بالحسنى ، فآمر بالتسامح في معاملتهم . وآمر أيضاً برفع التكاليف عنهم لأنها تؤخذ منهم ظلماً وجوراً . وسواء لدي أكان أولئك النصارى واليهود من أبناء هذه البلاد أو من الاغراب المقيمين فيها أو الحجاج الذين يفدون على بيت المقدس زائرين متبركين . وآمر أيضاً بالغاء رسوم الخفر التى تجبى من النصارى الذين يقصدون الى ضفاف نهر الشريعة للاغتسال في مياهه المقدسة ، أو الى كنيسة القيامة لأداء فروض العبادة والصلاة . وآمر أيضاً بأن تكون حرية الأفراد محترمة في أعمالهم ومعتقداتهم وروحاتهم وغدواتهم . وآمر أيضاً بألا

تلبسوا الحق بالباطل . و سأسهر على راحتكم جميعاً وأجعل لواء الانصاف يرفرف فوق هذه الربوع ويخفق خفوق أعلامنا المظفرة في ميادين القتال . هذا مايأمر به ابراهيم بن محمد على فكونوا له طائعين . »

***

يونيه (حزيران) سنة ١٨٣٢ ...

عقد اليهود في المدينة مجلساً ، فتصدر الحاخام « كوهين الماردينى » ذلك المجلس . وألقى على الحاضرين بعد أن اكتمل عقدهم هذا السؤال :

« كلفت بان أحمل الى قائد المصريين شكاوى أبناء اسرائيل . فهل بينكم من لديه شكوى يرفعها اليه ؟ »

فأجابوا جميعاً وبصوت واحد : « لا »

ونهض « حايم الحداد » وبعد الاستئذان والسماح له بالكلام قال :

— أنا من أبناء الشعب أيها الاخوان . أحترف مهنتي في هذه البلدة منذ اكثر من عشرين سنة . ولم تمر علي أيام أفضل من هذه الايام

فقال الحاخام كوهين :

— كان الحكام من قبل يهملون تأمين الحقوق واقرار السكينة. فكان حبل الامن مضطربا ، والناس على أموالهم خائفين ، وللنهب والسلب معرضين . ألم يشبهوا الحكام السابقين برمال الصحراء الدائمة الظمأ ؟ كانت أموالنا تتسرب إلى جيوب أولئك الطغاة كما تتسرب المياه إلى جوف الرمال . أما الآن فقد تبدلت الظروف وتغيرت الاحوال . إن ابراهيم المصري قد ضرب على أيدى المفسدين ودفع عن الناس شرهم . لقد أمر جنوده برد الاسلاب والغنائم التي أخذوها من الاهالي في عكاء الى أصحابها ، وأمن الجميع على أملاكهم ومنقولاتهم . فلنضرع الى الله أن يحفظ ابراهيم من الاذى ، وأن ينصر جيوشه على

اعدائه ، ويذلل في طريقه الصعاب ، ويصونه من كيد الكائدين !

فنهض الجميع ، ورفعوا الى السماء اكف الضراعة قائلين بصوت واحد : « آمين ! آمين ! »

* * *

عاد حايم الحداد الى منزله في المساء ، فخفت ابنته «استير» للقائه ، وضمها الرجل الى صدره ، ودخل الاثنان الى الغرفة الوحيدة التي يتألف منها المنزل الحقير

وسألت الفتاة أباها :

— لماذا تأخرت في العودة الليلة يا أبي ؟ ألا تعلم انني أخاف عليك، وان وجود المصريين في هذا البلد يملأ قلبي رعباً ، ويمنع عني الراحة مادمت بعيداً عن البيت ؟

فطبع حايم قبلة على جبين وحيدته وقال :

— لا تخشي شيئاً أيتها الحبيبة . فان المصريين يحافظون على أموالنا ويحترمون حريتنا ، وقد قيل لى ان قائدهم ابراهيم باشا بن محمد علي والي مصر ، يشدد المراقبة على جنوده ، ويخرج ليلا متنكراً للوقوف بنفسه على حركاتهم وسكناتهم . وما تأخرت الليلة إلا لأنني كنت أضع في مكان أمين النقود التى جاءنى بها خطيبك « الياهو » وأودعها أمانة بين يدي

— وأين وضعتها ؟

— في حفرة أعددتها لهذا الغرض في الحانوت . وقد وضعت فيها أيضا جميع ما أملك من مال

— ولكن ، ألا تخاف أن يسطو اللصوص على الحانوت؟

— كلا . فان العسس يطوف بانتظام في الأسواق.وأموالنا تكون في أمان هناك أكثر منها في منازلنا

وبعد سكوت قصير ، مضى حايم قائلا :

— دعينا من هذا كله الآن وعلينا بالتوراة . . . فاستمرى في قراءة الفصل الخامس من سفر تثنية الاشتراع

فنهضت الفتاة ، وتناولت الكتاب المقدس ، وفتحته في الموضع الذى أشار اليه والدها وجعلت تقرأ :

« احفظ يوم السبت وقدسه كما امرك الرب إلهك . في ستة ايام تعمل وتصنع جميع اعمالك . واليوم السابع سبت للرب إلهك . لا تعمل فيه عملا انت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وثورك وحمارك وسائر بهائمك ونزيلك الذى في داخل ابوابك ، لكي يستريح عبدك وامتك مثلك

« واذكر انك كنت عبداً فى مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد قديرة وذراع مبسوطة. ولذلك امرك الرب بأن تحفظ يوم السبت. اكرم أباك وامك كما امرك الرب إلهك لكي تطول ايامك وتصيب خيراً في الارض التي يعطيك الرب . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . »

***

فتح الباب فجأة وظهر فيه « الياهو » خطيب استير مضطرباً قلقاً . وما وقع نظره على حايم حتى صاح به :

— أنت هنا يا عماه واللصوص في حانوتك ؟

صدم الحداد بهذه الكلمات صدمة عنيفة ، وظل ذاهلا شاخص البصر فاغراً فاه والعرق البارد يتصبب من جبينه . ثم رفع يده ببطء ومر بها على رأسه كأنه يحاول ان يدفع عنه كابوساً مزعجاً

وخشي الياهو عاقبة مفاجأته تلك ، فاقترب من الشيخ وجعل يعزيه ويطيب خاطره قائلا :

— ما الداعي الى القنوط يا عماه ؟ فليحمل أولئك اللصوص

ما يجدونه في حانوتك من حدائد يعلوها الصدأ . لا يجمل بك ان تستسلم لليأس من اجل ذلك . ولو علمت ان النبأ سيؤثر في نفسك الى هذا الحد لما حملته اليك

ثم التفت الشاب الى استير وأومأ اليها فاقتربت من ابيها وطوقت عنقه بذراعيها وقالت :

— صدق الياهو يا ابي . فما من داع إلى اليأس

وقاطعها الشاب قائلا :

— كنت ماراً على مقربة من الحانوت في طريقي اليكما ، فتنبهت الى حركة غريبة أمام باب الحانوت ، واقتربت فاذا بثلاثة رجال قد خرجوا من الباب وابتعدوا مسرعين. فناديتهم ولكنهم اختفوا مهرولين في الازقة الضيقة تحت جنح الظلام . وأسرعت الى البيت أحمل الخبر

وهنا رفع حايم رأسه متمتما :

— الياهو ... الويل لي! انني لشقي تعس ... النقود ... جميعها ... نقودك ونقودى ... كل ثروتنا ... هناك ... في الحانوت ... لقد سرقوها ...

فانتفض الياهو وقد داخله الخوف على أمواله ، وسأل الشيخ مستفهماً :

— ماذا تقول : النقود ؟ هل وضعتها هناك ؟

— كلها ... فى حفرة ... الى يمين السندان ... تحت النافذة ...

ولم ينتظر الياهو أكثر من ذلك ، بل وثب الى الخارج وأخذ يعدو كالمجنون في الأزقة المظلمة ، راكضاً الى الحانوت الذى كان يظنه خالياً خاويا الا من الحدائد الصدئة ، والذى كانت جدرانه تضم ثروته وثمرة أتعابه على غير علم منه !

***

عاد الشاب بعد حين ممتقع الوجه شاحب اللون ، ودموعه تسيل غيظاً وكمداً

ولما دخل غرفة المنزل ورآه حايم على هذه الحالة ، أدرك ان المصيبة قد وقعت ،وأن اللصوص قد اهتدوا الى المخبأ وعثروا على المال وفروا به غانمين

سقط الشاب على الارض باكيا . لكن الحداد نهض واقترب منه ، وقال له بلهجة الآمر :

— انهض يا الياهو . كنت منذ ساعة تأخذ علي استسلامى لليأس والقنوط . فلا تقع في الضعف الذى كنت تؤنبني عليه . انهض ولنسرع إلى قائد المصريين ، نرفع اليه شكوانا . ونطلب اليه انصافنا واعادة اموالنا الينا

وخرج الاثنان الى منزل القائد ابراهيم بن محمد على ،الذى كان يحتل البلاد بجيشه المظفر ، ويقيم في مدينة أورشليم عاصمة الاراضى المقدسة، وقبلة اليهود والنصارى والمسلمين

***

وصل الرجلان الى باب الامير فوقفهما الحراس . ولكنهما طلبا بالحاح المثول بين يدي القائد. وكان ابراهيم في ذلك الوقت لا يرد زائراً أو طالب حق عن بابه . فأمر بادخالهما فدخلا . وبعد التحية خاطب حايم القائد قائلا :

— مولاى . ان شكواى لا تتطلب كلاما كثيراً . فدعني أبسطها لك وأوجه اليك عتاباً

فابتسم الامير وأجاب :

— قل ما شئت ايها الشيخ فعليك الامان !

— مولاى ،إنك تتغنى بالنظام . وتكثر من ذكر الشريعة . وتدعى انك ما دخلت هذه البلاد إلا لاقامة العدل والانصاف . وتطلب الينا ان ننام مطمئنين على ارواحنا واموالنا ، لانك انت ساهر على الجميع . فدعني اعاتبك يامولاى : لقد قضيت عشرين سنة في هذه البلاد

تحت حكم الاتراك ، الذين جئت تجارتهم ، دون أن يقع علي ضرر ، او يمد احد يده بسوء الى اموالى . اما الآن فقد تغيرت الاحوال . ! . بالامس جئتنا فاتحا مؤمنا . واليوم اقتحم اللصوص حانوتي ، وسرقوا ما فيه من نقود . فان كنت حامى حمانا كما تدعي ، فاقبض على السارق واعد إلي مالى ؟ هذا ما جئت ارفعه اليك. فاعطنا برهانا إما على قدرتك وعدلك ، وإما على عجزك وظلمك

ولما انتهى الرجل من كلامه ، قال ابراهيم :

— عد الى بيتك ايها الشيخ . وغداً سنقبض على السارق ونرد اليك مالك !

***

أفاق الناس فى صباح اليوم التالى على صوت المنادي يقول :

— يا اهل اورشليم وسكان القدس . بأمر القائد العام ، والامير العظيم ، والغازي المظفر ابراهيم باشا المصرى ، ادعوكم الى الاجتماع اليوم فى منتصف النهار ، فى سوق المدينة امام حانوت حايم الحداد . فان معجزة عظيمة ستظهر هناك . . . لا تتخلفوا عن الحضور . . . يا أهل أورشليم وسكان القدس ، بأمر ابراهيم باشا . . .

وما انتصف النهار حتى كان سكان المدينة جميعهم قد توافدوا زرافات ووحدانا على السوق ، أمام حانوت الحداد حايم ، لرؤية المعجزة التى وعدهم بها المنادي . وبينما هم كذلك ، إذا بابراهيم باشا تتقدمه كوكبة من الفرسان الدروز الذين اتخذهم حرساً خاصاً ، وتتبعه كوكبة أخرى من الفرسان الارناءوط الذين ساروا معه من مصر ، يخرج من داره ويخترق جموع المحتشدين في السوق ويقف أمام حانوت حايم

وهناك التفت القائد الى الناس وقال :

— يا قوم . إن الشرائع تنص على إنزال العقاب بكل من يقترف عملا سيئاً ، أو يرتكب جريمة ، أو يقصر في أداء الواجب عليه، سواء أكان المقصر في أداء الواجب انساناً أم حيواناً أم أى شيء آخر غير ناطق أو عاقل . وقد جئت الآن لانزال العقاب بهذا الباب الذى ترونه أمامكم، باب حانوت الحداد حايم ، الذى عجز بالامس عن حماية أموال صاحبه. لقد اقتحم اللصوص هذا الحانوت وقصر الباب في أداء واجبه ، فليجلد مائة جلدة !

وطاف المنادى بعد ذلك ، وأعاد على مسامع القوم أقوال مولاه . ثم تقدم الجلاد وضرب الباب مائة جلدة !

ولما انتهى الجلاد من عمله ، وضع ابراهيم باشا أذنه على قفل الباب منصتا ، والناس من حوله، وأعناقهم متطاولة ، وأعينهم محملقة، وآذانهم مرهفة ؟

لكنه مالبث أن رفع رأسه وصاح غاضباً :

— لم أفهم شيئاً ... فليجلد الباب مائة جلدة أخرى !

فتقدم الجلاد مرة ثانية ، ونفذ في الباب حكم سيده . ولما انتهى تقدم ابراهيم ووضع أذنه على القفل ثانية كما فعل من قبل

ثم قال في وسط ذلك السكون العميق :

— فهمت الآن ، تقول إن اللص الذى اقتحم الحانوت واقف الآن بين هذه الجماهير ؟ وإن على رأسه خيط عنكبوت علق به أمس ؟ حسن حسن !

ولما أعاد المنادى كلام الامير بصوته الجهوري ، رفع ثلاثة رجال أيديهم إلى رءوسهم باحثين عن خيط العنكبوت !

وكان جنود ابراهيم قد انتشروا بين الناس ، وهم على علم بالحيلة التى عمد اليها قائدهم ، فقبضوا على الرجال الثلاثة ، واتضح أنهم اللصوص

الذين سطوا على حانوت حايم الحداد ، وسرقوا منه المال المودع في الحفرة وجيء بهم الى الامير، فاعترفوا بذنبهم، وحكم عليهم ابراهيم برد المال الى صاحبه. ثم أمر بجلدهم كل واحد مائة جلدة ، امام باب الحانوت الذي اقتحموه بالامس !

ولما رأى حايم ذلك ،اقبل على الامير والقى بنفسه على قدميه يقبلهما مردداً :

— إنك يامولاي لحامى حمانا ، ومقيم الانصاف بيننا ، ورافع لواء العدالة في ربوعنا !

فأخذه إبراهيم بيده وقال :

— لن يذكر التاريخ أن ابراهيم بن محمد على، عامل الاصدقاء معاملة الاعداء، أو نام على ضيم ، أو لم يستمع لشكوى، أو ترك سيئة ترتكب دون أن يقتص من فاعلها . فاذهب ياحايم، وعد الى حانوتك، ونم في بيتك مطمئناً على نفسك وعلى أموالك . فان عيني ساهرة لاتنام . وليعلم الملأ اننا نشهر ميزان العدل متى أردنا، ونجرد السيف متى شئنا، واننا لمنصفون في الرعية، ومنتصرون في الحروب الدموية !

***

كان ذلك اليوم يوم فرح وحبور في منزل حايم الحداد . ولما قص الرجل على ابنته ماجرى في السوق أمام الحانوت ، قالت الفتاة والدموع تترقرق في عينيها :

— كنت أضمر لأولئك المصريين شراً ، وكنت أكرههم وأضرع الى الله أن ينقذنا من أيديهم كما أنقذ أجدادنا من الفراعنة أجدادهم . أما اليوم، فقد عدلت عن رأيي الاول، وصرت اعتقد أنهم حكام منصفون

— حسن جداً يا ابنتي. انك لعلى صواب في اعتقادك. وهل يجمل بنا أن نسيء الظن بعد اليوم في أولئك الفاتحين ، وأن نطلب منهم برهاناً على حسن

نيتهم وصدق طويتهم، أسطع وأجلى من الذى أدلى به الينا ابراهيم اليوم؟
وبعد سكوت قصير قال :
— علينا بالتوراة يا استير. واستمرى في قراءة الفصل الخامس من سفر تثنية الاشتراع ، في الموضع الذى وقفك فيه عن القراءة دخول الياهو حاملا الينا ذلك النبأ المزعج
فتناولت الفتاة التوراة واستمرت في قراءتها :
«. لاتقتل. لاتزن. لاتسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور . لاتشته زوجة صاحبك ولاتشته بيته ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لصاحبك . هذه الكلمات كلم الرب بها جماعتكم كلها في الجبل من وسط النار والغمام والدجن بصوت عظيم ولم يزد . وكتبها على لوحى الحجر ودفعها الى . . . »
وضم حايم الشاب والفتاة إلى صدره وقال :
— لقد عشنا معاً يابنى في السراء والضراء . وأوشكنا أمس أن نصبح فقيرين معدمين . فضع على جبين خطيبتك أستير قبلة المحبة والاخلاص . وغداً سيعقد لك عليها ، وتبتسم لك الحياة عن ثغرها ، فتستقبلان معاً السعد والرغد والهناء !

— ٤ —

زهرة المغرب

— لقد مات أبي ، وماتت أمي ، ولم يبق لي في هـذه البلدة من أمت اليه بنسب . فخير ما أصنعه أن أرحل عنها !

هذا ما كان يقوله الشاب « أحمـد الدباغ » لجاره في منزل على شاطىء البحر ، في مدينة « غزة » السورية

فسأله الجار :

— وإلى أين تقصد يا أحمد ؟

— سألتحق بالجيش المصري متطوعاً . لعل حمى القتال وضوضاء المعارك ورائحة البارود وصليل السيوف ... لعل كل ذلك ينسيني بعض ما أنا فيه من حزن وكمد وأسى !

وفي اليوم التـالي ، وضع الشاب فكرته موضع التنفيذ ، وحقق رغبته في الالتحاق بجنود ابراهيم المظفرة

كان ذلك في شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ . فأرسل أحمد الدباغ مع فريق من المتطوعين إلى طرابلس ، التى استولى عليها الغزاة ، وأقاموا فيها حامية مؤلفة من الف وخمسمائة جندي مصري بقيادة الميرالاي ادريس بك ، والف فارس من دروز لبنان بقيادة احـد انجال الأمير بشير ، وخمسمائة من متطوعى نابلس وغيرها

وهاجم الاتراك المدينة بعد وصول الشاب بثلاثة أيام . فولج احمد

للمرة الأولى نيران المعارك ، وذاق مع رفاقه الأشاوس لذة القتال ونشوة النصر !

* * *

دافعت الحامية عن المدينة دفاعاً مجيداً . لكن القائد التركي عثمان باشا اللبيب كان يهاجمها بجيش لجب ومعدات هائلة . وكان ابراهيم باشا في ذلك الوقت يحاصر عكاء المنيعة

رأي القائد المصري أن لا بد من وجوده في ميدان الشمال . فشخص إلى طرابلس في اليوم الثاني من شهر ابريل (نيسان) ١٨٣٢ ، على رأس قوة من رجال الحرس وفرسان الجيش والبادية . وما علم عثمان باشا بقدومه حتى ولى وجيشه الأدبار ليلا ، منهزماً بلا قتال ، نحو « حماة »

لكن ابراهيم باشا لم يغادر عكاء لمشاهدة العدو هارباً فحسب . بل لاضافة انتصار جديد إلى الانتصارات السابقة . فتعقب الفارين بفرسانه ، وظلت السيوف تعمل في أقفيتهم ، والرماح في ظهورهم ، حتى تم له ما كان ينشده من فوز مبين ، وتشتت ذلك الجيش في السهول والجبال ، واستولى المصريون على آلاف الأسرى وأكداس مكدسة من الأسلحة والمؤن

تلك هي المعارك التي دونها التاريخ باسم « موقعة حمص » والتي كان في استطاعة المصريين أن يجعلوا عواقبها أشد شؤماً على الاتراك مما كانت ، لو لم تنقصهم ذخائر القتال !

كانت الأسلحة متوافرة لديهم ، لكن القذائف كانت غير كافية ، فاضطر ابراهيم أن يتقهقر إلى بعلبك حيث مخازن الجيش وذخائره

* * *

ظن العدو أن المصريين قد ارتدوا إلى الوراء خوفاً وجزعاً . فاستعاد عثمان باشا رشده ، وأعاد الكرة بفلول جيشه والفيالق التي وافته من الشمال ، وهاجم ابراهيم اعتقاداً منه أنه سيأخذه على حين غرة ، وذلك في الرابع عشر من ابريل سنة ١٨٣٢

كان عدد المصريين ستة آلاف جندي ، وعدد الاتراك أضعاف ذلك . فعهد ابراهيم الى سليمان الفرنساوي بالاشراف على القتال . وصمد ذلك الداهية للعدو بجيشه الصغير في سهل « الزراعة . » وما كاد ينتهي من التأهب للمعركة ، حتى كان الاتراك قد أحاطوا به من الجهات الأربع

ظنوا أن الفوز حليفهم . واعتقد عثمان باشا أنه سيعود في مساء ذلك اليوم ، سائقاً أمامه ابراهيم أسيراً ذليلا . لكن أحلامه تبددت ، وآماله تلاشت ، وما انقضت ساعات معدودات حتى كان ذلك القائد يطلق ساقيه للريح ، طالباً مسترحماً من جنوده أن يعيروه جواداً يمتطيه ، بعد أن قتل جواده تحته في حومة القتال

كانت هزيمة الاتراك في ذلك السهل شنيعة معيبة . ولم يقف عثمان باشا في فراره ، إلا بعد أن اطمأن على حياته في مدينة حماة

واشتدت عزائم الجنود بعد ذلك الفوز العظيم . وزالت الشكوك من نفوس المترددين من أبناء البلاد . وتضاعفت بذلك قوى الجيش الفاتح ، وازداد عدد أنصاره وحلفائه

عاد ابراهيم إلى بعلبك ، حيث وافاه عباس بن طوسون باشا بفرقتين من المشاة والفرسان ، وهناك أقيم مهرجان فخم ، احتفالا بالنصر ، وابتهاجاً بانهزام الاعداء

ووزع ابراهيم على الجنود والمتطوعين أسلاب المعارك ، وكان يجد أمام كل واحد ممن أبلوا في القتال البلاء الحسن ، كلمة طيبة يقولها ، وثناء مشجعاً ينعم به على أولئك الابطال

***

كان المتطوع العربي « احمد الدباغ » في عداد الرجال الذين قاتلوا قتالا مجيداً ، واسترعوا أنظار القواد والضباط ، فهنأه ابراهيم على إقدامه ، وخصه في توزيع الهبات والعطايا بعنايته

واشترك الشاب بعد ذلك في جميع المواقع الحربية ، وكان في الهجوم على عكاء والاستيلاء عليها في طليعة الصفوف

ثم مرت فترة هدوء وسكون . وانقضت أيام ذاق فيها الجند بعض الراحة ، على أثر ذلك العناء والارهاق

لكن فريقاً منهم عصى أوامر القائد ، ولبى نداء النفس الامارة بالسوء ، فاندفع في أعمال السلب والنهب ، واعتدى على السكان العزل الآمنين

غضب ابراهيم وثار من أجل ذلك ثائره . فدعا اليه ضباط الجيش ، وطلب اليهم أن يحيلوا إلى التأديب كل من عصى الاوامر من الجنود ، وتعدى حدود النظام والقانون

وجلس القائد على منصة في إحدى ساحات المدينة ، ينظر الى الزبانية يضربون بسياطهم المذنبين من أفراد الجيش

كانت الدماء تسيل غزيرة من ظهور المساكين وأرجلهم . فيرفعون أصواتهم طالبين « العفو والامان » مقسمين أنهم لن يعودوا الى المخالفة والعصيان

لكن ابراهيم باشا كان حازماً صارماً . وكان يعلم أن النصر لن يتم له ولجيشه ، إلا إذا عامل الجنود معاملة خشنة ، وأرغمهم على احترام القوانين إرغاماً

وفجأة ، أفلت أحد الجنود المذنبين من أيدى الجلادين ،وحاول أن يقترب من القائد . فأمسك به ضابط وأعاده الى مكانه . فقال ابراهيم:

— أي ذنب اقترف هذا الرجل ؟

— سطا على منزل أحد الموالين لنا ونهب ما وصلت اليه يده

— ما اسمه ؟

— احمد الدباغ . وهو من متطوعي غزة

فقطب ابراهيم جبينه وقال :

— اتذكر هذا الاسم

وظن الشاب أن ماضيه سيشفع له . فقبل الارض بين يدى ابراهيم وقال :

— نعم يا مولاى . لقد تفضلت وأبديت ارتياحك الى سلوكى في الميادين

لكن القائد المصرى كان يتبع في أحكامه منهجاً غير المناهج المألوفة. فصاح بالرجل غاضباً :

— أيها الشقى التعس . لو كنت جباناً لوجدت لك في جبنك عذراً يدفع عنك نقمتي ، ولأطلقت سراحك واكتفيت بطردك من الجيش. لكنك شجاع، وذنبك يتضاعف بالنسبة الى شجاعتك. لان الشجاع يعد مجرما أثيماً عند ما يقدم على اعمال كالتى أقدمت عليها

ثم سأل الجلادين :

— بأية عقوبة حكمتم عليه ؟

فأجابوه :

— بعشرين جلدة !

صمت ابراهيم هنيهة . ثم قال بهدوء وتؤدة :

— ليجلد أربعين جلدة . لخير أن يقال عن جنودي إنهم يفرون من الميادين ويتجنبون القتال ، من أن يقال عنهم إنهم يسلبون المارة وينهبون المنازل ويعتدون على العزل الضعفاء !

فجلد الرجل أربعين جلدة !

***

ثمانية أعوام مرت على ذلك الحادث

فر احمد الدباغ من الجيش المصرى ، وهام على وجهه في الفيافي

والقفار ، يقطع المفاوز الشاسعة ، ويعيش كما يعيش الشريد الطريد

وفي سنة ١٨٤٠ كان الرجل في الجزائر ، حيث رفع الامير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي لواء الثورة ، مستنهضاً همم القبائل ، داعياً أبناء قومه الى الجهاد في سبيل الدين والوطن

وكانت سبل العيش قد ضاقت في وجه الجندي الفار . فيئس من الحياة ، وحدثته نفسه بأن ينضم الى صفوف العرب ، كما انضم من قبل الى صفوف المصريين

فذهب الى عبد القادر . ولما مثل بين يديه قال :

ــ لست من أبناء قومك أيها الامير . لكنني من رجال البأس الذين ألفوا الكر والفر في ساحات القتال . فأطلب منك سيفا أو رمحا ، وأضع حياتي رهن اشارتك

ــ أهلا بك يابني . لك ماتريد ، على شرط أن يكون الدم الذي يجري في عروقك دماً عربياً أصيلا

قص الرجل على الامير قصته ، فاصغى اليه عبد القادر . ولما انتهى من حديثه ، قال البطل الجزائري :

ــ كفر اذن عن ذنبك الماضي ، وقاتل في صفوفنا قتال الابطال ، وتجنب أعمال اللصوص !

***

يوليه ــ تموز ــ سنة ١٨٤١

فاجأت كوكبة من الفرسان الفرنسيين قافلة عربية ، كانت تستقي من ماء ساقية ، في إحدى الواحات المهجورة . فشتتت رجالها في الصحراء ، واستولت على ما كانت تحمله الجمال من أسلحة وأرزاق

وأصيبت الفتاة « زهرة بنت عبد الله » بجرح في كتفها ، فجرت نفسها إلى ضفة الساقية حيث جعلت تغسل جرحها وتضمده

وهناك عثر عليها احمد الدباغ ، عندما وصل إلى ذلك المكان ، بعد يومين ، مع فرسان عشيرة « ضهره »

أسرع الشاب إلى الفتاة ، وكانت تئن من الالم والجوع ، فأسعفها ونقلها إلى مخبأ أمين . ولما عادت اليها قواها أخبرته بما حدث لها :

— لم يبق سواي في هذا المكان . فقد قتل من قتل وفر من فر . كنت وزوجي مع القافلة ، فأصيب برصاصة في صدغه ، ألقته عن جواده صريعاً

— ومن هو زوجك ؟

— الشيخ سالم الهاشمي . أما أنا فاسمي زهرة . والقوم يدعونني « زهرة المغرب ! »

فنظر اليها أحمد الدباغ ، وقال في نفسه :

— والله لم يخطئوا في التسمية ، فليست الازهار أبدع جمالا وأسطع بهاء منك !

لكنها زادت على ذلك قولها :

— مع انى لست من بنات المغرب ، ولم أر النور في الجزائر

— من أية بلاد أنت إذن ؟

— من عكاء

فانتفض الرجل ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة فرح وحبور :

— من عكاء ! أنت إذن من بنات وطني !

— كيف ؟ أنت أيضاً . . .

— ولدت في مدينة غزة هاشم . وأنا يتيم الابوين . ولكن أنت ، كيف جئت إلى هذه البلاد ؟

— وقع نظر الوالي عبدالله باشا علي ، فرغب في ، وألقى القبض على أبي وزجه في ظلمات السجون . ثم اختطفني من خدري ، وتركني في

قصره سجينة مع عشرات النساء ، اللواتى كن يتعذبن في ذلك الجحيم .
لكن أمة مغربية رقت لحالي وساعدتني على الفرار . فألتجأت الى الشيخ سالم الهاشمي المغربي ، وكان حينذاك في عكاء، فانقذني من الأسر، وأحسن الي الصنيع ، وطلب الي أن أصير زوجته فقبلت

— وبعد ؟

— عاد زوجي الى وطنه الجزائر فتبعته . وها قد مضت عشر سنوات على إقامتى في هـذه البلاد ، أتنقل مع زوجي الذى يحارب الفرنسيين من ميدان الى ميدان ، ومن واحة الى واحة

* * *

مثل أحمد الدباغ من جديد بين يدى الامير عبد القادر :

— مولاى ، جئتك في المرة الاولى طالباً منك السماح لي بالانضمام الى صفوف المقاتلين تحت لوائك . أما الآن ، فقد جئتك راجياً أن تحلني من قسمي ، وأن تسمح لي بالعودة الى وطني مع هذه المرأة ؟

وأشار الى « زهرة » التي كانت وراءه في ثوب الرجال

— ومن تكون هذه المرأة ؟

— زهرة قطفتها يد غريبة ، وحملتها بعيداً عن منبتها ، فذبلت وذهبت نضارتها

— افصح .!.

— وردة نقلت من تحت سمائها البعيدة ، الى هذا الجو الذي تحرقها حرارته. فمر يا مولاي باعادتها الى حدائق وطنها. إن «زهرة المغرب» تحن الى سورية ، أرض آبائها وأجدادها

— لقد أتيت يابني من ضروب الشجاعة والفروسية ، ما يجعل رفض رجائك نكراناً للجميل . فعد إلى بلادك واصطحب هذه المرأة

* * *

فكر أحمد طويلا ، وخيل اليه أن خير مايفعله هو أن يتوجه إلى

الساحل ، حيث يسهل عليه الانتقال والرحيل عن تلك الديار . فسار مع رفيقته ، ووصل الاثنان عند الظهيرة ، في يوم شديد الحر ، الى غابة كثيفة على مقربة من شاطىء البحر

فافترش كل منهما عباءته. وجلسا هناك في ظل شجرة وارفة، على أن يقضيا بقية النهار والليلة في تلك الغابة، استعداداً لمتابعة السير في الغد

* * *

صرخة مفزعة تمزق سكون الليل ...

نهض أحمد الدباغ مذعوراً ، ومد يده إلى سيفه ، ورأى الحسناء منتصبة أمامه ، ماسكة عنقها بيديها

— زهرة ... مالك . ؟ . ماذا حدث .؟.

فتمتمت الفتاة :

— هنا ...هنا...

وإذا بقطرات دم تتساقط من خلال أصابعها :

— حية ... حية ... هنا ...

شعر أحمد بحركة بين الاعشاب وراءه . فصاحت زهرة :

— لا لا ... لا تقترب ... ستلدغك الحية كما لدغتني . دعني لكي أموت وحدي ... وعش انت ولا تكن ضحيتها

وسقطت على الارض جثة هامدة !

فوقف الشاب المسكين أمام « زهرة المغرب » والدموع تترقرق في عينيه، مستسلماً لحكم القدر

ثم احتفر حفرة في ظلال ارزة مغربية ، والقى فيها جثة المسكينة ، وواراها التراب مردداً :

— يا لقسوة القضاء .!. يحل بنا الشقاء ونحن في طريق السعادة . لا حول ولا قوة إلا بالله !

* * *

عاد أحمد الدباغ الى موطن آبائه وأجداده ، بعد عشرة أعوام من رحيله عنه

لقد تبدلت أحوال باحوال ، وظروف بظروف ، ووجوه بوجوه رحل المصريون عن البلاد ، فعادت اليها الفوضى ، وعمها الاضطراب ، وانتابتها القلاقل

مطامع الزعماء تتلاطم كالامواج ، وأنصارهم يتطاحنون فى كل جهة وناحية ، وشبح البؤس والشقاء يبدو مخيفاً هائلا، وقد انهزم أمامه ملك السعادة والهناء

كان أحمد الدباغ يذهب كل يوم الى شاطىء البحر ، ويجلس على صخوره ، وينظر الى الامواج تنتحب ، وتلفظ أنفاسها الاخيرة على الرمال الناعمة ، فيخيل اليه أنها تبكى عهداً مضى وانقضى

لقد رحل منذ عشر سنوات عن وطنه ،حاملا معه ذكرى مؤلمة . لكنه كان يؤثر أن يعود اليه ، فيرى أعلام ابراهيم خفاقة في ربوعه ،على أن يجدها خالية من تلك الاعلام، ومن وقع سنابك الخيل وقعقعة السلاح

فقضى البقية الباقية من حياته حزيناً كئيبا ،يفكر في المعارك التى خاض غمارها ،والاعداء الذين نكل بهم ، والمرأة الجميلة الفاتنة التى أحبها ، والتي اختطفها ملك الموت من بين ذراعيه قبل أن يكاشفها بذلك الحب ، الذى خالج صدره ، وظل يخالجه الى آخر نسمة من حياته !

***

مات أحمد الدباغ في سنة ١٨٤٦ . ودفن على شاطىء البحر ، بجانب صخرة من تلك الصخور التى كان يحبها ويقضي نهاره جالساً عليها

طوحت به الطوائح ، ولعبت به الاقدار ، وتقاذفته شرقا وغربا ، لكن روحه فاضت حيث فاضت أرواح آبائه وأجداده من قبل :

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

— ٥ —

السلطانة والدة

يونيه ـ حزيران ـ سنة ١٨٣٢

أصدر ابراهيم باشا أوامره إلى وحدات جيشه ، وفصائل المتطوعين من فرسان ومشاة ورماحة ورماة ، بأن يوافيه الجميع في بعلبك ، حيث تنظم الصفوف من جديد ، وتعين وجهة الزحف لكل فرقة من فرق الجيش الفاتح

وكان ذلك على أثر الانتصار الباهر الذي أحرزه المصريون وحلفاؤهم في سهل « الزراعة »

ترك ابراهيم في عكاء حامية صغيرة ، وأناب عنه في إدارة شؤون المدينة « منيب افندي » رئيس ديوانه . وعهد إلى « حنا بحرى » بالاشراف على الأعمال التجارية والمدنية ، وراح يطلب من إله النصر المزيد !

وقع اختيار القائد على بعلبك لجعلها قاعدة لحركاته الحربية ، ومركزاً عاماً لقيادة الجيش ، لأنها تشرف على طريق المواصلات المتشعبة المؤدية إلى حلب وطرابلس ودمشق وعكاء ، ولأن ملاصقتها لجبال لبنان تضاعف أهميتها من الوجهة العسكرية

لبى زعماء الجيش دعوة قائدهم ، ونفذوا أوامره ، فتوافد الجنود والمتطوعون من كل حدب وصوب إلى الموضع الذى عينه ابراهيم ،

وماجت سهول « البقاع العزيز » وهضبات بعلبك بكتائب المقاتلين ومعدات الهلاك

وكان ابراهيم يقصد في النهار ، بصحبة سليمان الفرنساوى وعباس باشا وغيرهما من أركان حربه وأخصائه، إلى المضارب المنصوبة حول بقايا الهياكل الرومانية واليونانية فيتلقى مايرفع اليه من تقارير ومايحمله الرسل، من أخبار ومعلومات . ثم يطلب من الطبيب الفرنسي «غلياردو بك» أن يشرح للناس بعض ما تقصه تلك الآثار القديمة والاطلال المجيدة ، الرافعة نحو السماء أعمدتها ، من وقائع العصور الماضية ، وحوادث التاريخ الرائعة

قال يوماً لضباط جيشه :

— لقد فعلنا اليوم مافعله من قبلنا أولئك الغزاة ، الذين شيدوا في هذه السهول وعلى هذه الربوات لآلهتهم الهياكل ولقادتهم القصور . وجنودنا البواسل يضيفون اليوم صفحة جديدة ، إلى الصحائف التي دونها في سجل التاريخ أولئك الذين سبقوهم إلى هذه الاقطار ، منذ أجيال عديدة . وكما أن قادة الرومان كانوا يفاخرون بأبطالهم ، فانه يحق لنا أيضاً أن نكون فخورين بجنودنا . فقد اجتازوا الرمال المحرقة ، وتعرضوا لهبوب السموم ، وتحملوا الجوع والعطش ، وأبادوا في طريقهم كل معترض ، وذللوا الصعاب ، وأرغموا الأنوف الشامخة ، وأذلوا الرءوس المتكبرة . ولو طلبنا منهم أن يحولوا مجري النيل الى هذه الأصقاع فيرويها ، أو يمدوا منه الى هذه البلاد فروعاً ، لما كان ذلك على همتهم عسيراً !

وصاح سليمان الفرنساوى وقد أخذته نشوة الحماسة :

— لو أردت يا مولاى لقطعنا الطريق الذي قطعه الاسكندر من قبل ، ولأتممنا العمل الذى لقى ذلك الفاتح حتفه قبل انجازه !

فقال ابراهيم :

— علينا قبل كل شيء أيها الاخوان أن ندخل دمشق الغناء . فهي من الوجهتين الحربية والتجارية ذات أهمية عظمى، فضلا عن أنها باب الكعبة وملتقى القوافل . فلا بد لنا من الاستيلاء عليها قبل أن نخطو خطوة أخرى إلى الامام

وبينما القوم يتبادلون الآراء، ويتناقشون فيها، ويتباحثون في مختلف الشؤون، اذا بكوكبة من فرسان البادية مقبلة عليهم من بطن الوادى ، تنهب خيولها الارض نهباً ، وقد انعقد الغبار حولها مثل السحاب

وصل الفرسان أمام مضرب ابراهيم ، فترجلوا وألقوا التحية على القائد ، ودفعوا بين يديه رجلا غريباً ، منهوك القوى ، ممزق الثياب ، شاحب اللون

سأل ابراهيم :

— من هذا ؟

فأجاب زعيم الفرسان :

— جندي من الاعداء ، عثرنا عليه ضالا في القفار، على أثر انهزام فرسانهم أمامنا ، فجئنا به اليك أسيراً ، عملا بما أمرتنا به من المحافظة على حياة الاسرى

فابتسم ابراهيم وقال :

— أحسنتم !

ثم التفت الى الرجل . وبعد أن حدق فيه البصر قال :

— يخيل الي أنك لست من أبناء عمنا الاتراك. فمن تكون أيها الغريب؟

رفع الاسير رأسه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مبعثها الكآبة والاسى ، وقال بصوت ضعيف :

— أنا فرنسي أيها القائد !

فاقترب سليمان الفرنساوي ، وتقدم الطبيب غلياردو - وهو فرنسي أيضاً - ونظرا الى الاسير بدهشة ممزوجة بكثير من العطف

ألا يقول المثل : «الدم يحن ؟ »

سأله سليمان :

— ما اسمك ايها السيد ؟

— جيرار دى بوك

فردد سليمان وغلياردو معاً هذا الاسم :

— جيرار دى بوك ؟

وساد الصمت في المجلس . وتبادل القائد والطبيب الفرنسيان نظرات الاستفهام !

فلنترك الأسير يأخذ بعض الراحة في ضيافة ابراهيم ورجاله . ولنعد قليلا الى الوراء ، ونقلب صحائف حياته ، اذ أن لأسرة ذلك الضابط الفرنسي قصة أقرب الى الخرافات منها الى الحقائق

***

٢٥ مارس - آذار - سنة ١٨١٦

وصلت الى الآستانة قافلة من التجار الفرنسيين ، ونزلت في « خان » على مقربة من القرن الذهبي ، واسرع رئيس الجماعة الى قصر السلطان محمود الثانى ، وطلب من رئيس الديوان إذناً بالمثول بين يدي صاحب العرش ، قائلا إنه يحمل اليه كتاب توصية من الملك لويس الثامن عشر ، ملك فرنسا في ذلك العهد

واستقبل السلطان رئيس التجار الفرنسيين ، وشمل الجماعة بعطفه ، وأمر بان تمهد لهم سبل الطواف في البلاد ، وقضاء الاعمال التي جاءوا من أجلها ، وطلب إلى رئيسهم أن يطلعه على أسماء رفاقه

فكتب الرجل الاسماء في ورقة . وعندما القى السلطان نظره عليها ،

بدت على وجهه دلائل الاهتمام ، وقال لمحدثه :

— إذا كنتم في حاجة الى شيء أيها الغريب ،فابواب القصر مفتوحة أمامكم في كل ساعة

وفي اليوم التالى، وصل عثمان آغا، رئيس حجاب السلطان، الى الخان الذى كان التجار نازلين فيه ، وطلب مقابلة أحدهم وهو يدعى « جيرار دى بوك »

أسرع صاحب الخان الى التجار ، وأبلغهم رغبة رئيس الحجاب . فتقدم شاب في العقد الثالث من عمره ، طويل القامة ، بهي الطلعة ، وأجاب :

— أنا جيرار دى بوك !

فخاطبه عثمان آغا بلهجة الآمر قائلا :

— اتبعني !

— الى أين ؟

— الى السراى

وبعد نصف ساعة ، كان الشاب ماثلا في حضرة « السلطانة والدة »

وقف الشاب حائراً ، يسائل نفسه ما الداعى الى المجيء به الى ذلك المكان

لكن السلطانة بددت مخاوفه، وأعادت إلى نفسه الاطمئنان بابتسامة لطيفة هادئة

هي امرأة في نهاية العقد الثالث من عمرها ، بارعة الجمال ، فاتنة ساحرة

دعت الشاب الى الجلوس وقالت :

— لا تخف . ما جئت بك الى هنا لكى ألحق بك أذى

قالت ذلك ، ونظرت اليه نظرة ملؤها العطف والحنان . فاقترب

الشاب ، وتناول يداً مدت اليه ، وطبع عليها قبلة احترام واجلال

ثم أشارت السلطانة الى عثمان آغا بالانصراف ، فخلا لها وللغريب المكان

— ابن من أنت ؟

— أنا يتيم الابوين يا صاحبة الجلالة . تبناني فرنسوا دى بوك دى ريفري ، وسمح لى بان أحمل اسمه.فعرفت منذ ذلك الوقت باسم «جيرار دى بوك »

— وما جاء بك الى هنا ؟

تردد الشاب لحظة ، فقالت له :

— لا يدهشنك سؤالى . قص على قصتك . وسوف أطلعك بعد ذلك على أمر تجهله ، فتعلم ان المرأة التى تخاطبك الآن ليست غريبة عنك بقدر ما تظن

فقال الشاب :

— ولدت في جزيرة مارتينيك ،الواقعة في البحر الامريكي ،والخاضعة للحكم الفرنسي ، من أبوين فرنسيين . لكننى قضيت حياتى في باريس حيث تلقيت العلوم الحربية ،فانخرطت في سلك الجيش البحري ، ونلت رتبة ملازم. ولكنني تركت الجيش بعد وفاة فرنسوادي بوك،وانصرفت الى التجارة . وأنا قادم الآن الى هذه البلاد لابتياع كمية من الاسلحة الشرقية ، والاتجار بها في فرنسا

ثم سكت الشاب لحظة وقال :

— ولكن ، اية أهمية لهذه التفاصيل في نظرك يا صاحبة الجلالة ؟

— أهمية كبيرة

— لا أفهم

— سوف تفهم

— خيل للشاب أن « السلطانة والدة » سوف تطلعه على أمر رهيب . فشخص اليها لاهثاً ، وتمتم قائلا :

— لقد وعدتني . . .

فقاطعته السلطانة وقالت بصوت عذب :

— انك تنتظر منى أن أفضي اليك بما وعدتك به. فاصغ الي اذن: ان المرأة التى تخاطبك لم تر النور تحت سماء هذه البلاد ، ولا يجرى في عروقها دم تركي . بل هي فرنسية مثلك ، ولدت في جزيرة مارتينيك موطنك ، وهي تنتمى الى الدوحة التي شاء فرنسوا دي بوك أن تصبح غصناً من أغصانها

— الى أسرة دى بوك ؟

— أنا « ايميه دى بوك »

فانتفض الشاب وقال دهشا :

— الرواية اذن صادقة ؟

— أجل . الرواية التي تناقلتها الالسنة صادقة لازيادة فيها ولا نقصان. فاستمعها من جديد ، واحملها معك الى أهلك وذويك وأبناء قومك

— تكلمي ، ومزقى الحجاب عن ذلك السر ، الذى طالما أقلقنا وشغل بالنا وافكارنا

— عندما هاجم القرصان السفينة التي كانت تقلنى من فرنسا الى جزيرة مارتينيك، مع خادمى الزنجى، لم يتمكن أحد ممن كانوا في السفينة من النجاة . فقد وقعنا جميعاً في قبضة القرصان ، الذين ساقونا مكبلين بالحديد الى مدينـة « الجزائر » . وهناك أخذني أحد تجار الرقيق ، وقدمني هدية الى سيد المدينـة ، بابا محمد ، وكان يناهز في ذلك الوقت الثمانين من عمره ، وكنت أنا في الرابعة عشرة فقط

— وبعد ؟

— ضمني بابا محمد الى فريق من النساء كان عازما على ارسالهن الى عاصمة السلطنة العثمانية . وفي ذات يوم ، أقلعت بنا سفينة كبيرة . وما مضت علي أسابيع حتى وجدت نفسي في هذا القصر ، قصر السلاطين، وقيل لي إن بابا محمد قد اهدانى إلى سيده ومولاه السلطان سليم الثالث

— وبعد ؟

— مكثت بضعة أيام في دائرة الحريم . ثم أرسل السلطان في طلبي، ولما مثلت بين يديه خاطبني قائلا : ولقد دخلت هذا القصر يا ابنتى، وأود الآن ألا تخرجي منه . لن أحتفظ بك قوة وقسراً ، بل أريد أن تقيمى فيه عن رضى وقبول، وأن تصبحي سيدة النساء والجوارى، وزهرة الحريم السلطانى العطرة. أريدك زوجة لاجارية، وحرة لا أمة. فاذهبي الآن وفكري ، ونامى حتى تصبحي . واذا ما راق لك ما أعرضه عليك الآن ، فاغتسلى غداً ، وتطيبي ، والبسى أفخر مافي القصر من ثياب وتعالى !

— وبعد ؟

— فعلت في اليوم التالي ما طلبه مني السلطان ، وذهبت اليه !

تنهدت السلطانة ، ومسحت دمعة طفرت من عينها، واستطردت قائلة:

— وأصبحت منذ ذلك اليوم زوجة السلطان المحبوبة، وأقرب نسائه الى قلبه . وقد بقيت في كنفه الى اليوم الذي سقط فيه قتيلا بدسيسة من السلطان مصطفى الرابع، الذى خلفه على العرش . ولكنه لم يجلس عليه اكثر من سنة واحدة . فحل محله في سنة ١٨٠٩ السلطان محمود الثاني ، ابن السلطان عبد الحميد الاول

— وهو الجالس على العرش الآن ؟

— نعم . ومحمود يحبنى ويحترمني. وهو الذى أطلق على اسم «والدة

سلطان» أو «السلطانة والدة» لانني سهرت على طفولته، وأخذت بيده وهو صغير يخطو في العالم خطواته الاولى

— إذن، ليس السلطان محمود ابنك كما يقولون؟

— كلا. فقد ولد السلطان محمود في عام ١٧٨٥ — أى قبل وقوعى في أسر القرصان بخمسة أعوام. ولم اكن في يوم من الايام زوجة لأبيه عبدالحميد الأول، الذى مات قبل مجيئى إلى الاستانة بسنة، أى في عام ١٧٨٩. ولكن السلطان محمود الثانى يحبني كأمه، ويدعونى أيضاً «الوالدة» وهو يأخذ بنصائحى، ولا يقدم على عمل إلا بعد أن أبدى له فيه رأيي. وهو يحب وطنك لانه وطني، ويجيد لغة قومك لأنها لغة المرأة التى يعدها أمه

— ألا تحنين الى أرض ذلك الوطن؟

— أحن اليها. وهل ينسى الانسان وطنه؟ لكن الأقدار شاءت أن تقصيني عن تلك البلاد المحبوبة. انى أشبه شىء بشجيرة انتزعت من منبتها، ونقلت الى ديار الغربة، حيث زرعت تحت سماء غير سمائها، وفي تربة غير تربتها، فغرست أصولها فى بطن الارض، ونما جذعها، فكبرت، وأينعت، وطرحت ثماراً، وقضى عليها أن تجف وتموت في منبتها الثاني! عد اذن الى فرنسا، وأعد على مسامع من بقي من أسرتنا ما سمعته مني الآن. قل لهم إن ايميه دي بوك سعيدة في مهجرها. قل لهم إنها هنا تقيم، وإنها ستظل في هذا القصر بجانب «ولدها» حتى يوافيها أجلها. والآن اذهب، أسرع، فهذا كل ما كنت أرغب في الافضاء به اليك. لقد هاجت في الشجون، ولا أريد أن أدع للضعف سبيلا الي!

— دعينى اذن أقبل هذه اليد مرة أخرى، كما لو كنت أقبل يد أمي! وسوف أوافيك من هناك باخبار الاسرة

— لا... إياك أن تفعل هذا! لقد دفنت نفسي في هذا القبر المذهب، وقطعت مع الخارج كل علاقة. إننى سعيدة هنا، سعيدة إلى حد لا

أتطلع معه إلى ما هو فوق سعادتي. ولربما حملت إلي رسائلك ورسائل ذويك ما يحيي في ذكريات الماضي، وينغص علي عيشى، ويحملني على ندامة لا أريدها. إذهب يا بني. أرجو لك ولمن بقى من أهلى في فرنسا، هناء كالذي أتمتع به الآن هنا!

فاكب الشاب على يدي قريبته يقبلهما، مدفوعاً بعامل النسب نحو امرأة يجري في عروقها وعروقه دم واحد

***

تلك هي قصة ايميه دي بوك «السلطانة والدة» كما كانوا يسمونها، والتي تنبأت لها عرافة في صباها بأنها ستضع على جبينها تاج الملك، فتحققت النبوءة

عاد جيرار دي بوك الى وطنه، وأطلع أسرته على السر العظيم، فهاج القوم وماجوا، وحاولوا أن يعيدوا بينهم وبين السلطانة «التركية» علاقات أبت هى الا قطعها، فذهبت جهودهم أدراج الرياح. ولما أعيتهم الحيل، ركب البعض منهم متن البحار، وسافروا الى الآستانة العلية، وطلبوا المثول بين يدي تلك التى تحمل اسمهم، والتى رفعتها الأقدار الى عل

لكنهم فشلوا على ضفاف البوسفور، كما فشلوا على ضفاف السين. ولم تفتح أمامهم أبواب أرادت السلطانة أن تظل موصدة

فعادوا الى وطنهم خائبين، ولم يعيدوا الكرة من جديد، وأسدل الستار دون أن يعلم أحد ماذا حدث وراءه

أرادت السلطانة التي كان السلطان محمود يدعوها «يا أمي» أن يخيم النسيان على بقية أيامها، فكان لها ما أرادت

وماتت ايميه دي بوك دي ريفري «السلطانة والدة» زوجة السلطان سليم الثالث، في سنة ١٨١٧ في الحادية والاربعين من العمر

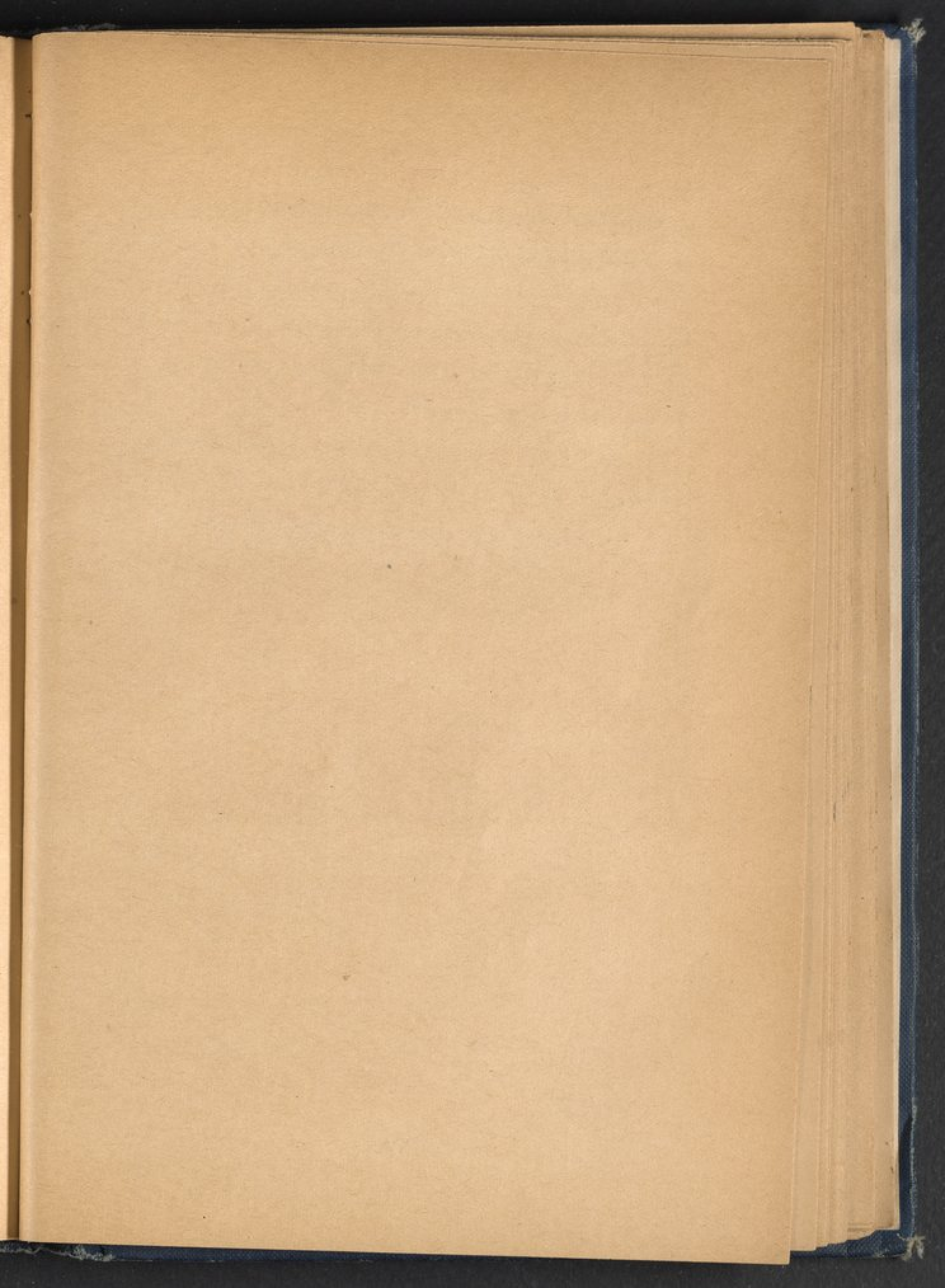
***

أما جيرار دي بوك ، فقد دفعه ذلك السر الذي مزق عنه الحجاب، الى العودة الى الاستانة ، حيث دخل في خدمة السلطان، متطوعاً في جيشه ، محارباً في صفوف الاتراك . فشاءت الظروف والاحوال أن يقع أسيراً في أيدي المصريين في سنة ١٨٣٢

ولما عرض عليه سليمان الفرنساوي والطبيب غليياردو أن ينضم اليهما ويلتحق بالجيش المصري ، أجاب الشاب بأنفة واباء :

— لن أحارب الاتراك بعد الآن ، ولن أتواطأ مع أعدائهم ، بعد أن علمت أن دم أسرتي قد سرى في عروق سلاطينهم !

فأمر ابراهيم باشا باطلاق سراح الاسير ، وطلب من سليمان الفرنساوي أن يعيد الرجل الى وطنه في احدى السفن الفرنسية



- ٦ -

الاخذ بالثار

عقد أبناء الشيخ « فهد النعسان » مجلساً في كهف مظلم منعزل ، في ذلك الوادى الموحش ، الموصل الى « العقبة » ووقف فيهم كبيرهم خطيبا فقال :

— لن يقال ياأبناء الاب إننا نمنا على ضيم، وإننا لم نثأر للدم المسفوك ! لقد شتت المصريون شمل رجالنا ، وطاردوا في القفار فلول قبيلتنا ، ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا الى أبعد منه ، فنكل جلادوهم بالاسرى من اخواننا ، ولم ينعم قائدهم ابراهيم بالا إلا بعد أن ضرب بيده عنق والدنا المسكين. ودماء ذلك الشهيد تطلب الثأر والانتقام. فهل انتم عن الواجب محجمون ؟

فصاحوا جميعاً بصوت واحد، خرج من أعماق تلك الصدور كهدير الامواج ، ورردده الصدى في جوانب الكهف الكالحة : « كلا! »

وصاح الاخ الاكبر :

— أقسموا إذن ألا تذوقوا راحة ، وألا يغمض لكم جفن ، وألا تشاركوا الناس في الافراح والاعياد، مالم يتم لكم الانتقام، فترفعوا بين الرءوس الشامخة رءوسكم ، دون أن يكون وراءكم شرف مثلوم أو دم مطلول !

فأجابوا جميعاً بنفس ذلك الصوت العميق المتهدج : « نقسم! »

ثم انتزع كل منهم عقاله ، ودفنه أمامه في التراب ، عملا بالتقاليد البدوية والعادة المتبعة ، عند ما يعزم العربان على طلب الثأر لاهانة لحقت بهم أو قتيل سفك دمه

وبسط أبناء فهد النعسان ايديهم ، وعقدوا الخناصر على قتل القاتل العين بالعين والسن بالسن !

ثم نهضوا من مجالسهم وقال كبيرهم :

— سنرى الآن على من تقع القرعة قبل أن نمضي في سبيلنا . ولما كانت الاناث فينا للذكور في النسب اخوات ، وفي السراء والضراء شريكات ، وفي معامع الوغى رفيقات باسلات ، فاننا لن نحرمهن شرف العمل معنا في هذا السبيل. سنقترع على من هنا جميعاً ، الرجال والنساء ، أن يباشر الثأر والانتقام !

واقترع الاخوان ، ورددوا قسمهم ، وتفرقوا في ذلك الوادي قاصدين الى الديار العامرة

***

٩ يونيو — حزيران — سنة ١٨٣٢

زحف ابراهيم باشا على دمشق ، على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر الف مقاتل ، بينهم تسعة آلاف من الجنود النظاميين ، وتسعة آلاف من البدو والفرسان الدروز ، ووراء ذلك الجيش ، الجمال تحمل الارزاق ، والبغال تجر من المدافع اربعة وعشرين

كان ابراهيم قد اوفد رسله الى عاصمة الامويين، يطلب من واليها « علو باشا » التركي ، أن يسلم اليه المدينة بلا قتال ، ويدعو سكانها الى الطاعة والاقلاع عن التمرد والعصيان. لكنهم رفضوا الاذعان والخضوع ، وقاموا بمظاهرات هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية ، هتف فيها الناس للاتراك ، واهانوا رسل ابراهيم ، وحملوا على الاعناق ممثل السلطان ونائبه في حكم البلاد

فقرر ابراهيم مهاجمة المدينة، وعزم على الاستيلاء عليها

شخص اليها بذلك الجيش القوى . وعند ما أشرف عليها عقد كعادته مجلساً حربياً من كبار القواد والانصار . وكان حليفه الامير بشير الشهابي قد وافاه الى ضواحى المدينة مع قوة كبيرة من رجاله الاشداء

وفي الخامس عشر من شهر يونيه-حزيران- ١٨٣٢ أصدر القائد العام اوامره بالاستعداد للهجوم على المدينة في صبيحة اليوم التالى

لكن خصمه لم يدعه ينفذ الخطة التى رسمها، بل بدأ الهجوم قبل ان يحرك المصريون ساكنا ، فخرج « علو باشا » من المدينة مع رجاله ، لقتال ابراهيم ورده على اعقابه

ودارت رحى المعركة في جهات عديدة، لكنها لم تستغرق غير ساعات معدودات . فانهزم القوم امام الجيش المدرب وانصاره البواسل ، وفر علو باشا مع رجال حرسه الى « حمص » تاركا وراءه عاصمة ولايته غنيمة للفاتحين

دخل ابراهيم دمشق الغناء في السادس عشر من يونيه . وضرب مضاربه في « القابون » بينما كان حلفاؤه اللبنانيون يعسكرون في « المرجة »

وأوصى القائد جنوده بأن يسلكوا في المدينة سلوكا حسناً لا تشوبه شائبة . فكانوا لوصية قائدهم طائعين ، ولم يعتدوا على الارواح والاموال، بل كانوا يبتاعون بنقودهم مايحتاجون اليه من طعام وشراب. فاكتسبوا عطف السكان ، الذين لم ينزل بين ظهرانيهم من قبل جيش يراعي جنوده مثل ذلك النظام ، ويدافع عن الضعيف بدل ان يهضمه حقه ، ويحترم النساء بدل ان يعتدي على اعراضهن

وفي مساء اليوم الذي دخل فيه الجيش الفاتح عاصمة الامويين ، توافد الزعماء على مضرب الامير، فذبحت الذبائح ، وأقيمت الافراح ابتهاجا

بالنصر ، وطلب ابراهيم باشا الى ضيوفه إبداء رأيهم في الحالة التي وصلت اليها الحرب ، وفي الخطة المثلى التي يحسن اتباعها للوصول الى الغاية المنشودة

وبعد المباحثة ، قر الرأي على أن يسير الجيش النظامي على السواحل ، وأن ينتشر الزعماء الجبليون برجالهم في الداخلية ، لصد الغارات التي يخشى أن تقوم بها القبائل العربية المعادية

واتفقوا جميعاً على أن يتحرك الجيش بعد أن يأخذ الرجال نصيباً وافراً من الراحة ، وتوضع أنظمة الادارة على أسس جديدة

وفي الليل ،أقيم مهرجان عظيم،تبارى فيه القوم في ضروب الفروسية والشجاعة ، وعم الفرح المعسكر ، واندلعت ألسنة النيران على قمم الجبال

وبينما ابراهيم باشا يجالس حلفاءه ويتجاذب معهم أطراف الحديث ، دخل عليه حارس ، وأخبره أن فارساً فتياً وصل الى المعسكر ، وهو يلح في طلب مقابلته دون سواه

أمر الامير بادخاله فدخل

هو شاب في العشرين من العمر ، جميل الطلعة ، أمرد نحيل البنية، يرتدي ثوباً عربياً فاخراً ، ويتقلد سيفاً مرصعاً بالجواهر

حنى الشاب رأسه ، ووضع يده على صدره ، فرد عليه ابراهيم التحية وسأله :

ـــ من أنت وما تريد أيها الاخ ؟

فأجابه الشاب :

ـــ لا تسل عن اسمي أيها الامير ، فلن أبوح به الآن . جئتك طالباً الانضمام الى جيشك والسير بجانبك ، لا حباً بك وبقومك ، بل سعياً وراء انتقام أنشده ، وثار أجد في طلبه . فدعني أرافقك في حملتك ، وأكن ملازما لك . وسوف تعلم الغاية التي من أجلها جئت ألتمس منك ذلك

فقطب الامير جبينه ناظراً إلى الفق . وبعد تفكير وجيز قال :

ـ أهلا بك يا أخا العرب . كن بمعيتي منذ الآن

***

أقام الجيش الفاتح في دمشق ثمانية عشر يوما

وصلى ابراهيم الجمعة في المسجد الجامع الاموي ، ورفع آيات الشكر على ما أوليه من نصر مبين ، كما كان يفعل من قبل أبطال الدولة الاموية وأقطاب المسلمين ، بعد كل فوز يعقد على ألويتهم

وفي أثناء الخطبة، حار الخطيب في امره : أيدعو للسلطان ـ أمير المؤمنين وسيد البلاد الشرعي ـ أم لمحمد على باشا ، عزيز مصر الخارج على طاعة مولاه ، المتمرد العاصي كما كان السلطان يسميه ؟

رفع الامر الى ابراهيم فقال :

ـ ليخطب الخطيب باسم محمود الثانى ، الجالس على عرش آل عثمان وخليفة المسلمين . فانما انا عبد السلطان . وليدع لأبى محمد علي باشا ، المشرف على شؤون مصر باسم السلطان وبالنيابة عنه !

وهكذا كان !

ونظم ابراهيم ادارة المدينة ، فعين احمد بك اليوسف « متسلما » عليها ، والف « ديوان المشورة » من عشرين من الاعيان والوجهاء ، بلا تمييز بين المذاهب والطوائف

وفي أول يوليه ـ تموز ـ ١٨٣٢ غادر المدينـة متجها بجيشه الى حمص . ولما وصل الى ضاحيتها ، اصدر أمره بالوقوف عن السير ، لكى يستريح الجيش ويستعيد قواه

وكان ذلك في اليوم السابع من يوليه ، قبيل المعركة الفاصلة بيوم واحد

***

ظل الشاب العربى ملازماً للامير لا يفارقه ، ويقضي الليل على باب

مضربه، بجانب الحراس ، دون أن يفهم أحد معنى لسلوكه هذا
كان ابراهيم في تلك الليلة نائما، فأيقظته حركة خفيفة
فتح عينيه ، ولكنه لم يتحرك ، فخيل اليه أن شخصا يتقدم حذراً في الظلام نحوه
ظل جامداً في مرقده، فوصل الشبح اليه ، ورفع ذراعه ، فأخذت عين الامير وميض نصل يلمع في الظلام
وثب ابراهيم على الرجل ، وقبض على ذراعه بيد من حديد ، فالتوت الذراع ، وسقط الخنجر على الارض ، وأرسل الغريب صرخة ألم خفيفة ، وخر ساجداً على ركبة الامير وقال :
— انك تقبض أيها القائد على ذراع امرأة !
— امرأة !
— نعم. فتاة بدوية ، أفلت منها الانتقام بعد أن كادت تقضى لبانتها !
عرف ابراهيم صوت الشاب العربى ، فحار في أمره
— كيف دخلت والحراس بالباب ؟
— قتلتهم جميعا... الحراس الثلاثة... وكان بودى أن الحقك بهم ، وأغسل بدمك العار الذي ألصقته بى وبقومي !
— ومن أنت !
— نعامة ، ابنة الشيخ فهد النعسان ، الذي قتلته بيدك في صحراء سيناء ، يوم غزتك قبيلته فارتدت خاسرة ، وتعقبها رجالك فقبضوا على أبي وساقوه اليك أسيراً ذليلا . لقد بادرته بلطمة على خده ، فمد يده يريد صفعك ، لكنك جردت سيفك وضربت عنقه على مرأى من قوادك وجنودك
— فعلت ذلك عقابا له ولامثاله، ممن تحدثهم نفوسهم بالوقوف عقبة في سبيلى

— لـكنك أهنت القبيلة ، والاهانة في عرفنا لا يغسلها غير الدم ، ولا تمحوها الا اهانة مثلها !

— وجئت أنت للقيام بهذا العمل الشاق ؟

— أرسلتني القبيلة للانتقام منك . لقد خانتني يميني ! لـكن غيرى سينجح حيث أخفقت أنا !

* * *

سكت الامير ونظر الى الفتاة نظرة إعجاب وإجلال . ثم نادى قواده وقص عليهم ماجرى وقال :

— إني أعفو عن هذه الفتاة اعترافا منى بشجاعتها !

ثم التفت اليها قائلا :

— اذهبي يا نعامة فأنت حرة . وأبلغى قومك خبر ما حدث : قولي لهم إن ابراهيم يقابل الاساءة بالاساءة . لـكنه يعرف كيف يعفو عند اللزوم وعند ما يكون خصمه أضعف منه

فنظرت اليه الفتاة ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :

— أقبل عفوك بالامتنان أيها الامير . وأقسم أن لا أسيء اليك بعد الآن ، لانى مدينة لك بالحياة . لـكني أحذرك من أبناء عشيرتى . فقد اندس البعض منهم بين رجالك لمراقبتى ، ولمبادرتك بالطعنة القاضية اذا فشلت أنا في مهمتى !

* * *

دسمبر ـ كانون الاول ـ سنة ١٨٣٢

مضت الايام وتلتها الاسابيع . . .

وصل الجيش الغازى الى قونية ، حيث التقى بجيش الاتراك ، فكانت موقعة هائلة اندحرت فيها الفيالق التركية ، وانهزمت شر هزيمة ، وأمست الاستانة في خطر داهم !

فسكر ابراهيم بنشوة النصر ، وأصدر أمره بالسير الى البوسفور

توغل الجيش في سهول الاناضول وجباله ، ووصل ابراهيم الى قرية السلمانية ، فأصيب بحمى شديدة ، اضطرته الى ملازمة الفراش. فطلبت نعامة أن يسمح لها بالاقامة على باب منزله مع الحراس ، فاجيبت الى طلبها

* * *

شفي الامير بعد أسبوع ، فأقام الجيش مهرجاناً عظيماً احتفاء بذلك. واحتشدت جموع العربان المتطوعين في الجيش ، وكلهم يمتطون جيادهم المطهمة ، وجعلوا يعدون أمام الامير ، ويلعبون بالسيوف والرماح ، وينشدون الاناشيد والاهازيج

ثم خرج من صفوفهم فارس مقنع ، واطلق لجواده العنان ، ووجهته ابراهيم وحاشيته

وتبعه فارس آخر شاهراً سيفه وهو يصيح :

— لن تفعل ذلك ما دمت أنا حية !

عرف الامير نعامة فارتاب في الامر

وأشار إلى حاشيته بالتصدي للفارس الاول

لكن نعامة أدركته قبل أن يصل اليه رجال ابراهيم

أمسكت بعباءته ، فكبا به جواده وسقط على الارض ، وسقطت فوقه نعامة

أسرع رجال الحرس اليهما ، فأدرك الفارس الخطر ، واستل خنجره وأغمده في صدر الفتاة

ثم نهض صائحاً :

— هذا جزاء من خان العهد وحنث باليمين !

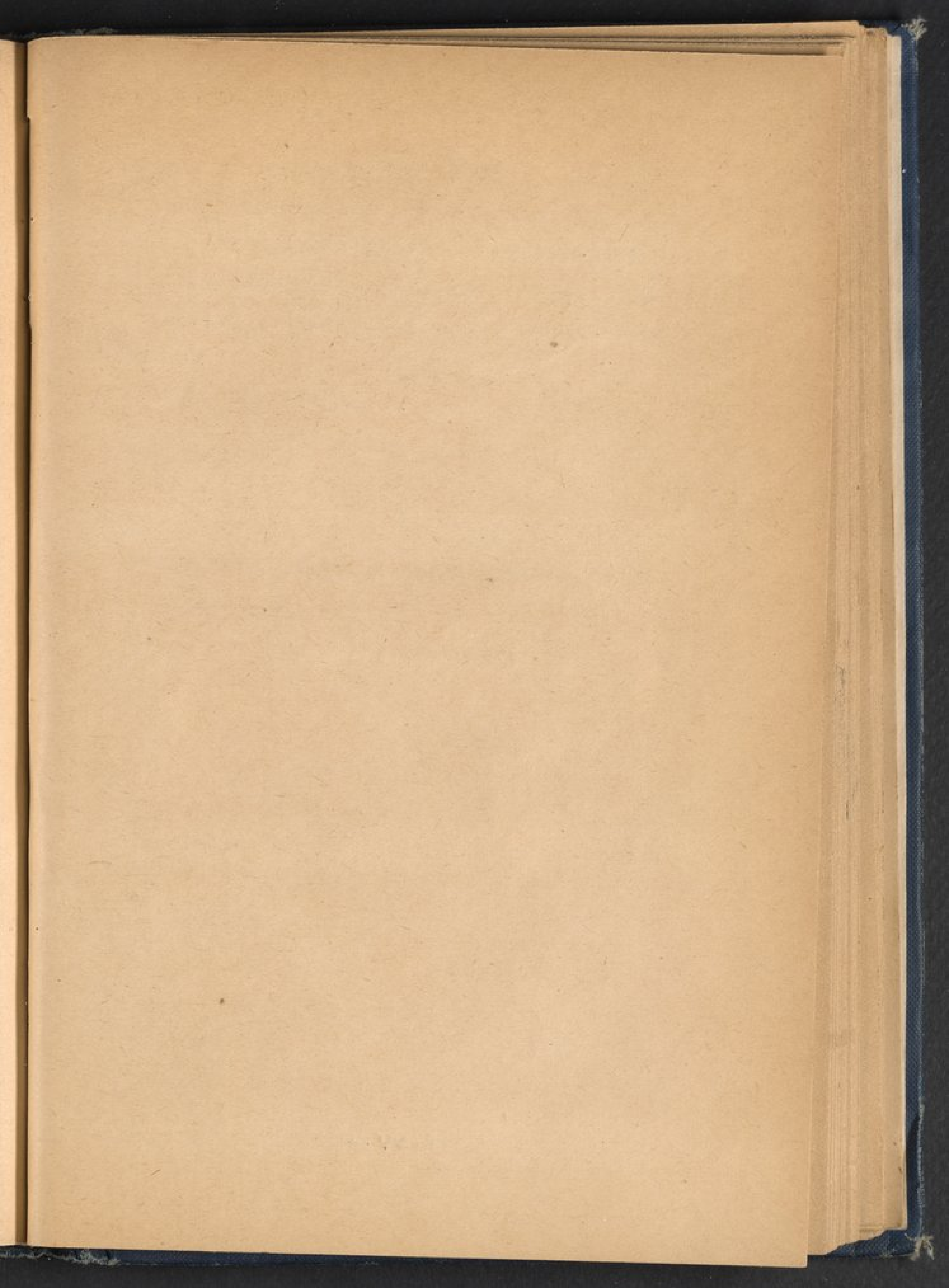
قبض على الرجل ، وأسلمت نعامة الروح قائلة :

— وهبني ابراهيم الحياة فأعدت اليه الهبة !

ولما استجوب الفارس العربي أجاب :

— هي أختي ! وقد قتلتها لانها لم تبر بالقسم ولم تنتقم لوالدها .!. لقد عهدنا اليها بقتل ابراهيم فلم تفعل . وجئت أنا للقيام بما عجز دونه جبنها ، فمنعتني . . لم أتمكن من غسل عار القبيلة بدم الامير ، فغسلته بدم الخائنة !

فأمر ابراهيم باطلاق سراحه !



— ٧ —

قبر العاشقين

دعا ابراهيم باشا قائد مدفعيته وفرسانه سليمان باشا الفرنساوي ، في اليوم الاول من صفر ١٢٤٨ (٣٠ يونيو – حزيران – سنة ١٨٣٢) وقال :

— سنغادر دمشق غداً يا صاحبي ، زاحفين على حمص . وسندخلها باذن الله فاتحين بعد ثمانية أيام . لقد وافقت على رأيك ، وقررت ابقاء حامية مؤلفة من ثلاثة آلاف ومائتي رجل من الجند النظامي في هذه المدينة ، خوفاً من انتقاض أهلها علينا ، لأنني لم آمن بعد عداءهم ولم أثق من خضوعهم . وقد أردت أيضاً أن أحتاط للغد ، فجمعت كما تعلم خمسة وسبعين من اعيانهم ، وألفاً من اتباع أولئك الاعيان ، وامرتهم بالسير مع الجيش الزاحف الى الشمال ، كما انني رغبت الى حليفنا الامير بشير ان يقوم معنا ايضاً هو وابنه وجميع انصاره ، على ان يترك وراءه قوة كافية لاغاثة حامية دمشق اذا اقتضت الحال

فقال سليمان :

— احسنت صنعاً يا مولاي . وقد اعددت من جهتي للرحيل عدته . وسوف ترى من أعمال الفرسان ورجال المدفعية في المعارك المقبلة ما يرضيك ويسرك

صافح ابراهيم يد القائد المحنك ، وكرر له اعجابه به ، وارتياحه الى

آرائه وخططه العسكرية . ثم حول الحديث الى موضوع آخر فقال :

— جاءني اليوم رسول من لدن افندينا ، حاملا الي امر والدى المطاع بأن أسمح لعبد الله السيوطي بالعودة الى مصر

— لكنه جريح

— نعم . وكنا عازمين على تركه في دمشق ، حتى يمن الله عليه بالشفاء التام . اما وقد رأى افندينا ان عودته الى القاهرة خير واوفى ، فانى اخضع لرغبته واطلب اليك تنفيذها

— سمعاً وطاعة !

***

كان عبد الله السيوطي من رجال الحرس المخلصين ، الذين وضع محمد على باشا فيهم ثقته ، وائتمنهم على حياته ، وعهد اليهم بالسهر على شخصه والسير بجانب مركبته

لكن الشاب كان يتوق الى الضرب والطعن ، ويحلم بوقائع حربية يخوض غمارها ، ومعاقل حصينة يتسلق اسوارها ، ومدن مكتسحة يطوف شوارعها وأزقتها على متن جواده ، بين هتاف النصر واناشيد الفرح

فطلب الشاب من مولاه السماح له بالسير مع الجيش الزاحف على أرض الشام . فاجابه محمد علي باشا إلى طلبه ، وأوصى به ابنه ابراهيم خيراً . فالتحق عبد الله السيوطي بفرقة الفرسان ، واظهر من ضروب الشجاعة والاقدام ماجعل الالسنة تلهج بذكره والثناء عليه

— وكانت أخته جارية من جوارى القصر . فبلغتها اخباره الطيبة ، وأفضى اليها مولاها محمد علي باشا بحديث الرواة عن اعمال اخيها ، فامتلأ قلبها فرحاً ، وايقنت ان سلوك عبد الله المشكور يزيدها حظوة في عيني سيدها وولي نعمتها

لكن الشاب كان يهزأ بالاخطار ، ويسابق الشجعان إلى مواطن

الموت غير حاسب لشيء حساباً ، وقد أسكره النصر المستمر ، وزاده جرأة وتهوراً ، فاصيب في الهجوم على عكاء بجرح بليغ ، أقعده عن العمل شهراً كاملا

لكنه انتقل مع الجيش إلى دمشق ، ووطد العزم على البقاء فيها إلى أن يتم له الشفاء

وهناك أبلغه رئيسه سليمان باشا الفرنساوى أمر القائد العام ، بالعودة إلى مصر عملا بمشيئة محمد على باشا

فاضطر عبد الله إلى الاذعان مرغماً ، وغادر دمشق ومعه اثنان من الفرسان الدروز ، عهد اليهم بشير الشهابي بمرافقة الجريح المصرى إلى درعا ، ثم إلى القدس فعكاء ، حيث يبحر إلى الاسكندرية على ظهر سفينة من سفن الحرب ، التى كانت تروح وتجىء بين السواحل المصرية والسورية

***

وصل الرفاق الثلاثة الى واحة صغيرة ، على مقربة من سفح جبل الشيخ ، فترجلوا وسرحوا خيولهم للراحة

كانت الشمس قد قربت من المغيب ، فعزموا على قضاء الليلة في ذلك المكان ، حيث كانت مياه ينبوع تنساب بين الحصى ، وقد نبتت الاعشاب بكثرة حولها ، وأرخى الصفصاف الباكى شعوره عليها

أوقد المسافرون ناراً ، وأخذوا مجالسهم ، وجعلوا يستعيدون ذكرى المعارك والمواقع

وسأل عبد الله رفيقه فجأة :

— ترى ، هل وضع هذان الحجران ، المنتصبان هناك الواحد تجاه الآخر ، عمداً وبيد انسان ، أم أن الطبيعة هي التى شاءت أن تلهو وتمزح ، فأقامت هذين العمودين المتشابهين قياساً وشكلا ؟

قال الشاب هذا ، وأشار الى ذينك الحجرين القائمين على بعد خطوات من الينبوع

فأجاب رفيقاه :

— حقاً إنك تجهل أننا الآن في « واحة اللؤلؤ » وأننا سنقضي ليلتنا بجانب « قبر العاشقين ! »

كان الجندى المصرى يجهل ذلك . فسأل مستفهماً :

— قبر العاشقين ؟

— نعم . ولهذا القبر الذي تعرف به الواحة الآن قصة يتناقلها الرواة. وسوف تظل الاحقاب تتناقلها الى ماشاء الله

فطلب الشاب من رفيقيه أن يقصا عليه حكاية ذلك القبر الهادىء ، الذي يضم رفات العاشقين ، والذى تحنو عليه الطبيعة كالام المرضع ، وتتساقط على حجريه قطرات الندى، كأنما الليالى تنتزع من مقلة السماء دموعا على قبر العاشقين

وبينما البدر يتجلى في كبد الفضاء ، ونسيم الصحراء يداعب الافنان والاعشاب ، جعل أحد الرفيقين يقص على الشاب المتلهف قصة « عامر وهيفاء . »

***

كان للشيخ « ناصر بن على » ابنة جميلة تدعى « هيفاء » وكانت الفتاة حقا غادة هيفاء، يفوق حسنها وجمالها كل وصف، ويفاخر بها والدها أمام رؤساء العشائر والقبائل، الذين كانوا يتوافدون على مضربه، طالبين الزواج بابنته التي أطلقوا عليها اسم « حسناء البادية »

لكن ناصراً كان يأبى الا أن تختار ابنته الزوج الذي تريده . وكانت هي تعرض عن طلابها الواحد بعد الآخر ، ولا يعلم أحد سبب رفضها وتعنتها ، الى أن كشفت الايام سرها وفضحت أمرها

خرج ناصر يوماً الى الصيد وحده . وماكاد يبتعد عن الحي ، حتى أبصر شخصين مختبئين وراء تل من الرمل. فارتاب في أمرهما ، واتجه

نحوهما حذراً ، وتربص على مقربة منهما منصتا ، وسمع حديثهما
قال أحدهما :

— ما العمل اذن ؟

فأجابه الاخر بصوت رقيق شجي حنون استدل منه ناصر أن المتكلم امرأة :

— لم يبق أمامنا غير الهرب !

وتلا ذلك سكوت قصير . ثم زفرة يصعدها صدر مكلوم . ثم سكوت آخر

ظل ناصر رابضا في مكمنه ، الى أن قال الرجل :

— لنهرب اذن . وافني في منتصف الليل الى «واحة اللؤلؤ» حيث اكون في انتظارك . فنمتطى الهجين ونقطع الصحراء الى الحجاز ليلا

سكتت الفتاة ، ثم أجابته حزينة كئيبة :

— وأبي ... كيف أتركه ... ماتت أمي وأنا صغيرة ، فأبى اتخاذ امرأة اخرى حباً بي . فأنا سلوته الوحيدة، وموضع حبه ، وبهجة حياته

فانتفض ناصر، وقد عرف صوت ابنته هيفاء، وهم بالانقضاض عليها

لكنه تمالك نفسه ، وأراد أن يعرف الحقيقة كلها ، ويعلم ذلك السر الذي تكتمه عنه ابنته . فجعل ينصت من جديد

قالت الفتاة :

— لا ياعامر. لن أقدم على عمل كهذا، ولن أسبب لأبي كدراً، حتى ولو كان ذلك في سبيل من أحب . ان اصلك الوضيع يحول دون زواجنا . فلنرض بما قسم لنا . عد الى حراسة المواشي. وسأعود أنا الى مضرب أبي . يجب أن ينسى كل منا الآخر !

— ننسى . . . كيف السبيل إلى ذلك وقد أضرمت نار الحب في احشائى فكادت تحرقني . لن انساك يا هيفاء ما دمت حياً . واعلمي

انى سأنتحر يوم يتخذ لك ابوك بعلا سواى

— كلا يا عامر . لن تنتحر . ستعود الى صوابك . . .

— بل انتحر . . . انتحر . . .

قال هذا ونهض غاضبا وابتعد عنها ، وتوغل في الصحراء حتى غاب عن الانظار . فالقت هيفاء بنفسها على الارض وبكت بكاء مراً

تركها ناصر على هذه الحال ، وعاد الى الحى ، وقد ذهبت به مخيلته كل مذهب ، فخاف عاقبة ماحدث ، وأخذ يفكر في اختيار زوج لابنته دون أن يستشيرها

أما عامر حارس المواشي ، فقد ظل يتبع الفتاة ويتربص لها في رواحها ومجيئها ، وراء أشجار الواحة حيث كانت تصطحب فتيات الحى ، فيمتع نظره بمرآها ، ثم يعود الى مواشيه والحزن يملأ فؤاده

لكن هيفاء انقطعت فجأة عن الذهاب الى الواحة . فمضى شهر كامل ولم يتمكن عامر من رؤيتها . وشاع في الحي ان الشيخ ناصر سيزوج ابنته لأمير كبير من امراء البادية ، وان الفتاة ستغادر الحي ولن تعود اليه

علم عامر بذلك . فعقد النية على ان يخاطبها ، وجعل يتحين الفرص ويبحث عن حيلة للوصول الى حبيبته والاجتماع بها

لكنه فشل في محاولته . فتضاعف همه وجنح الى اليأس

اذا كانت الفتاة لم تخرج الى موارد الماء مع بنات الحى شهراً كاملا ، فذلك لان الاشاعة صحيحة ، ولان الأب القاسي قد عزم على تنفيذ رغبته ، وابعاد ابنته عن ربوع القبيلة

أهمل عامر مواشيه ، وهام على وجهه في الصحراء ، يناجى طيف حبيبته ، وينشد أناشيد الغرام ، ويتغنى بأشعار جميل وقيس وعنترة . ولا يقترب من أشجار الواحة الا في الوقت الذي يعلم فيه أن النساء يخرجن لاستقاء الماء

وفى ذات يوم، عند غروب الشمس، والغزالة تودع الواحة بخيوطها الذهبية قبل اختفائها وراء جبل الشيخ، أحس عامر بدافع خفي يدفعه الى الاقتراب من نبع اللؤلؤ وخيل اليه أن صوتاً خفياً يهيب به صائحاً :

— اقترب . أسرع . ان حبيبتك الحسناء بين أولئك الحسان . فودعها الوداع الاخير لانك لن تراها بعد اليوم !

ان القلب للقلب دليل !

أسرع عامر وتربص في الطريق . فرأى النساء قادمات الى الينبوع . وأخذت عينه بينهن هيفاء بنت ناصر، مرنحة الاعطاف، مائسة القد، تتهادى دلالا وتستقبل بصدرها نفحات النسيم

هاجت أشجان المسكين، وشعر بقلبه ينسل من بين الضلوع انسلالا، فصاح منشداً موالا بدويا، حملته تلك النفحات فى طياتها، وأودعته أذن الحبيبة

أنشد عامر :

علامش يالبنيه ماوردتين بشهر القيظ كلو ماوردتين
عيونى لك مناهل لواردتين وصدري روض ينبت لك عشابا

وقفت الفتاة، واغرورقت عيناها بالدموع، وتذكرت تلك الساعات التى قضتها بجانب حبيبها . وأحاطت بها رفيقاتها

لكنها تمكنت من كبح جماح عواطفها، ومسحت بطرف معطفها دموعاً خانتها فأفشت لبنات الحي سرها، وردت على موال الحبيب بموال آخر، أعادته اليه نفحات النسيم، كما حملت من قبل زفراته إلى هيفاء :

لاصدرك راض ولاعشب نبت بوه ولا شقر الذوائب دلعت بوه
روح يامسكين ربك ما تعاتبوه غزالك راح ورداته صعابا

رن صوتها في أذنه، ووقعت كلماتها عليه وقع الصاعقة . فأدرك أن لا أمل ولا رجاء له بعد الآن . وداخله اليأس فاستل خنجره وأغمده في صدره صائحاً :

— لقد أقسمت أن أنتحر وها أنا أبر بقسمي !

سقط عامر يتخبط في دمه . فأسرعت هيفاء وتبعتها رفيقاتها . فوجدن الراعي المسكين جثة هامدة

اكبت الفتاة على تلك الجثة تغسلها بدموعها ، وتقبل ذلك الجبين الذى علاه اصفرار الموت

ثم نهضت فجأة،وبيدها الخنجر الذى اخترق صدر حبيبها ، وبادرت نفسها بطعنة نجلاء،فخرت صريعة الى جانب العاشق الذى قضى شهيد وفائه

ولما بلغ الشيخ ناصر خبر تلك الفاجعة ، أسرع الى المكان ، وأمر بنقل الجثتين،وبدفنهما جنباً الى جنب تحت أشجار الواحة،ونصب فوق ضريحهما حجرين ، وأمر القبيلة برفع المضارب وتقويض الخيام

ومالاح ضوء الصبح الأبلج ، حتى كان القوم عن الحي بعيدين . ولم يعلم أحد منذ ذلك الحين الى أين قصد ناصر بن على بعشيرته

وأطلق العربان على « واحة اللؤلؤ » اسم « قبر العاشقين »

هذا مايقصه عليك البدوي لوجئته مستعلماً

ثم يتركك ويبتعد منشداً :

علا مش يا لبنيه ماوردتين بشهر القيظ كلو ماوردتين...

***

في تلك الواحة قضى عبد الله السيوطي ورفيقاه ليلتهم

لكن نور الشمس لم يدرك غير واحد منهم في صبيحة اليوم التالى.

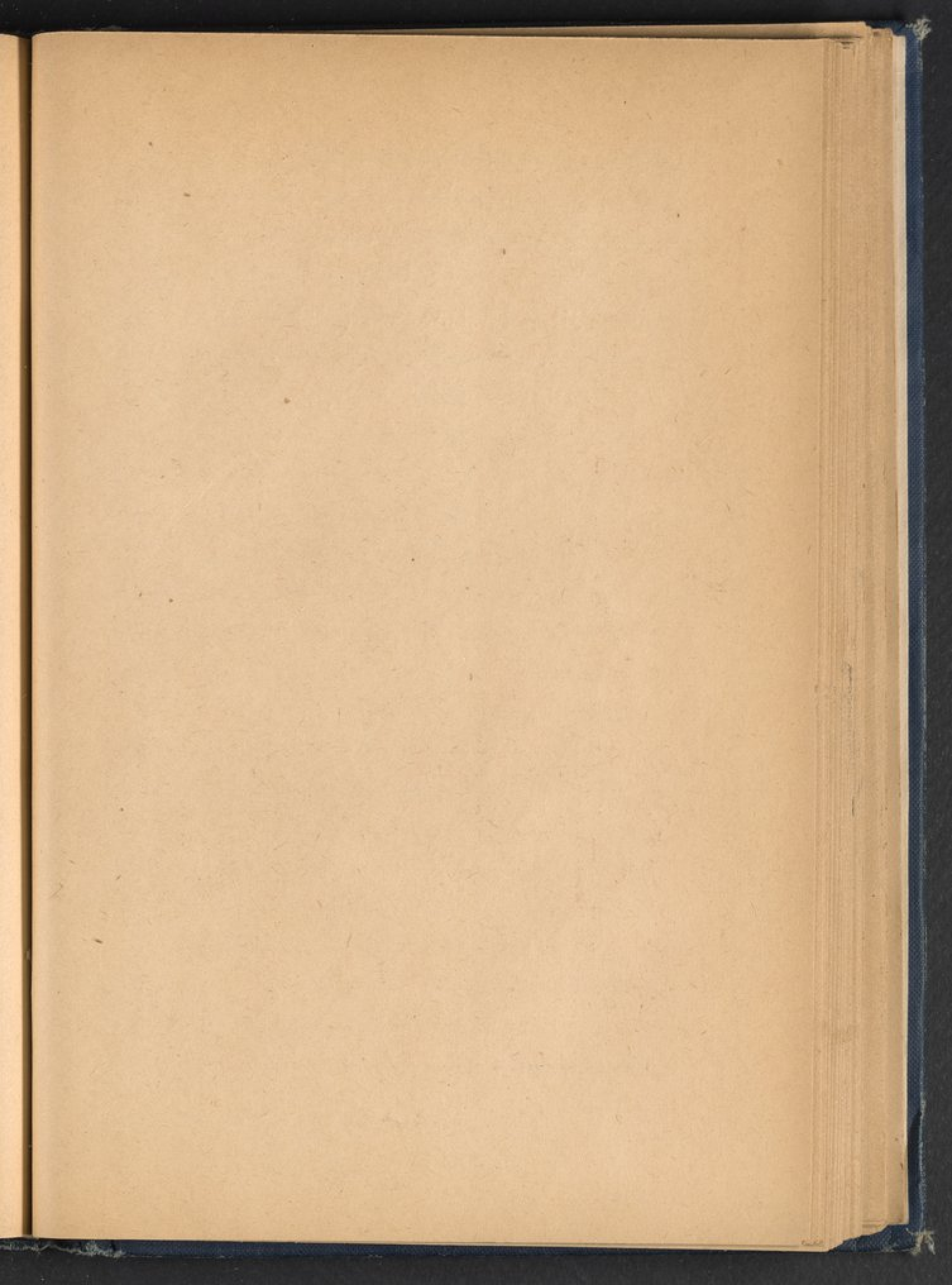
ذلك لان جماعة من لصوص البادية فاجأتهم ليلا ، وذبحت منهم اثنين ، وتمكن الثالث — وهو أحد الفارسين الدرزيين — من الهرب والعودة الى دمشق

وبعد يومين ،عاد مع كوكبة من الفرسان الى واحة اللؤلؤ ، لدفن جثتى الجندى المصري ورفيقه بأمر من قائد الحامية

كانت الجوارح والـكواسر قد التهمتهما، فلم يجد القوم غير هيكلين من العظام، لم يتمكنا من معرفتهما الا مما تبقى بجانبهما من ثياب ممزقة

وتحت الصفصاف الباكي، بجانب « قبر العاشقين » يرقد عبـد الله السيوطي ورفيقه الدرزى رقادهما الاخير

وفي شهر مايو (ايار) سنة ١٨٤٠ زار ابراهيم باشا المصري قبر الجندي الشجاع، الذي عجزت دون النيل منه في ساحات القتال معدات الهلاك، واغتالته يد لص أثيم وهو نائم في الصحراء!



- ٨ -

أفراح وأتراح

أرسل قائد الحملة المصرية التي سيرها ابراهيم باشا لتأديب الخوارج من قبيلة « الرولة » في طلب اليوزباشي محمد الطهطاوى ، ولما مثل بين يديه قال له :

— رغب إلي القائد العام أن أفضى اليه بنتيجة أعمالنا العسكرية بعد أسبوعين من رحيلنا عن عكاء . وها قد انقضى الاسبوعان . وما أرسلت في طلبك ياحضرة اليوزباشى ، الا لكي أعهد اليك دون سواك بالشخوص الى دمشق ، واطلاع ابراهيم باشا على ماصنعناه بالاعداء . أرجو أن تبسط له تفاصيل المواقع التي جرت بيننا وبين العربان، وتخبره بان مشايخ البادية يتوافدون علينا الآن لتقديم الطاعة والانضمام الى صفوفنا . وأن هذا الجزء الجنوبى من بادية الشام قد أصبح خاضعاً لنا. قل له كل هذا ، وأضف عليه اننى في هذا المكان مقيم ، على مقربة من حدود الجبل الدرزى ، في انتظار أوامره للعمل بها

١٢ يونيه – حزيران – ١٨٣٢

غادر محمد الطهطاوى مضارب الحملة المصرية ، على رأس كوكبة من الفرسان ، قاصداً الى دمشق حيث كان الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا يعد العدة للهجوم ويتحفز للاستيلاء على المدينة

وما كادت الكوكبة تبتعد مسيرة ساعتين عن المضارب ، وتتوغل

في البادية ، حتى أخذت أعين رجالها عن بعد خيال شبح يتحرك تحت شجرة يابسة ، تبدو أغصانها العارية في وسط الرمال والحصى ، كأنها أذرع تبتهل الى الله أن يشفق على تلك البقعة المغضوب عليها ، فيمطرها قطرات من الماء رحمة بالمسافرين

أمر محمد الطهطاوي رجاله بان يقصدوا إلى ذلك المكان ، لكي يتفقدوا الخبر ، ويأخذوا بعض الراحة بجانب تلك الشجرة

وصلوا إلى المكان المقصود . ويالهول مارأوا !

وقعت أنظارهم على كومة من الجثث ، وقد تجمدت حولها الدماء ، وبينها فتاة تروح وتجيء كأن بها مساً من الجنون ، تلطم خديها وتنتحب وتحاول طرد الغربان الجائعة ، التى حامت حول تلك المائدة الفاخرة من اللحوم البشرية المشوهة

هال القوم منظر تلك المذبحة البشعة . وطافوا انحاء المكان محاولين العثور على من بقى حياً بين اولئك الاموات . فلم يجدوا غير شيخ طاعن في السن ، أصيب بطعنة في كتفه ، ظن القتلة انها قاضية ، فتركوه دون أن يجهزوا عليه

أسعف المصريون الفتاة والشيخ ، وضمدوا جراحهما ، وهدأوا روعهما ، وتعهدوا بحمايتهما والاقتصاص من الائمة المعتدين

***

قصت الفتاة على محمد الطهطاوي خبر ماحدث، قالت :

— انى ادعى «زمرد» وهذا الشيخ اسمه «حمد القاسم» وهو أبي. نحن من الشيعيين المقيمين بوادى التيم بلبنان . كنا عائدين من جبل الدروز مع قافلة تحمل كميات من البضائع لتجار دمشقيين . ولما وصلت القافلة إلى هذا المكان ، حطت رحالها لقضاء الليل فيه . وما غربت الشمس وراء الجبال ، حتى فاجأنا غزاة من العربان

فقال لها الضابط المصري سائلا :

— إلى أية قبيلة ينتمى المعتدون ؟

— انهم من عرب «الرولة» الذين يعيثون في هذه الارض فساداً ويقطعون على القوافل الطرق ويسلبون وينهبون . وقد ذبحوا رجال القافلة ذبح الانعام . ولو لم اندس تحت جثة أمى هذه التى ترونها هناك، لما بقيت حية سليمة . وبعد ما فرغوا من مهمتهم الدموية ، واحتملوا المتاجر والارزاق ، ساقوا أمامهم الخيل والابل ، وتوغلوا في الصحراء سعياً وراء غنيمة أخرى

طيب الضابط خاطر الفتاة وقال :

— سننتقم لرجال القافلة من أولئك اللصوص !

لكنها نظرت اليه نظرة تنم عن الشك وعدم الثقة. وأجابت بصوت تتخلله الزفرات :

— كيف السبيل إلى الانتقام منهم وهم قادرون في بيدائهم أن يهزأوا بكم وبجيوشكم الجرارة . فالرمال حصون منيعة ، تحميهم منكم وترد عنهم بطشكم

ثم لمع في عينيها بريق الامل وقالت :

— على أن الانتقام ممكن من باب آخر ، والثأر يدرك من طريق غير مباشر . إن أولئك العربان الذين يسطون على الناس ويناوشون عساكركم ، ليسوا مخيرين بل هم في أعمالهم مسيرون . ان كل فريق منهم يقوده اثنان أو اكثر من الاغوات والضباط الاتراك، وقد كان مع أولئك الذين هاجموا قافلتنا ثلاثة من زبانية الوالي «علو باشا» . أمخطئة أنا ياأبى ؟

وجهت الفتاة السؤال الى الشيخ حمد القاسم ، فأجاب بأنها مصيبة في قولها ، وأن رجال الوالي التركي هم الذين كانوا يقودون العربان في هجومهم

نهضت الفتاة حينئذ ، وبسطت ذراعها مقسمة قائلة :

ــ اذا كنتم أيها الضباط قاصدين الى دمشق ، فاننا نسير معكم اليها .
وهناك آخذ نصيبي من القتال، وأثأر بيدى لوالدتي ولدماء هؤلاء الشهداء

فصافح محمد الطهطاوي يد الفتاة الباسلة ، وعاهدها على العمل معها في سبيل الثأر والانتقام

* * *

١٦ يونيه ــ حزيران ــ ١٨٣٢

واقعة دمشق... خروج الوالي من المدينة برجاله.. اشتباك الجيشين في معركة حامية...انتصار المصريين وانهزام أعدائهم...فرار القائد التركي وهو لايلوي على شيء ... دخول ابراهيم عاصمة الامويين : كل ذلك لم يتطلب من الوقت والجهود كثيراً ، بل مر بسرعة الاحلام التى يتردد العقل في تصديقها

واشتركت « زمرد بنت محمد القاسم » في تلك الموقعة ، لكنها لم تجد فيها ما يروى ظمأها الى الثأر

وعندما نفخ في الابواق وصدرت الى الجيش الفاتح أوامر القائد بالزحف نحو الشمال ، فرحت الفتاة وهللت ، وعزمت على السير مع الغزاة الى حيث يزحفون ، وأخذ نصيبها من المعركة المقبلة كما أخذت نصيبها من المعركة السابقة

أما أبوها الشيخ فقد انضم الى رجال الامير بشير حيث وجد بينهم أقارب وأصدقاء . لكن الفتاة ظلت في الكتيبة التى يقودها محمد الطهطاوى ، بأمر خاص من القائد العام ، الذى سمح لها بان تحارب مع بقية النساء المحاربات ــ وكن في ذلك الوقت كثيرات

أما الحملة المصرية التى عهد اليها بتأديب العربان ، فان ابراهيم أوفد اليها رسولا غير الطهطاوي ، لانه كان يعده من أمهر الضباط وأشجعهم،

ويشعر بحاجته اليه والى أمثاله في المواقع القادمة

* * *

وصل الجيش الزاحف الى النبك . وصدر الى الامير بشير أمر بالاقامة في « دير عطية » بينما ابراهيم يجد في السير الى « النصير » ويضرب مضاربه على ضفاف نهر العاصي . ثم يقصد الى « قطينة » على مسافة ثلاثة أميال من « حمص »

وكانت الجيوش العثمانية القادمة من الشمال قد وصلت الى ضواحي المدينة حيث انضمت اليها فلول المنهزمين من دمشق . فوقف الفريقان وجهاً لوجه في تلك السهول التاريخية ، التي طالما تطاحنت فيها الجحافل وسالت الدماء ، ورأت أطرافها الاعلام المصرية خفاقة منتصرة من عهد الفراعنة الى الايوبيين والفاطميين ومن خلفهم في وادي النيل

خمسة وعشرون الفاً من الجنود الاتراك ، وقفوا في ذلك السهل ، يقودهم ثمانية باشاوات رصعت صدورهم بالاوسمة والنياشين ، وتدلت على أكتافهم شارات النبل وشرائط الفضة والذهب ، ووضعت تحت تصرفهم عشرات المدافع وأكداس مكدسة من الذخيرة والمؤن . ووقفت بعيدة عنهم صفوف متراصة من فرسان البادية الموالين انتظاراً لاشارة الهجوم

كان ذلك الجمع الهائل أول جيش نظامي يلاقي في الميدان جيش ابراهيم النظامي . وكان يمتاز عن سواه من جيوش العالم بما امتازت به جيوش الاتراك في ذلك العهـد من سوء النظام ! ولو تعمد قائد أن يبعث في رجاله روح اليأس والقنوط ، ويخالف عن قصد قوانين الحروب ، ويرتب جيشه بحيث يضمن له الفشل والهزيمة ـ لما استطاع أن يفعل ذلك كما فعله أولئك الباشاوات الثمانية ، ولما تمكن من تحقيق غرضه مثلما تمكنوا . . .

رتب الباشاوات جنودهم في صفين متراصين ، وفصلوا عنهما جناح الجيش الايمن ، فوضعوه في جزيرة يحيط بها النهر وماء ترعة من جميع نواحيها . ووزعوا مدافعهم بحيث لم يجمعوا بين اثنين منها في موضع واحد . وتأهبوا للقاء عدوهم والقضاء عليه

أما ابراهيم ،فقد وافاهم بعشرين الف مقاتل ، ربض جناحهم الايسر على ضفة النهر ، وجناحهم الايمن شطر البادية ، وتحفزت بقية الجيش للهجوم من الوسط، بعد ان حجبت المدفعية عن الانظار وانتشر الفرسان في أطراف الميدان لمناوأة العدو ومطاردة فلوله

٨ يوليه - تموز - ١٨٣٢

يوم تاريخي يضاف الى الايام التاريخية الكثيرة التى دونتها العساكر المصرية في سجل التاريخ بأطراف الاسنة وشفار السيوف

حصدت مدافع ابراهيم قلب العدو وميسرته حصداً ذريعاً. واستنجد الباشاوات بميمنتهم فلم تستطع انجادهم. وهجم الجيش المصرى كالبحر المتلاطم بالامواج ، فاستحال الميدان الى آتون متأجج ، تلمع فيه البواتر وتقطر الدماء ، وتقذف فوهات المدافع الحمم في وسطه وجوانبه

وما أسدل الظلام ستره على ذلك الجحيم ، حتى كان الباشاوات الثمانية قد أطلقوا لخيولهم الاعنة ، طالبين النجاة بالفرار ، ووراءهم البقية الباقية من جيشهم ، ووجهتهم مدينة حلب ، المعقل الاخير من معاقل سورية

وفي ٩ يوليه ، أي في صبيحة اليوم التالي ،دخل ابراهيم باشا مدينة حمص ، فلاقاه أهلها بالاناشيد والاهازيج ، ونثرت نساؤها على رءوس الفاتحين أزهار الورد والياسمين

وغنم المصريون في تلك الموقعة الفاً وخمسمائة من الأسرى ، وجميع المؤن والذخائر التى ملأ بها الجيش التركى مخازن المدينة وثكناتها ، وواحداً وعشرين من المدافع التي لم تثبت في المعركة وجودها

والتهمت الطيور فى الميدان جثث الفين من القتلى

أما خسارة المصريين ، فقد بلغت في ذلك اليوم مائة واثنين من القتلى ومائة وواحداً وستين جريحاً

وكان الباشاوات وجنودهم مسرعين في فرارهم الي حد تركوا معه في طريقهم الى حلب ما تبقى لديهم من مدافع وأسلحة

واقتفى الفرسان أثر الهاربين ، ونكلوا بفلول الاتراك تنكيلا ، ولم يدعوا لهم سبيلا الى الراحة والاطمئنان ، الا بعد أن اقتربوا من حلب واحتموا وراء معاقلها وحصونها

***

١٤ يوليو سنة ١٨٣٢

دخل أحد أطباء الجيش على ابراهيم باشا ، وبعد أن بسط له حالة الجرحى ، وأطلعه كالمعتاد على عدد الجنود الباقين في المستشفيات ، وعدد الوفيات بينهم ، قال له :

— أما الجريح الذى أوصيتني بالعناية به يامولاى ، فان حالته تنذر بالخطر ، وأملي ضعيف في انقاذ حياته

فأجابه ابراهيم :

— أرجو منك أن تسهر عليه ، وأن تنقله إلى بيروت أو عكاء عند ما تسمح حالته بذلك ، لكي يبحر من هناك عائداً الى مصر

فسال الطبيب :

— والفتاة التى جاءت تعوده اليوم ؟ أيسمح لها مولاى بالاقامة بجانبه ؟

— نعم . فانني أحلها من قسمها ، وأسمح لها بالسهر على محمد الطهطاوي حتى يتم له الشفاء

كان الضابط قد أصيب بجرح خطير وهو يطارد الاعداء في الفلاة .
وكانت زمرد بنت حمد القاسم ترافقه في تلك المطاردة ، فحملت الجريح وعادت به مع بعض الفرسان الى حمص

وبقيت بجانبه ، تواسيه وتعزيه ، بينما الجيش يتابع الزحف شمالا الى حلب

كان الجرح بليغاً ، فلم يستطع الطهطاوي أن يحقق أمنيتـه كاملة ، ويشترك فى الحرب الى النهاية

وصلت اليـه أخبار الانتصارات الجديدة التى أحرزها الجيش في حلب وانطاكية وبيلان واسكندرونة ، وإشاعات الصلح التى انتشرت في كل مكان

رأى الطبيب ان مريضه قد استعاد صحته إلى حـد محدود ، وأن نقله إلى عكاء خير وأوفى من بقائه في حمص

وسافرت زمرد مع الضابط ، وقد أقسمت أن تسهر على راحته بعد أن أنقذ حياتها . ووافاهما والد الفتاة الى عكاء

ومرت الايام . . . ومرت الاسابيع . . . وتولدت بين الاثنين تلك العاطفة التي لا بد أن يحدثها احتكاك قلبين ، كما يحدث قدح الزناد تطاير الشرر

كان الشاب يعطف على الفتاة . وكانت الفتاة تعطف على الشاب . والعطف خطوة أولى في سبيل الحب !

فأحبها وأحبته !

ولم يتردد الوالد في إجابة الضابط إلى طلبه ، عندما رغب اليه في أن يعطيه ابنته زوجة حليلة

أشار الاطباء على محمد الطهطاوى بالتزام الراحة والسكينة شهوراً عديدة . ولم يسمحوا له بالعودة إلى ميدان القتال ، لان الجرح الذى

أصابه قد ترك في جسمه أثراً عميقاً ، وزعزع صحته ، وجعله غير قادر على حمل السلاح

ولما علم ابراهيم ذلك ، أوفد الى ضابطه رسولا يحمل اليه سلام القائد ، ويحله من العهد الذى قطعه على نفسه ، عندما أقسم أن يحارب الى النهاية ، وألا يهجر الصفوف الا إذا وافاه القدر

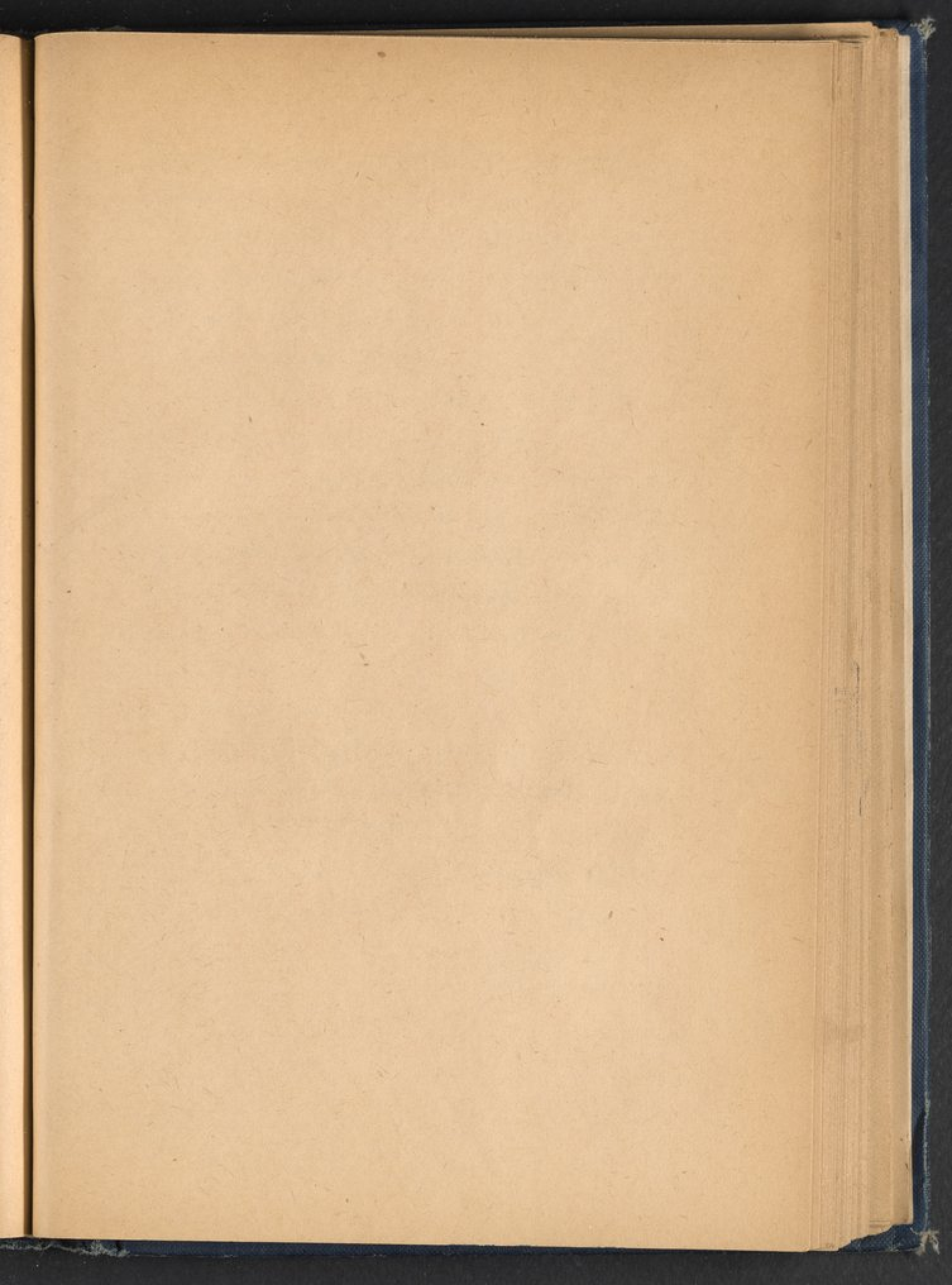
وأضاف الرسول على ذلك قوله :

— ثم إن مولاي يهنئك على زواجك ، ويرجو لك السعادة مع الفتاة الباسلة التى وقع عليها اختيارك

وفي الخامس عشر من سبتمبر (ايلول) ١٨٣٢ ، شهدت عكاء مهرجاناً لم يسبق له مثيل فيها . فقد احتفل في ذلك اليوم بزواج محمد الطهطاوي وزمرد بنت حمد القاسم . وخرج الجرحى والمشوهون جميعاً الى أسواق المدينة وطرقاتها ، حاملين المشاعل ، هاتفين منشدين . وشاركتهم الحامية في مهرجانهم ، فاطلقت البنادق ، وأنيرت المنازل ، وارتفعت في جو عكاء أصوات النساء بالزغاريد

وهكذا تتجاور الافراح والاتراح في الحروب !

ولم يكن ذلك الزواج الاول من نوعه ، كما انه لم يكن الاخير . بل كثيرون هم الضباط والجنود المصريون ، الذين ربطوا حياتهم بحياة نساء من بنات سورية ولبنان ، في ذلك العهد الذي مشى فيه أبناء البلاد جنباً الى جنب مع جنود ابراهيم ، فامتزجت في الميادين دماؤهم ، وتشابهت في السياسة مقاصدهم ، وتعانقت في عالم السعادة أمانيهم !



- ٩ -

انتقام الهوارة

أصدر السلطان محمود الثانى ارادته السنية بتعيين حسين باشا قائداً عاماً للجيوش العثمانية في الاناضول ، وأنعم عليه بلقب «سردار أكرم» وزوده بالاوامر والذخائر والمؤن ، وسيره على بركة الله للاقتصاص من المصريين العصاة ، ورد ابراهيم باشا وعساكره على أعقابهم !

وكان حسين باشا من رجال السلطان الاخصاء وأعوانه الامناء ، يشهد له الجميع بالذكاء والاقدام . وقد ساعدته الظروف على اثبات اخلاصه لمولاه في وقائع عديدة . وهو الذي تمكن السلطان بواسطته من القضاء على «الانكشارية» وقطع دابرهم من الآستانة

سار حسين باشا اذن على رأس جيشه اللجب ،قاصداً الى حمص ، لنجدة زميله محمد باشا . لكنه قطع المراحل بين عاصمة السلطنة والحدود السورية ببطء وتثاقل ، ظناً منه أن ابراهيم باشا المصرى لن يجرؤ على مهاجمة المدينة ، وفاته أن قوة الجيش المصرى المعنوية كانت تضاعف عزائم الجنود ، وتجعلهم - بعد انتصاراتهم المتتابعة - يهزأون باعدائهم وما يجرونه وراءهم من معدات الهلاك

وصل «سردار أكرم» الى انطاكية . وبعد أن استراح قليلا من عناء السير ، واصل زحفه الى حمص . لكنه ما وصل جسر الشغر حتى التقى بفلول الفارين من جنود زميله محمد باشا ، فقصوا عليه ما أوقعه بهم

المصريون من هزيمة ومذلة وهوان ، في معركة حمص الدموية . ورأى الرجل نفسه في اضطرار الى العودة على أعقابه ، والاعتصام في حلب ، انتظاراً لقدوم ابراهيم بجيشه اليها

لكن سكان المدينة أوصدوا أبوابها في وجهه ، ولم يدخلوا اليها غير الجرحى والمرضى والمصابين من الجنود ، قائلين للقائد العثماني: «لك أن تنازل المصريين خارج الاسوار. فاذا تغلبت عليهم فتحنا لك أبواب المدينة . أما اذا لذت بالفرار كمن سبقوك من القواد ، فاننا نستودعك الله من الآن ، ونرحب مهللين مكبرين ، بقدوم ابراهيم والمصريين ! »

وكان القائد المصري في اثناء ذلك يجد في مطاردة عدوه ، ولا يترك له فرصة لجمع جموعه من جديد . فلم ير حسين باشا بداً من الانسحاب الى موقع يستطيع فيه الثبات أمام المنتصرين الزاحفين. فاسرع الى مضيق «بيلان» تاركا خيامه عند أبواب حلب، وكمية كبيرة من ذخائره ومؤنه ومدافعه

وفي الخامس عشر من شهر يوليه (تموز) ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا حلب الشهباء فاحتلها بلا قتال، وأعد له السكان استقبالا حافلا بمظاهر الفرح والحماسة . ودخلت المدينة في حظيرة الدولة المصرية ، أسوة باخواتها. وأعاد ابراهيم اليها ميزان العدل والانصاف والنظام ، الذي فقدته من زمن بعيد

وأراد القائد أن يأخذ جيشه الباسل قسطاً وافراً من الراحة ، استعداداً للمعارك المقبلة ، فأصدر بذلك بياناً الى جنوده ، قائلا لهم إنه يطلق لهم حريتهم أياماً معدودة ، على شرط أن يحترموا الارواح والاعراض والاموال

واغتنم ابراهيم باشا الفرصة للنظر في أمر الجنود الذين خرجوا على النظام ، وارتكبوا أوزاراً يؤخذون عليها. فعقد مجلساً من كبار قواده

وزعماء المتطوعين من أبناء البلاد ، تبوأ فيه مقعد الرئاسة ، وطلب إلى قواد الجيش وضباطه أن يبسطوا أمام المجلس ما لديهم من شؤون وشكايات

* * *

— ما اسم هذا الجندى ؟

— اسماعيل الجرجاوى

— والتهمة الموجهة اليه ؟

— القتل

— والقتيل ؟

— جندى مصرى من رجال المدفعية

— وتفصيل الحادث ؟ وأسباب الاعتداء ؟

— لا نعلم يامولاى إلا شيئاً واحداً. وهو أن هذا الجندى قد انقض على زميله بعد معركة حمص، وأمسك بعنقه ، وخنقه باسرع من لمح البصر

— أهو من رجال المدفعية ؟

— كلا . بل من المشاة

سكت ابراهيم بعد أن أفضى اليه الضابط الشاكى بهذه التفاصيل . ونظر الى الجندي المتهم ، وقال له بلهجة المعاتب المؤنب :

— أليس من العار أن يقال عن جندي مصري إنه اغتال رفيقاً له في النصر والجهاد ؟ دافع عن نفسك. فان هذا المجلس لم يصدر قبل الآن حكما على مذنب ، دون أن يصغى إلى دفاعه ويزن أقواله

رفع الجندى رأسه ، ونظر الى ابراهيم ، فاذا بعينيه تدمعان، واذا به شاحب اللون مختلج الشفتين

وقال بصوت منبعث من أعماق صدره :

— نعم . انني قاتل يا مولاى . لكن فعلة القتل التى أقدمت عليها

ليست اثماً أستحق من أجله أن ينظر الي الناس نظرهم الى مجرم سفاح .
كلا . بل هي في عرف عشيرتى فضيلة وشارة شرف أفاخر بها

— واية عشيرة تلك التى يعتبر فيها القتل فضيلة ؟

— الهوارة يامولاي. فاسماعيل الجرجاوي، الماثل في حضرتك الآن، ينتمى الى تلك القبائل العربية ، التى نزح أجدادها من الصحراء الى الصعيد ، حيث طابت لهم الاقامة ، فحطوا رحالهم في وادي النيل. لكن تقاليدهم الموروثة ظلت في نفوسهم حية مرعية محترمة . وقد غرسوها في ذلك الصعيد كما غرسوا فيه أطناب الخيام

فأدرك ابراهيم أنه أمام رجل من أولئك العربان الذين لا ينامون على ضيم ولا يسكتون عن دم مطلول . فقد يثأر الواحد منهم لقتيل بعد أيام أو شهور أو اعوام . وهذه العادة قد امتزجت بدمائهم فلا سبيل الى انتزاعها . والابناء يتوارثونها عن الآباء . والاحجام عن الأخذ بالثأر يعد في نظرهم عاراً لاعار بعده، وجبناً يستحق من يصم نفسه به أن يوليه القوم ظهورهم امتهاناً واحتقاراً

فقال ابراهيم :

— قص علي قصتك يااسماعيل . وسوف نرى فيها رأينا

كان الرجل قد استعاد ثباته ومسح دموعاً خائنة نفرت من عينيه بالرغم منه ، فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— قتل أبى منذ ثمانية أعوام يامولاى ، وكنت حينذاك في الثالثة عشرة من عمرى ، ضعيف البنية ، مريضاً ، لاأدرك للأخذ بالثأر معنى، ولا أقيم للتقاليد الموروثة وزناً. وبقيت بعد قتل أبى وحيد أمى ، التى لم يكن لها في القرية معين ولا نصير . فجعلت تبث في روحى الانتقام ، وترعى صحتى بعنايتها، وتسهر على راحتى ونشأتى. فترعرعت فى كنفها، وكأن الله عز وجل قد أراد أن يستجيب دعاء تلك الوالدة الثكلى ،

ويجعل مني أداة للانتقام من القاتل الاثيم ، فكنت أستعيد قواي شيئاً فشيئاً ، وأشعر مع الايام بأن واجباً عظيما قد فرض علي القيام به . وأدركت بعد حين أن أبناء العشيرة ينظرون الينا ـ والدتي وأنا ـ نظرهم إلى من ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وخيم عليهم العار ، وطبعهم الجبن بطابعه . ولما بلغت العشرين من العمر ، خاطبتني أمى قائلة : « لقد حان الوقت وأذنت الساعة الرهيبة يابني . إننى أعرف القاتل الذي سفك دماء أبيك ، وجعلنا سخرية بين الناس وهدفا لازدرائهم . ان القاتل يمرح الآن حراً طليقاً ، بينما جثة أبيك المسكين ترقد تحت الرمل ، هناك ، طعمة للحشرات ، دون ان يقوم على القبر « شاهد » أو تذبح عليه ذبيحة ! ولن نستطيع أن نفعل ذلك ، إلا إذا انتقمت لابيك من قاتله ، وثأرت له ثأراً دمويا ، يمحو العار الذي يكتنفنا ، ويمكننا من النظر إلى الناس وجهاً لوجه بلا خوف ولا وجل ! اذهب يابنى ولا تعد الا ويدك مخضبة بدم ذلك القاتل الجبان ! أما اذا لقيت حتفك ، فانني أقضى بقية أيامى هنا ، في البكاء والنحيب ! » هذا ماقالته لى أمى يامولاي . فأقسمت لها انني سأثأر لابى . وأسرعت في طلب الغريم ، فعلمت أنه جندي في المدفعية ، وأن فرقته مع الجيش الزاحف بقيادتك . قلت في نفسى : «لو أحجمت عن اللحاق به ، لافلت مني الثأر وضاع علي الانتقام . ومنذ ذلك الوقت ، صحت عزيمتى على التطوع في الجيش ، لاحباً بالحرب فقط ، حيث أجد السلوى التي اتوق اليها ، بل أيضاً سعياً وراء الثأر الذى انشده ، والترضية التي ارغب فيها . لقد حاربت يامولاى واستبسلت في القتال . سل ضباط جيشك عن فعالى في الميادين ، وعما اذا كنت قد تنحيت يوما عن مواطن الخطر ، أو وليت مدبراً في الاوقات العصيبة . لقد قمت بواجبى كجندى . وعندما حان الوقت للقيام بواجبى كابن بار بابيه ، لم أحجم عن ذلك ، بل انتهزت الفرصة ، وقتلت قاتل أبى ، وأرويت ظمئي

من دمه . بحثت عنه طويلا حتى اهتديت اليه . ولم أشأ أن الحق به أذى في مستهل المعركة، بل انتظرت الى نهايتها، وتركته يقوم بواجبه بين رفاقه رجال المدفعية . وبعد ما انتهى كل شيء ، وانهزم العدو أمامنا ، ودخلنا مدينة حمص منتصرين، وثبت به ، وقبضت على عنقه ، وانتزعت روحه انتزاعاً . هذه قصتي يامولاي ، لازيادة فيها ولا نقصان . فحياتي الآن بين يديك. ولك ان تصنع بها ماتشاء، فأنت السيد الآمر المطاع !

***

تشاور ابراهيم مع قواده وانصاره . ثم اصدر حكمه على الجندي القاتل المنتقم :

— ان القتل في عرفنا يااسماعيل جريمة لاتغتفر، ايا كان الداعي اليها، وايا كانت الظروف المحيطة بها . والقاتل يقتل . امستعد أنت للقاء العقاب ؟

— نعم يامولاي

— وارادتك الاخيرة ؟

— لم تقم امي مأتماً بعد مصرع ابي . فكل ما ارجوه الآن ان تبعث اليها خبرى، فتعلم انني قد رحلت عن هذا العالم بعد ان ثأرت لابي من قاتله، وتقيم في البيت مأتماً، وتضع على قبر الميت شاهداً، وتذبح عليه الذبيحة الاولى ، وتخضب الشاهد بدم تلك الذبيحة !

— سأفعل ذلك يااسماعيل . اما تنفيذ الحكم فيك ، فانني اعهد به اليك، لانني لااريد ان تموت ميتة المجرمين السفاكين، وان كنت في نظري مجرما سفاكا . بعد أيام سنلاقى العدو من جديد في الميدان . ينبغي ان تلج القتال، وتخوض غمار المعركة بما عهد فيك من شجاعة واقدام ، والا تعود من الميدان حياً ! هكذا ارغب اليك ان تكفر عن ذنبك، وتمحو سيئتك . اتعدني بذلك ؟

— اقسم لك يامولاى انى سأستشهد في الميدان ، وسيكون رفاقى على ذلك شهوداً !

***

٢ ربيع الاول ١٢٤٨ - ٢٩ يوليو ١٨٣٢

بيلان . . . مضيق موحش ، تسلكه القوافل بين الاسكندرونة وحلب . وهو معقل منيع وحصن حصين، وممر الغزاة الفاتحين على كر الاجيال . رأت هضابه الشماء جحافلهم ، وسمعت صخوره الصماء وقع حوافرخيولهم ، منذ أن عرف التاريخ الى الآن . ففى ذلك المضيق مر الأشوريون والبابليون والفراعنة والفرس والاسكندر والصليبيون

وابراهيم يسلك الطريق الذي سلكه هؤلاء

ستون الفاً من الاتراك ربضوا في ذلك المعقل الحصين ، ومعهم مائة وستون مدفعاً ، في انتظار ابراهيم وجيشه

لكن نظامهم مختل ، وادارة جيشهم رديئة ، والقوة المعنوية معدومة من نفوس الجنود

وصل ابراهيم قبالة المضيق ، بجيش اقل عدداً وعدة من جيش خصمه حسين باشا ، لكنه يفوقه نظاما وادارة وقوة معنوية

اهمل القائد التركى احتلال بعض المرتفعات المشرفة على السهل، فاستفاد القائد المصرى من ذلك الاهمال

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ، دون ان يترك ابراهيم لجيشه الوقت الكافي للراحة ، اصدر امره بالهجوم

كان حسين باشا قد حشد قواه جميعها في القلب ، وترك جناحيه في حالة ضعف بين ، اعتقاداً منه ان عدوه سيهاجم القلب دون الجناحين . وهذا ما تظاهر به ابراهيم

لكنه شطر جيشه شطرين ، فقام أحدهما بهجوم عنيف على قلب

الجيش التركي ، بينما كان الآخر يلتف حول ذلك الجيش ، فأحاطه بدائرة من حديد ونار ، وقطع عليه خط الرجعة من جهة الاناضول

وبعد ساعتين فقط ، تضعضع الجيش التركي واضطربت صفوفه ، فضاعف المصريون نيرانهم . وما اقبلت الشمس على المغيب ، حتى كان جنود «السردار أكرم» يولون وجوههم شطر الساحل ، ويفرون من الميدان زرافات ووحدانا ، على امل ان يصلوا الى الاسكندرونة ، ويحتموا بالاسطول القادم اليها من الاستانة

وخسروا في تلك الموقعة الهائلة خسارة جسيمة ، وتركوا بين ايدى المصريين اكداساً مكدسة من الاسلاب والغنائم

وفر حسين باشا كغيره من الضباط والجنود . ومنذ ذلك الوقت لم يقف له احد على اثر . ويقال ان جنوده قد فتكوا به في الطريق ، طمعاً في الاستيلاء على ما كان يحمله معه من اموال طائلة

اما الجيش المنهزم ، فقد تفرق في وهاد الاناضول وبطاحه . وفي ٣٠ يوليه (تموز) ١٨٣٢ دخل المصريون ثغر الاسكندرونة ، واستولوا على المراكب السبعة التي ارسلها السلطان لنجدة سرداره !

وسير ابراهيم فريقاً من جيشه إلى بياس ، حيث فاز بمن التجأ هناك من الاعداء ، وتم له القضاء على الجيش العثماني قضاء كاملا

***

دخل الضابط على ابراهيم وقال :

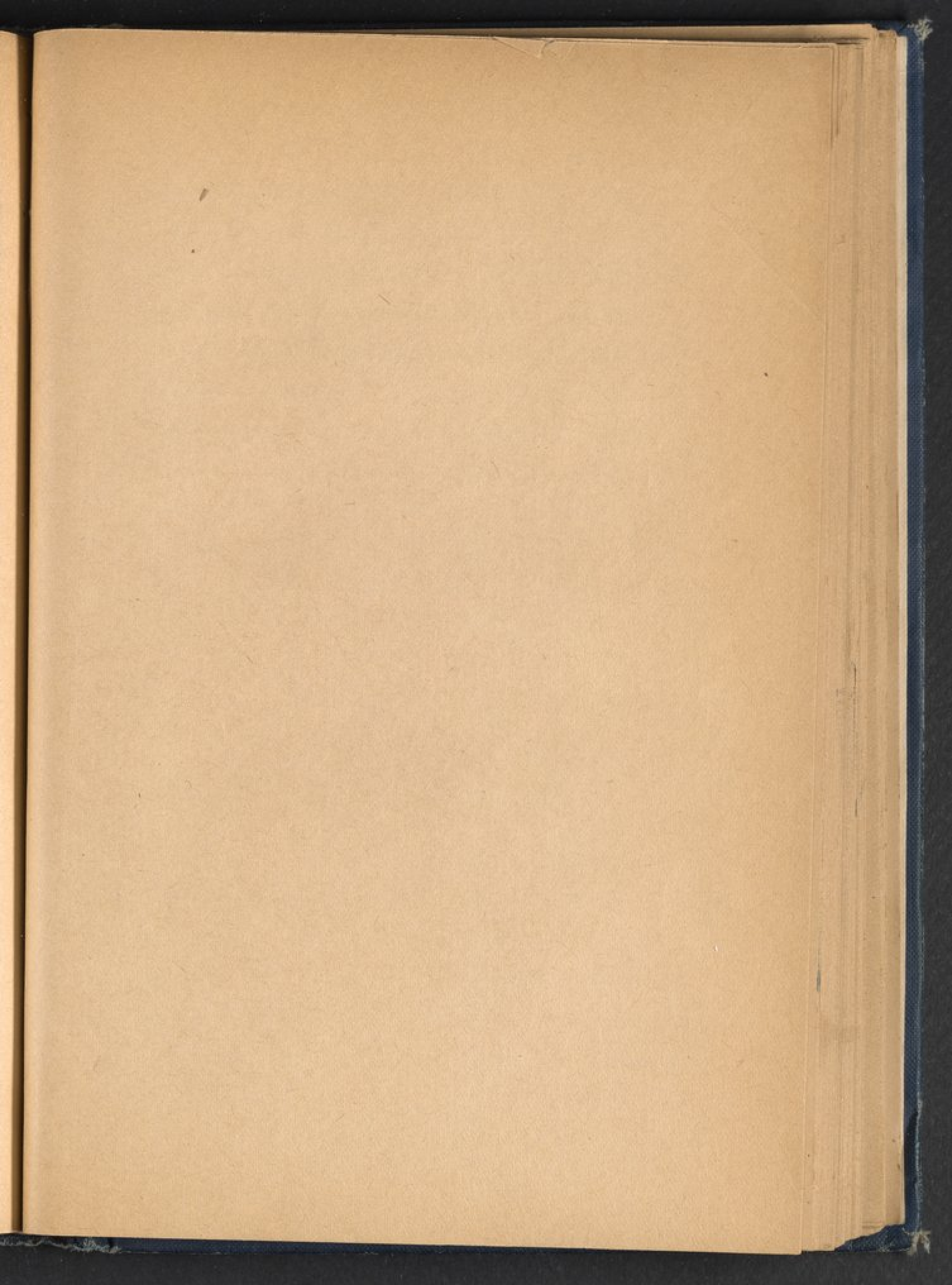
— مولاى . أمرتني أن آتيك بخبر اسماعيل الجرجاوي ، بعد معركة بيلان ، وأن أفضي اليك بتفاصيل سلوكه في الميدان . لقد حارب ذلك الجندى ببسالة لم أعهدها من قبل في جندي سواه . وعندما أصدرت الينا أمرك بمهاجمة المدفعية التركية ، رأيت ذلك الشاب الشجاع يقتحم الصفوف والمعاقل ، والسيف يقطر بيده دماً . وقد سقط صريعاً في

الميدان وهو في طليعة المهاجمين . إن اسماعيل الجرجاوى يامولاى عاش شجاعا ومات شجاعا !

فأمر ابراهيم بارسال الخبر إلى أمه في جرجا ...

فبكت المسكينة ابنها بعدما بكت زوجها . لكنها أسرعت إلى قبر القتيل في مدفن القرية ، ونصبت عليه شاهداً ، وذبحت ذبيحة اغترفت من دمائها وخضبت بها الشاهد ، ثم أقامت حول القبر مأتماً اشترك فيه أبناء العشيرة كبيرهم وصغيرهم

وكانت المرأة تتقبل منهم التعزية ، رافعة الرأس ، فخوراً بابنها ، الذى مات ولم يترك وراءه ثأراً مهملا ، وشرفاً مثلوماً ، وعاراً مقيما !



— ١٠ —

خرساء البادية

سأل ابراهيم باشا المصرى صديقه الامير بشيراً الشهابي :

— أتعرف هذا الشيخ العربي يابشير ؟

فأجاب الامير اللبنانى :

— أعرفه منذ أكثر من عشر سنوات . فهو الذى مدني بالرجال، ومهد لى سبيل الخلاص من أيدى الاعداء ، عندما كنت طريداً ، يضمر لى الاتراك الشر ، ويحاول عبد الله باشا ، حاكم عكاء ، القضاء علي. انه شهم شجاع مخلص أمين. ثم ان ماحدث بينه وبين الاتراك منذ سنتين من شأنه أن يجعلنا نعتمد عليه اعتمادنا على أنفسنا

— وما ذا حدث له ؟

— حادث محزن أيها الامير ، أفضل أن يقصه عليك بنفسه

— على به إذن !

***

دخل الشيخ « عزام الفايز » على ابراهيم باشا في مضربه ، وحياه تحية الند للند ، ثم أشار الى اتباعه القادمين وراءه بالانتظار ، فوقفوا خارج الباب وأنظارهم شاخصة الى زعيمهم

هو شيخ في الثمانين من العمر ، تحيط بوجهه لحية كثيفة ناصعة البياض ، وينفرج ثوبه عن صدر نما فيه الشعر نمو الاعشاب في واحات

البادية ، ولمعت تحت جبينه المقطب عينان براقتان كالجمر الاحمر ، يتقلد سيفه ، وفي عنقه عقد مصنوع من أنياب الضباع

رد عليه ابراهيم التحية وقال :

— أهلا بك ياأخا العرب . لقد حدثني عنك صديقي أمير لبنان . وما يقوله هذا الحليف الوفي لاشك في صدقه . قيل لى انك هبطت بعلبك مع خمسين من فرسانك ، ورغبت في الانضواء تحت لوائنا ، والسير مع جيشنا المظفر الى الامام، لمحاربة الاتراك واجلائهم عن هذه الديار . لكنك وضعت لذلك شرطاً يبدو لنا غريباً أول وهلة . فان جميع الزعماء الذين انضموا الينا ، قد تعهدوا لنا بتنفيذ الاوامر التي تصدر اليهم من مركز القيادة العامة ، فأي داع حملك على سلوك مسلك آخر ، والامتناع عن اعطاء العهد الذى اعطاه الآخرون ؟

حدق الشيخ البصر في محدثه، وقال بصوت لايزال محتفظاً بنبرات الفتوة والشباب :

— ان « عزام الفايز » يا ابراهيم لم يحد في حياته عن جادة الصدق والصواب . فاصغ الي . ثم احكم بيني وبينك بالعدل والانصاف . وبشير هذا — صديقي وصديقك — يشهد علينا !

— تكلم !

— كان « بنوفايز » يؤلفون عشيرة قوية من عشائر « عنزة » الضاربة في بادية الشام . وكنت اذا ما ناديت قومي بان يمتطوا الجياد الى غزو عدو ، اويشدوا الرحال الى ارض غير التى يضربون فيها اطنابهم ، أرى حولى حلقات متواصلة من الفرسان والهوادج والاطفال ، فأفاخر بالعشيرة مفاخرة آبائي بها ، وتزداد ثقتي بالايام المقبلة ، مادام « بنو فايز » فى استطاعتهم ان يدفعوا الى ساحات الوغى ثلاثة آلاف من المقاتلين المدججين بالسلاح .وقد شهد جنودك المصريون اعمال رجالى في الميادين ،

عندما كانت رحى الحرب دائرة بينكم وبين الوهابيين. وكنت في ذلك الوقت حليفاً لكم. لكن ذاكرتك ضعيفة أيها الامير، فقد نسيت ذلك أو تناسيته!

فانتفض ابراهيم، لكنه تمالك نفسه أمام هذه الصراحة التي لم يعهدها في كثير من الناس، وقال:

— ومن قال لك اننا نسيناك أيها الشيخ الشجاع؟ أتمم حديثك أولا، فانني مشتاق إلى معرفة ماحدث بعد ذلك

— حدث أن نشب خلاف بيننا وبين الدولة. فقد أرادوا ان يجمعوا منا الاموال والارزاق والنوق والجياد. فرفضنا اجابتهم إلى طلبهم، معتصمين بالتقاليد، واثقين من انفسنا، ونحن في الصحراء بعيدين عن مواطن الجند ومراكز الحكام. لكننا اخطأنا في التقدير. وفي ذات يوم، فاجأنا في ربوعنا جيش عظيم، يعاونه في الهجوم خصوم لنا من ابناء البادية. فدارت بيننا وبينهم معركة حامية، كان فيها الواحد منا يحارب خمسة منهم. وقد استبسلت نساؤنا في القتال استبسال الرجال فيه. ودافعنا جميعاً عن ارواحنا واموالنا وأرزاقنا ومواشينا، دفاعا تشهد به ارض الحي إلى الآن. فجثث القتلى لا تزال هياكلها مبعثرة في البيداء، يلعب بها اطفالنا ويلهون، لاننا نلقنهم منذ نعومة اظفارهم طلب الثأر الذي لا بد لهم من السعى اليه، والانتقام لابناء عشيرتهم، لآبائهم وأمهاتهم وأعمامهم وأخوالهم، الذين استشهدوا في ذلك اليوم العصيب المشئوم. لقد دارت الدائرة علينا، لان شجاعتنا لم تجدنا نفعاً امام تفوق المهاجمين بالعدد والعدد. لم يبق منا أيها الامير غير خمسين بين رجال ونساء! فقد قتلوا جميعاً، لكن البقية الباقية منهم لم ترحل عن الحى. بل ظللنا فيه مقيمين، بعد أن ابتعد العدو حاملا معه الخيام وسائقا أمامه المواشى. وكنت ساعة رحيل المغتصبين مصابا بجرح بليغ، رحت على أثره في غيبوبة

طويلة . وعندما عادت الي قواي ، وتمكنت من النهوض ، وجدت نفسى محاطاً بمن بقى من أبناء قومى وهم يبكون وينتحبون

خيل لابراهيم أن الشيخ يتألم لتلك الذكرى ، فقال له بلطف ورفق :

— كفى كفى ياعزام !

لكن البدوي أبى إلا الاستمرار في الحديث :

— دعني أتم قصتي أيها الامير. انك لم تطلع بعد على ماهو أشد هولا من هذا كله . قلت لك إن خمسين من أبناء العشيرة ظلوا على قيد الحياة. لكن لم أقل لك إن العدو كان قد مثل بهم تمثيلا شنيعاً : فهذا الرجل جدع أنفه ، وذلك الطفل قطعت ذراعه ، وهذه المرأة جزت شعورها ، وتلك الفتاة اقتلع لسانها ! . . نعم . لست مبالغاً أيها الامير ، فقد اقتلع الاعداء لسان ابنتي زينب من حلقها ، فأطلقنا عليها منذ ذلك الوقت اسم « خرساء البادية » . هذا ما حدث ، بل هذا بعض ماحدث . وقد اقسمنا جميعاً أن نعد للثأر عدته . وما زلنا منذ ذلك اليوم نعمل في هذا السبيل . لقد أحنت الايام ظهري ، وأثرت النوائب في أعصابي ، فألقيت مقاليد العشيرة بين يدى « خرساء البادية » ابنتى المحبوبة المعذبة . انها تفوق في شجاعتها أفرس فرسان العرب . ولو كانت جميع نسائنا مثلها لفضلت فينا النساء على الرجال !

— وأين هي ؟

— خارج المضرب أيها الامير ، مع العشيرة كلها. فقد قوضنا خيامنا ، وشخصنا اليك جميعاً ، الذكور والاناث والاطفال . لانبغى منك غير شيء واحد ، وهو أن تزودنا بالسلاح والذخيرة ، وتتركنا نحارب الاتراك كما نشاء وأين نشاء وحين نشاء . لاتربطنا بشروط وقوانين وأنظمة وأوامر . دعنا وشأننا . إني اعاهدك بان يقاتل أولئك المشوهون

لأ قطع منهم والاعرج، الاعمى منهم والاخرس، قتالا لم تعهده في أحد من المتطوعين والانصار. اقسم لك برفات شهدائنا، وبالثأر الذي أسعى اليه، ان اكون لك مخلصاً وفياً، اذ أن السبيل الوحيد الى الانتقام هو الانضواء تحت لوائك. انني اصارحك القول ايها الامير بأن حقدي هو الدافع الوحيد الذي يدفعني الى القتـال. ان الذي تراه امامك، يخطب ودك لا لانه يحبك، فأمرك لايهمه، بل لانك تحارب عدوه، وهو يسعى الى الانتقام من ذلك العدو. فاستغل حقدي هذا ايها الامير. لقد كان العربان يدعونني «صياد الضباع» لانني كنت اقتنصها اقتناصاً، واهاجمها في مغاورها، واخنقها بهاتين اليدين، ثم انتزع انيابها وأصوغها عقداً احلى به الآن عنقي كما ترى. فدع الشيخ عزام الفايز يستحيل اليوم صياداً للكماة في الميادين! وعندما اقضي لبانتي، واغسل العار بالدم، سوف اعود الى البادية، وانتظر حلول الاجل فرحا مرتاحاً!

فاجاب ابراهيم طلبه، وحقق امنيته

***

كانت اخبار عزام وخرساء البادية تنقل الى القائد المصري كل يوم. وكان ابراهيم يبدي ارتياحه الى اعمال «فرقة الخمسين» وبلائها في القتال. فان أولئك الابالسة المشوهين، كانوا في المعارك خير عون للجيش النظامي، بما يلحقونه بالعدو من اذى، في مناوشاتهم ومطارداتهم وغزواتهم، ومهاجمة القوافل الحاملة الى الاتراك المؤونة والارزاق والمياه

فقد اشتركت خرساء البادية وعصابتها في معارك الزراعة ودمشق وحمص وحلب وأنطاكية وبيلان وبياس، ولم تفقد من رجالهـا غير أربعة قتلوا في مضيق بيلان، حيث سقطت صخرة عليهم وهم يتسلقون الجبل، فسحقتهم كما تسحق الرحى حبوب الحنطة!

وبعد الانتصـار الباهر الذي أحرزه المصريون في تلك المعركة

المشهورة ، واصل ابراهيم السير الى طرسوس . وفي السابع والعشرين من يوليه (تموز) سنة ۱۸۳۲ دخل مدينة « أدنه » فاتحاً

وكان الجيش في حاجة الى الراحة بعد ذلك العناء الشديد . وكانت تلك المدينة الحد الاقصى الذى وضعه محمد علي باشا نصب عينيه

كان يريد أخشابا لمشروعاته الواسعة ، فتم له الاستيلاء على مناطق الغابات جميعها . وكان يريد أرضاً غنية بالمعادن فتم له ما أراد . أما الجيش التركى ، فقد تمزق شر ممزق ، وتشتتت فلوله في القفار والجبال ، واختفت آثار قائده العام ، ولم يبق أمام ابراهيم ما يحول دون مواصلة الزحف والاستيلاء على الاناضول

لكنه جعل التريث رائده ، وأرسل يزف البشرى الى أبيه عزيز مصر ، طالباً منه أن يزوده باوامره

واتخذ أدنه مركزاً للقيادة العامة ، وحشد جيشه في السهول والبطاح الممتدة حولها ، وأرسل كتائب من الفرسان لاحتلال المواقع الحصينة في داخلية البلاد ، فاستولت بلا قتال على «اورفا» و«مرعش» و«اركلى» وغيرها من المدن والقرى الممتازة من الوجهة الحربية

* * *

حل الشتاء . وكان الجيش المصري قد استراح واستعاد جنوده قوامهم المنهوكة . وصدرت الى ابراهيم إرادة أبيه بملاقاة الاعداء والزحف على الآستانة ، ما دام السلطان لم يخضع بعد لمشيئة تابعه محمد على ، وما دام الباب العالي لم يعترف بالأمر الواقع ، بل يحشد جيشاً لاعادة الكرة ، ومحاولة إخراج المصريين من سورية واطراف الاناضول

وبعد مناوشات ذات أهمية محدودة ، واحتلال مواقع رأى القائد المصرى وجوب احتلالها ، عقد ابراهيم مجلساً حربياً ، قر الرأى فيه على العمل ، بطريقة تجعل الجيش التركى القادم من قلب الاناضول ، يلتقي

بجيش ابراهيم في قونية ، حيث يتم القضاء عليه

وهكذا كان

فبعد أن هزم المصريون عساكر الدولة الذين حاولوا الوقوف في طريقهم ، بقيادة عثمان باشا ورءوف باشا وكريدلي أوغلو محمد باشا ، قام ابراهيم بحركات ومناورات جعلت القائد العام التركي - الصدر الاعظم رشيد باشا - يختار سهول قونية ميداناً للمعركة المقبلة الفاصلة

كان عدد الجيش المصرى لايزيد عن ثلاثين الف جندى بين فارس وراجل ، وكانت المدفعية لاتزيد عن ستة وثلاثين من مدافع الميدان

وحول الجيش كانت تحوم فرق الفرسان المتطوعين ، من البدو وابناء الجبال ، وبينهم خرساء البادية ورفاقها ورفيقاتها

وأقبل الصدر الاعظم بستين الف مقاتل ومدافع لاتحصى

* * *

٢٩ رجب ١٢٤٨ - ٢١ دسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢

كان الضباب كثيفاً ، فاستفاد ابراهيم من ذلك ، واتخذ من الضباب ستراً يحجب جيشه عن انظار العدو المقبل عليه ، ولبث ينتظر الصدر الاعظم وجحافله

زحف رشيد باشا طبقاً لخطة كان القواد الاتراك لا يحيدون عنها بالرغم من انكساراتهم المتوالية . فقد رتب الصدر الأعظم جيشه في قونية ، كما رتب سلفاؤه جيوشهم في الزراعة وحمص وبيلان

وجعلت مدافع الاتراك تقذف نيرانها على المصريين . لكن ابراهيم باشا لم يحرك ساكناً ، فغر هذا السكوت قائد العدو ، وأمر فرقتين من جيشه بالقيام بحركة التفاف حول الجيش المصرى

وترك ذلك ثغرة بين المشاة والخيالة . فاغتنم ابراهيم الفرصة ، وأطلق

جنوده في تلك الثغرة ، بينما كانت مدافعه تصب دفعة واحدة حمم براكينها على الاتراك

واشتبك الجيشان في قتال عام ، وتلبدت السماء بالغيوم والدخان ، وامر ابراهيم جنوده بالقضاء على العدو قضاء تاماً لاقيام بعده

ولم يخنه النصر ، بل خضع له صاغراً كما خضع له من قبل . وبعد ساعات معدودة من بدء الهجوم ، تضعضع الجيش التركي ، وبدت عليه بوادر الانسحاب

وفجأة ، علت في ارجاء الميدان صيحة هائلة ، صيحة دونها صراخ المحاربين ودوى المدافع ، واخذت الابصار فرساناً يعدون مسرعين هاتفين مهللين مكبرين ، قاصدين الى الربوة التي كان ابراهيم يشرف من فوقها على سير القتال

وطرقت اذنه هذه الكلمات ، متقطعة بين الصياح والتهليل :

— خرساء البادية ... فايز ... العربان ... الباشا !

وبعد دقائق كانت « فرقة الحسين » — وقد فتكت النيران بها فلم يبق فيها غير ثلاثين من الابطال — أمام ابراهيم !

وصاح الشيخ عزام الفايز :

— اليك الاسير أيها الامير فافعل به ماتشاء !

نظر ابراهيم إلى الاسير ، فاستولت عليه دهشة عظيمة !

ذلك الاسير الذي يقوده العربان اليه صاغراً ذليلا ، هوقائد الجيش التركي العام ، هو الصدر الاعظم رشيد باشا نفسه !

أرادأن ينتقل من ناحية إلى اخري ، في وسط المعركة ، فضل الطريق ووقع في كمين اقامه الشيخ عزام وابنته وعصابتهما ، وهم لايدرون مقام الاسير ، ولايعلمون غير انه قائد من قواد الاعداء ، ساقه سوء طالعه اليهم فقبضوا عليه

وانتشر الخبر بين الاتراك فولوا من الميدان مدبرين !

وأصدر ابراهيم أمره بمطاردة فلولهم ، فانطلق فرسانه يعملون السيوف والرماح في أقفية الفارين

وكان ذلك الانتصار أعظم انتصار أحرزه ابراهيم في تلك الحروب الطاحنة ، فقد قتل فيه من الاتراك ثلاثة آلاف ، ووقع منهم في الاسر عشرة آلاف ، واستولى المصريون على كميات هائلة من الذخائر والمؤن، واثنين وتسعين من المدافع

أما الجرحى ، فلم يحصرهم عدد لكثرتهم

وبلغت خسائر المصريين مائتين واثنين وستين قتيلا ، وخمسمائة وثلاثين جريحاً

ولو أراد ابراهيم ، بعد ذلك النصر المبين ، أن يهدم عرش آل عثمان لاستطاع ذلك . ولو رام الوصول إلى الآستانة لبلغها في بضعة أيام ، دون أن يقف في سبيله حائل !

لكن السياسة شاءت غير ذلك ، وللسياسة أحكام قاسية ، توقف زحف الجيوش بلا قتال ، وتعيد السيوف إلى الاغمدة بلا نضال !

* * *

وبعد انتهاء المعركة ، دعا ابراهيم باشا اليه الشيخ العربي وابنته ومن بقي معهما ، واثنى على ما أبدوه جميعاً من شجاعة واقدام . فقال عزام :

— لا إخالك تنكر أيها الأمير ، اننا كنا في الميادين ، من بعلبك إلى هنا ، أشبه بالابالسة وقد انطلقت من جحيمها ، تبغي الفتك بالناس والقبض على الارواح . ولا إخالك تنكر أيضاً انني بررت بالقسم ، وأن أبنائي هؤلاء كانوا عند حسن ظنك بهم ، وانهم خدموك في الوقت الذي سعوا فيه إلى ثأرهم وأدركوه . لقد ذبحنا من الاعداء

مئات، ومثلنا بهم كما مثل اخوانهم من قبل برجالنا ونسائنا. لكننا فقدنا عشرين من خيار أبنائنا ، سوف نبكيهم ونقيم لهم مأتماً في الصحراء

فقال ابراهيم :

— أقر بذلك كله يا أخا العرب . وأقر أيضاً بأنى شاهدت النساء في هذه البلاد يحاربن مع الرجال جنباً إلى جنب . لكنني لم أر في واحدة منهن ما رأيته في ابنتك «خرساء البادية» من قوة العزيمة وثبات الجأش والاستهتار بالموت .فيحق لك أن تفاخر بها ،ويحق لابناء الجزيرة ان يلقبوها بعد الآن بفارسة البادية !

فأجابه الشيخ :

— لاشيء يجعل الشجاع فخوراً بنفسه مثل اعتراف الابطال له بالشجاعة. واقرارك اليوم ايها الامير، انما هو شعار شرف ونبل ، يجعلني أسير بين الاقران رافع الجبهة شامخ الرأس

— وماذا تطلب الان أيها الشيخ، برهاناً منى على احترامى وتقديرى وإجلالى ؟

— أن تجعلنى في حل من عهدى . فقد تبعتك لغرض قضيته ، ولغاية وصلت اليها . فدعنى الآن أرجع مع هذه البقية الباقية من أبطال «بني فايز» الى الحى الذي تركناه قفراً ، والخيام التى طمرناها في رمال الصحراء

فمد ابراهيم يده الى الشيخ ، فصافحها عزام ، ثم طبع عليها قبلة حارة وقال :

— لقد ساعدتني على الانتقام من أعدائي ، فليرعك الله دائما بعين عنايته ، ويبدد أمامك الجيوش ، ويجعل سبيلك إلى النصر والعلى ممهداً دائما أبداً

وقبل أن يغادر البدوي مضرب الامير ، قال ابراهيم :

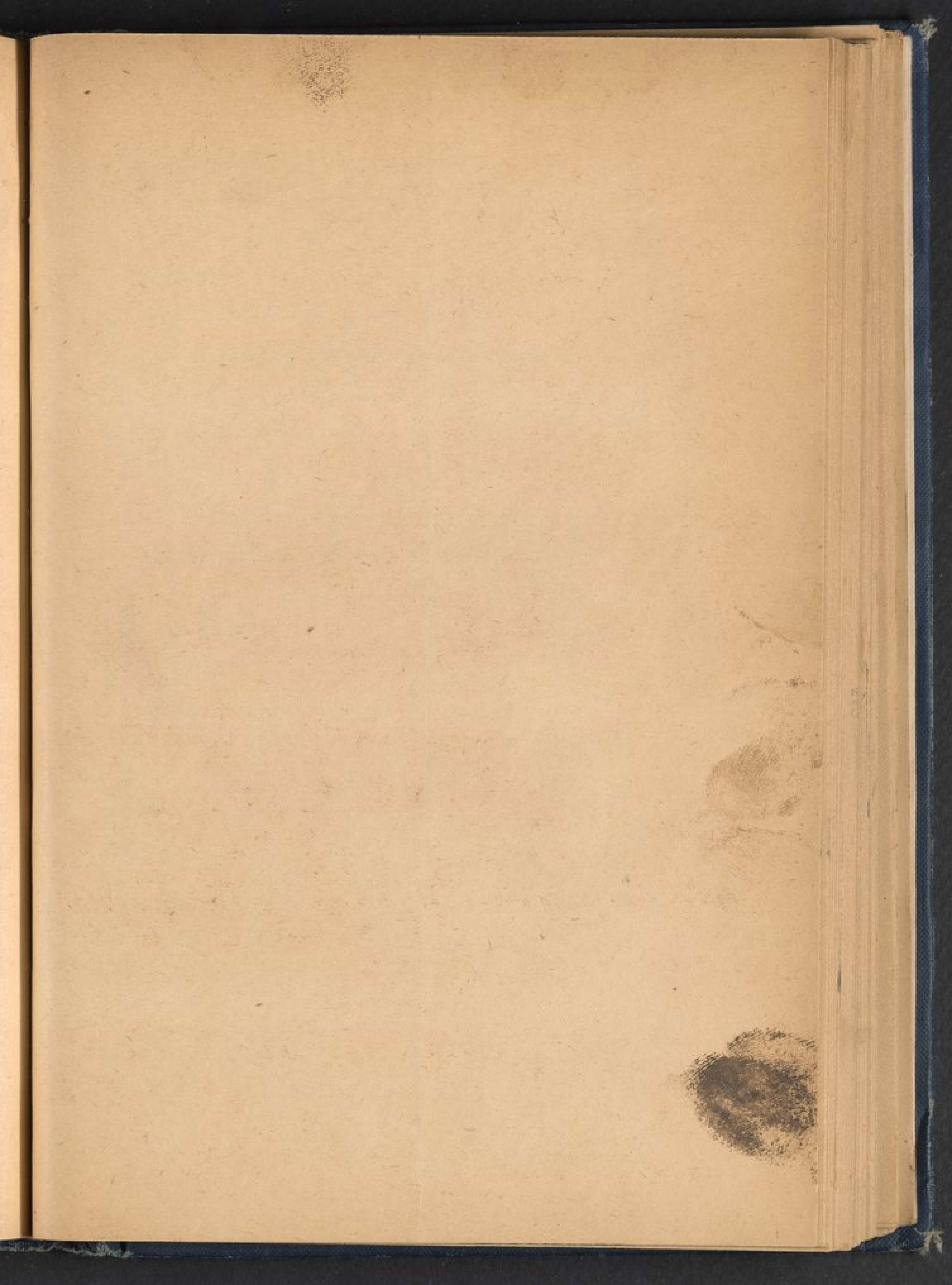
— أريد ان اودع ابنتك الوداع الاخير

فنادى عزام الفايز « خرساء البادية » وبقية الرفاق والرفيقات . فدخلوا جميعاً على ابراهيم، وأطال القائد المصري العظيم نظره في أولئك الابطال ، الذين لم يكن فيهم واحد غير مشوه ، والذين ألقوا الرعب في قلوب الاعداء والذعر في نفوسهم

ثم اقترب من الفتاة الشجاعة ، وضم رأسها بين يديه ، وقبلها بين عينيها، قبلة تنم على ما كان قلب ذلك القائد المحنك ، والجندي المغوار ، يكنه للابطال من محبة وإجلال

* * *

وعاد القوم الى حيهم ، وضربوا فيه أطنابهم من جديد ، وحلت عندهم منذ ذلك الوقت ، الافراح محل الاتراح !



- ١١ -

الشيخ والراهب

دهش الضابط المصري ، سليم بك، عندما جاءه الجندي الحارس ، وقال له إن شيخاً مسلماً وراهباً مسيحيا يطلبان بالحاح المثول بين يديه، وانهما قادمان من بعيد لهذا الغرض

كان ابراهيم باشا المصرى قدعهد الى سليم بك بقيادة الحامية المصرية الباقية في «انطاكية» وحذره كثيراً من الجواسيس الاتراك وانصارهم من أبناء البلاد. فكانت أول فكرة تبادرت الى ذهن الضابط ، انه أمام اثنين من أولئك الجواسيس ، متنكرين في زى رجال الدين

لكنه امر باحضارهما ، فدخلا عليه

هما رجلان في العقد الثامن من العمر . احدهما معمم والثانى حاسر الرأس، كثيف الشعر، تتدلى على كتفيه جدائل بيضاء، وتنبسط على صدره لحية طويلة تزيده هيبة ووقاراً. اما الشيخ المعمم ، فلحيته صغيرة لكنها كانت ناصعة البياض . والاثنان يرتديان ثوبين متشابهين ، يميل لونهما الى لون الصخور البركانية القاتمة ، التي تتكون منها المرتفعات المحيطة بالمدينة

— من انتما وماذا تريدان ؟

القى الضابط على الرجلين هذا السؤال ، رغبة منه في معرفة الداعى الى تلك الزيارة الغريبة . لكن الشيخين لم يردا على سؤاله ، بل تبادلا نظرة ، وقال احدهما للآخر :

١٠ — لا أرى في هذه الحجرة غير مقعد واحد . فاجلس عليه يالويس . انك تعب اكثر مني !

فأجابه الآخر :

— لا . بل اجلس انت يا اسماعيل . انك اكبر مني سناً ، ولم يسبق لي ان جلست في مكان وتركتك امامي واقفاً . اجلس

ظن سليم بك انه امام اثنين من المجانين ، وانه سيرى مشهداً مضحكا. فأشار اليهما قائلا :

— انني اترك لكما هذا « الديوان » الذي اجلس عليه ، وهو يكفي لجلوس شخصين

فاتجه الشيخ والراهب إلى الديوان وتربعا عليه. ثم التفت احدهما الى الضابط وقال :

— اجلس الآن ايها الضابط . واصغ الينا

اطاع سليم بك وهو يبتسم ، وسأل الزائرين :

— هل لكما الآن ، وقد اعتبرتما نفسيكما السيدين الآمرين هنا ، ان تتكلما وتفضيا الي بما جاء بكما الى هنا ؟

فقال الشيخ لرفيقه :

— تكلم انت يا لويس

وأجابه الراهب :

— كلا . لم أسمح لنفسي منذ ثلاثين سنة ان أخاطب أحداً في حضرتك يا اسماعيل . انك اكبر مني سناً ، وللسن علينا جميعاً واجب الاحترام

فقال اسماعيل للضابط :

— اعلم يابني أننا لم نتجشم متاعب السير على اقدامنا ساعات طويلة ، لكي نحظى برؤيتك أنت فحسب ! كلا . انما جئنا اليك لشأن

آخر ، وهوان نطلب منك القيام بمهمة يتعذر علينا القيام بها. فقد علمنا أن الامير ابراهيم بن محمد على باشا المصرى ، دحر جيوش الاتراك في « قونية » وأن السلطان عرض عليه صلحاً رضى به عزيز مصر . فابراهيم اذن سيعود ادراجه ، ويمر بهذه المدينة في طريقه الى دمشق ولبنان . فنريد أن نراه، لاننا نرغب في أن نفضى اليه بسر لانستطيع اطلاع أحد سواه عليه . فهل تتعهد لنا بحمل رغبتنا هذه اليه ؟

— لكنني لا أعرفكما ، ولا أعلم من أمركما شيئاً

— اسمع يابنى . إننى أدعى اسماعيل . وهذا الراهب يدعى لويس. هو فرنسى وأنا مصرى . لقد اجتزنا الثمانين من العمر ، ونشعر باننا نقترب من اللحد يوما بعد يوم . إننا نقيم في صومعة في « الجبل الاقرع » على مسافة قصيرة من « أنطاكية » هذه ، منذ أكثر من ثلاثين سنة . هذا مانطلعك عليه اليوم . وإذا أردت معرفة شيء آخر ، فسيكون لك ذلك عند ماترشدنا إلى ابراهيم باشا، وتمهد لنا سبيل الاجتماع به. عم مساء يابني !

وانصرف الشيخان ، وتركا الضابط المصرى حائراً ، متسائلا : « أيكون هذان الشخصان جاسوسين، أم معتوهين ، ام صديقين عاقلين؟ »

***

كان الجيش المصري فى ذلك الوقت يطارد فلول الاتراك في الاناضول، بعد موقعة « قونية » الفاصلة . وكان سكان المدن يفتحون لابراهيم الابواب والصدور ، لانهم كانوا ناقمين على السلطان وحكامه ، منتظرين قدوم الفاتحين

وبينما ابراهيم باشا يبسط سلطان ابيه على تلك الربوع، فى انتظار اوامر جديدة ، كانت الدول الاوربية تتشاور وتتداول ، وكان رجالها يعقدون المؤتمرات ، وقد بعثت انتصارات ابراهيم الرهبة والخوف في نفوسهم

رأت روسيا ان قيام دولة فتية قوية على ضفاف البوسفور ، يقضي على الحلم اللذيذ الذي كان القياصرة يعللون انفسهم به ، وهو ان يرثوا السلطان وملكه ، بعد موت السلطان واضمحلال ملكه !

ورأت انجلترا أن فوز المصريين واحتلالهم الاستانة ، يؤديان إلى تدخل روسيا ومزاحمتها في ذلك الميراث المنتظر، ويقيم من جهة أخرى عقبة في « طريق الهند ! »

وللمرة الاولى في التاريخ ، عقدت محالفة بين دولتين لاسبيل للتوفيق بين مصالحهما

وللمرة الاولى، كانت العداوة والمزاحمة سبباً لاتفاق خصمين عنيدين ، يطمعان في فريسة واحدة - على خصم ثالث يتحفز للوثوب على تلك الفريسة !

ودارت المخابرات والمفاوضات والمساومات ، بين أقطاب السياسة الانجليز والروس والفرنسيين والاتراك والمصريين . وصدر أمر محمد على إلى ابنه ابراهيم بانتظار النتيجة، ووقف رحى القتال، والامتناع عن السير الى الآستانة

وربض الاسد في « كوتاهية » يرقب ما يجيء به الغد !

***

٢٤ ذو الحجة سنة ١٢٤٨ — ١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣

عهد السلطان محمود الثانى إلى سفير فرنسا ، البارون روسان ، بتوقيع المعاهدة باسمه

وعهد محمد على باشا إلى ابنه ابراهيم بما عهد به السلطان إلى السفير

ووقعت معاهدة « كوتاهية » التى سجلت لمصر انتصارها ، وأعطت ابراهيم ثمرة ذلك الانتصار

تنازل السلطان لمحمد على باشا عن مصر وسورية وأدنه وجزيرة

كريت ، ولابراهيم عن ولاية جدة وعن لقب « شيخ الحرم المكي »

وأصدر محمد على لابنه براءة بتعيينه حاكما على الاقطار التى انتزعها من السلطان بحد السيف ، مع احتفاظه بقيادة الجيش العامة

وبعد أن أمن الفاتح حدود الامارة الجديدة ، أمر بانسحاب الجنود وعودتهم إلى المدن السورية والجبال اللبنانية . فتولت هيئة أركان الحرب توزيع ذلك الجيش المؤلف من خمسة وثمانين الف مقاتل في أنحاء تلك البلاد

وقرر ابراهيم اتخاذ « انطاكية » مقراً للقيادة العامة . وجعل يفكر في الشؤون الادارية ، بعد أن كلل النجاح أعماله في الشؤون الحربية

* * *

صدر الامر الى سليم بك بالانتقال الى طرابلس ، لتسلم قيادة الحامية المصرية في ذلك الميناء الهام ، بعد أن أصبحت « انطاكية » مركزاً للقائد العام وأركان حربه . فاستعد للرحيل ، ورفع الى رئيسه تقريراً عن أعماله ، وعن الحوادث التى وقعت في المدة التى كان مشرفا فيها على شؤون المدينة

وتذكر زيارة الشيخ والراهب ، والرغبة التى أفضيا بها اليه ، وتعهده بأن يرفع أمرهما الى ابراهيم باشا بعد عودته من الاناضول

كان لكل حادث ـ جليل أوتافه ـ أهمية نسبية في نظر ابراهيم . وكان ذلك القائد المقدام والادارى الحازم والسياسي الماهر ، يعالج بنفسه جميع الامور ، كبيرها وصغيرها . فأثارت فيه قصة الشيخين رغبة شديدة في الوقوف على سرها ، وأوفد في الحال كوكبة من الفرسان ، بقيادة سليم بك ، إلى « الجبل الاقرع » للبحث عن الصومعة ، والعثور على الغريبين ، والمجيء بهما الى انطاكية

ذهب سليم بك مع فرسانه قبل الفجر ، وعاد الى المدينة في المساء ، وأطلع القائد العام على نتيجة رحلته

رفض الشيخان الخروج من الصومعة ، وطلبا اليه بالحاح أن يجيء ابراهيم بنفسه اليهما ، لانهما لايقويان على السير على أقدامهما :

— لقد تبين لي يامولاى انهما صادقان ، وخيل الي أن ملك الموت يرفرف عليهما ، وأنهما لن يظلا على قيد الحياة أسبوعا كاملا

زاد ذلك في رغبة ابراهيم وضاعف دهشته ، فأسرع في صبيحة اليوم التالى شاخصاً الى الجبل

كان الشيخان يقيمان في مغارة كستها أيديهما بالاعشاب ، وسدت منافذها بالاغصان ، وقد استلقى الاثنان في ناحية منها ، على فراش من أوراق الشجر اليابسة

بادرهما ابراهيم بالسلام ، فردا عليه التحية بأحسن منها . وحاولا النهوض لكنهما لم يقويا على ذلك . فجلس ابراهيم على الارض بجانبهما ، وجعل يلاطفهما بالحديث ، ويطلب منهما أن يميطا اللثام عن سر وجودهما في ذلك المكان

فخاطبه الشيخ اسماعيل بصوت ضعيف ، كان يصعده صدر نخرت الايام ضلوعه ، وقطعت أوصاله ، وجففت عروقه ، قال :

— انني احيي فيك أيها الأمير ، رافع اللواء المصري خفاقا في ميادين القتال ، وابن المنقذ الذي أعاد الامن والسلام إلى ربوع وطني ، محمد علي باشا !

فقاطعه ابراهيم سائلا :

— أمصري أنت ؟

— نعم . أنا اسماعيل الدمياطى ، ابن الشيخ عمر الدمياطي ، من العلماء الذين حلت بهم نقمة المماليك . لقد زج أبي في غياهب السجون ، ثم قتل بأمر من « مراد بك » لذنب لم يقترفه ، فخفت على حياتى ، ورحلت عن دمياط مسقط رأسى ، وأقمت في الصحراء وحيداً

— وهذا الراهب ؟

— هو الاب «لويس دى ماسينيون» من رجال الدين الفرنسيين . ان حياته سر من الاسرار الرهيبة . فقد هجر وطنه ، وجاء مصر مع جنود «بونابرت.» لكنه ترك الجيش وشأنه ، وراح يطلب الطمأنينة في الصحراء مثلي. وهناك التقينا ، في مكان طابت لنا الاقامة فيه ، بعيدين عن الناس وشرورهم . وكانت الاخبار تصل الينا من المسافرين ، فعلمنا أن الجيش الفرنسي قد دحر المماليك واستولى على البلاد . ثم علمنا ان الفرنسيين قد رحلوا عن مصر . وبلغتنا انباء أبيك واستفحال العداوة بينه وبين الولاة الاتراك . وفي ذات يوم، اردنا ان نشاهد النيل في مجراه ، فخرجنا من عزلتنا وتوغلنا في الحقول

« كانت جنود ابيك في ذلك الوقت مرابطة في طريق الاسكندرية، للفتك بمندوب السلطان ، الوالى «على الجزائرلى باشا »

— لقد فتكوا به قبل وصوله الى القاهرة

— نعم . وذبحوا حاشيته ورجاله ذبح الانعام ، وقادوه أسيراً الى المحروسة ، واستولوا على ما كان يحمله من تحف وأموال . لكن ضابطاً من أخصائه تمكن من الهرب ، ومعه كنز ثمين لا يقدر بمال

— أى كنز هذا ؟

— صندوق صغير فيه من الجواهر والحجارة الكريمة مايبهر الابصار . وقد مات ذلك الجندى فى طريقه ، متأثراً بجراحه ، وترك بجانبه ذلك الصندوق الثمين ، الذى وقع بين أيدينا دون أن نسعى الى الحصول عليه. فأخذناه وعدنا الى عزلتنا. لكننا عزمنا على الرحيل عن مصر ، لاننا مللنا البقاء في بلاد يتكالب الحكام على الاستئثار بالسلطة فيها . نعم ، رحلنا عن مصر لاننا كنا نبتغى الراحة ومصر لاراحة فيها . وعولنا على الاقامة في بلاد لا حرب فيها ولا قتال ولا دماء . كان في

استطاعتنا أن نصبح أغنياء وأن نشيد القصور . لكننا كنا نبحث عن شيء آخر غير المال والغنى وفاخر الرياش . كنا نبحث عن الراحة فقط ، عن الراحة دون سواها ، عن الراحة التى كانت نفسنا متعطشة اليها . فرحلنا ، وقطعنا المسافات الشاسعة ، واجتزنا صحراء التيه فخرجنا منها سالمين . وظللنا نطوي البيد والقفار ، ونصعد جبلا ونهبط وهدة ، حتى وصلنا الى هذا المكان الذى كان النساك والرهبان يتخذونه من قبل مقراً لهم . فمكثنا فيه ، وما زلنا فى هذه الصومعة منذ ثلاثين سنة . جئنا فى سن الكهولة ، وها قد أدركتنا الشيخوخة كما ترى . أما الكنز الذى قذفته الاقدار بين أيدينا ، فقد حملناه معنا ، واحتفظنا به ، وأقسمنا أن نعيده الى الرجل الذى ينقذ مصر من براثن الفوضى وويلات الحروب الاهلية

— وهل وجدتم ذلك المنقذ ؟

— نعم . لقد فعل أبوك محمد على باشا ما لم يفعله سواه من الطامعين بمصر . وأحييت أنت في الاذهان ذكرى الفاتحين من أبناء مصر في العصور الغابرة . فاذا كانت بلادى اليوم تستقبل عهداً جديداً ، عهد راحة ومجد وسؤدد ، فاليكما يعود الفضل كل الفضل فى ذلك . ومن أحق منكما اذن بالاستيلاء على الكنز الذى احتفظنا به الى اليوم ؟ فخذه يامولاى . إنه لك . أما نحن فاننا نحس بالموت يتمشى رويداً رويداً في عروقنا . وقد طلبنا من الله ، الذى قضينا ثلاثين سنة نبتهل اليه هنا بأن ينقذ مصر من الفساد ، أن يجعلنا نرحل عن هذا العالم معاً ، وفى يوم واحد ، كما رحلنا عن مصر معاً وفي يوم واحد . وانه يستجيب دعاءنا

سكت الشيخ لحظة ، فرفع الراهب رأسه ، وقال متمتماً :

— نعم . بعد ساعة ستنطلق النفس من غلافها الجسدي ، وتصعد الى الخالق القدير !

وأشار الشيخ الى ناحية من المغارة وقال :

— ارفع يامولاي هذه الصخرة ، وادفعها الى اليمين ، وخذ ماتجده وراءها

فنهض ابراهيم إلى الصخرة التى أشار اليها الشيخ ، ودفعها بيده ، فوجد وراءها صندوقا حديديا علاه الصدأ

قال الشيخ :

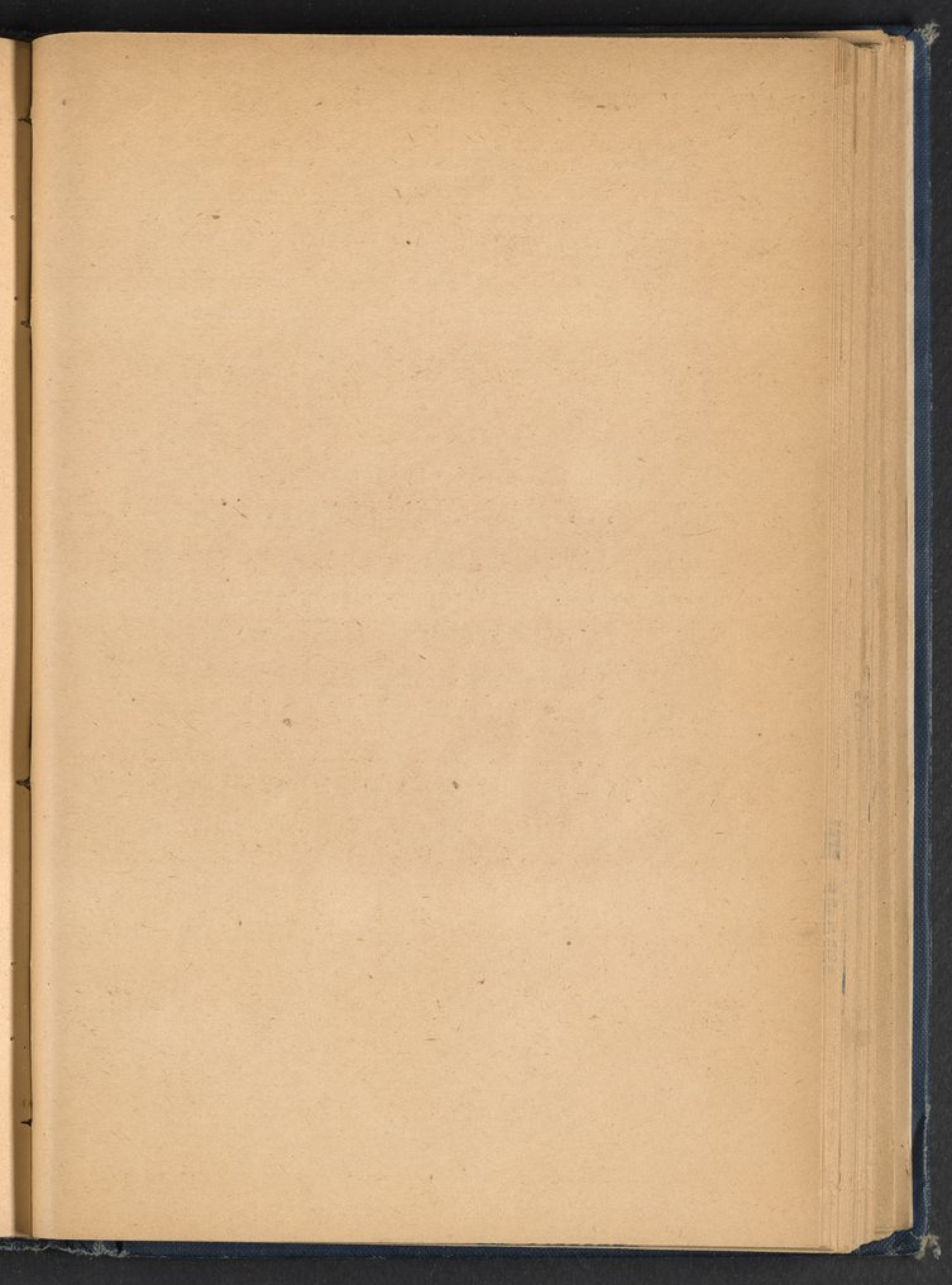
— لاتفتح هذا الصندوق هنا يا مولاى . خذه معك إلى مقرك في المدينة ، واصنع به هناك ما تشاء

***

فتح ابراهيم الصندوق ، فوجد فيه من اللآلىء والجواهر والحلي مالا يقدر بثمن . وكان جماعة من التجار اليهود يجوبون البلاد في ذلك الوقت ، وراء صفقة رابحة أومساومة مفيدة ، فأرسل ابراهيم في طلبهم ، ودفع اليهم ذلك الكنز الغالى ، مقابل مبلغ طائل من المال ، أنفقه على الجرحى والمشوهين والمعوزين من أهل الجنود القتلى

أما الشيخ اسماعيل والراهب لويس ، فقد قضيا نحبهما في تلك الصومعة المنعزلة ، ودفنا على شاطىء « بحيرة انطاكية » تنفيذاً لارادتهما الاخيرة

هناك يرقد الناسكان ، اللذان عاشا مدة ثلاثين سنة فى زهد وتقشف ، بجانب ثروة طائلة لم تمتد اليها أيديهما ، عملا بالعهد الذي قطعاه على نفسيهما



- ١٢ -

الاب والابن

ألقى النصر قياده لابراهيم في «بيلان» فسكر جنوده بنشوة الفوز ، وتقدم اليه الضباط طالبين بالحاح استئناف الزحف إلى الأمام ، للقضاء نهائياً على فلول الجيوش العثمانية المعترضة ، والوثوب على المضايق ، ورفع العلم المصرى على قلاع البوسفور

لكن ابراهيم الحكيم المحنك ، أبى الاذعان لرغبة مساعديه ، وقال إن التريث أفضل من التسرع في الحروب والغزوات

فتحت الاسكندرونة أبوابها على أثر معركة «بيلان» فدخلها المصريون ، واحتلوا بعدها انطاكية واللاذقية والسويدية . ودخلوا طرسوس فادنة في ٢٧ يوليه (تموز) سنة ١٨٣٢ . وأرسل ابراهيم إلى السلطان يقول إن أباه محمد على باشا يرغب في وضع حد للقتال ، وعقد صلح يجاب فيه المصريون وحلفاؤهم إلى شروطهم ومطالبهم

لكن السلطان رفض الدخول في مفاوضة ، وأبى الا ان يهزم ذلك التابع الذى هزم جيوشه في الميادين !

فسير ابراهيم طلائع جيشه الى الامام ، للقاء طلائع العثمانيين من جديد ، ووقعت مناوشات كان الفوز فيها حليف المصريين ، ووضع ابراهيم نصب عينيه الاستيلاء على «قونية» التى علم ان الاتراك أخلوها ، استعداداً لمعركة جديدة ، أعدوا لها العدة على مقربة من المدينة ، في السهول المحيطة بها

وكانت الجحافل المصرية تجد في السير نحو « قونية » للقاء الجيش التركي، الذي جرده السلطان وسيره بقيادة وزيره الاكبر رشيد باشا ، لصد « العصاة » وتأديب « الثائرين » وطرد ابراهيم من الاقطار التي فتحها بحد السيف ، وانقاذ عاصمة العثمانيين من الغزاة المنتصرين

وما كان ابراهيم باشا ليعبأ بذلك الجيش، لانه كان واثقاً من فوزه في الغد وثوقه من فوزه بالأمس

ظل سائراً ، يحدوه الامل ، مندفعاً نحو المجد اندفاع النهر نحو مصبه . وحوله القواد والزعماء ، يتبادل معهم الرأي والمشورة في الخطة المثلى للقضاء على العدو ، ومهاجمة المضايق والبواغيز ، والاستيلاء على الآستانة، وإقامة عرش جديد فيها بعد ما أقام أبوه محمد على باشا عرشاً جديداً في القاهرة

وقف الجيش على مقربة من المدينة التاريخية ، لكي يأخذ الجند قسطاً من الراحة . ودعا ابراهيم قواده ورؤساء العشائر المنضمين اليه وزعماء المتطوعين الذين التحقوا به من سورية ولبنان وبلاد عكار وبادية الشام ، وحدد لهم موعداً للاجتماع في مضربه ، في ساعة معينة من الليل

١٨ دسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢

حضروا جميعاً في الموعد المحدد . وجعل كل منهم يدلي برأيه، فيصغى اليه ابراهيم ويدون أقوال الواحد بعد الآخر

ثم جاء دور الامير في الكلام، فكاشفهم بالخطة التى رسمها، والتعديلات التي يرى وجوب إدخالها عليها ، بعد سماع أقوال أنصاره ومريديه . وأبلغهم خبراً حمله اليه الكشافة قبل غروب الشمس ، وهو أن طلائع الأتراك قد بدت مقبلة على قونية ، وأن الموقعة الفاصلة ستضطرم نيرانها بعد أيام

وانصرف الجميع والأمل يملأ أفئدتهم ، والثقة بالنصر تضاعف عزائمهم

وجعل كل منهم يعد عدته للقتال

***

كان بينهم شيخ عربى يدعى نصار الاحدب ، جاء من أطراف البادية على رأس كوكبة من الفرسان الاشاوس ، للاعراب عما يخالج صدره من حب للقائد المصرى ، ومن رغبة في شد أزره والسير معه جنباً إلى جنب ، في طريق المجد والفخار

فقبل ابراهيم فى ذلك الوقت ماعرضه عليه نصار ، وأجابه إلى رغبته. فالتحق الرجل وفرسانه بالجيش الزاحف ، وأبدى من ضروب الفروسية والشجاعة ما أدهش الامير وأثار إعجابه . فصار يعده من أنصاره الاخصاء ، ويستشيره ويعمل برأيه في كثير من الأمور المتعلقة بزحف الجيش في السهول ومطاردة العدو في الصحراء بواسطة العربان الذين كثر عددهم بين الجنود المصريين

وكان نصار مخلصاً للامير ، أميناً له ، محبوبا من الجميع ، معززاً مكرما من الضباط والجنود على السواء

لكنه كان يحمل بين جنبيه سراً مؤلماً لم يبح به لأحد

كان ابنه الاكبر مصطفى من أنصار الاتراك وصنائعهم ، وضع نفسه تحت تصرفهم ورهن اشارتهم ، لا عن عقيدة بل بدافع المنفعة ، ونصب نفسه جاسوساً لهم على أعدائهم ، لا عملا بوحى الضمير بل حبا بالدرهم وسعياً وراء المال

وهكذا خالف الشاب إرادة أبيه وخرج على عشيرته . فكان الواحد يحارب الآخر : الأب فى صفوف المصريين وحلفائهم ، والابن في صفوف الاتراك . والحروب حافلة بامثال تلك المواقف الشاذة المؤلمة

***

١٩ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٣٢

نادى ابراهيم قواده وزعماء جيشه مرة أخرى ، ودعاهم للاجتماع في مضربه . ولما اكتمل عقدهم خاطبهم قائلا :

— جاءني الحراس أمس بشاب غريب عن الجيش ، كان يطوف في المعسكر ، وجميع الظواهر تدل على أنه جاسوس للاعداء . لكنني لست واثقاً من ذلك . وقد دعوتكم لاخذ رأيكم في الامر قبل الفصل فيه .»

قال هذا ونادى الحارس وأمره باحضار الشاب ، فجيء به مكبلا بالحديد

وقع عليه نظر نصار فعرفه

هو ابنه مصطفى ، ابنه الجاسوس الخائن ، الخارج على الاسرة والعشيرة . ابنه الذي باع ضميره ببيع السلع ، وآثر الدرهم على الواجب

عرف الأب ابنه . لكنه ظل صامتاً لا يبدى حراكا . ولم يدع شعور الغضب والاشمئزاز الذى كان يخالج صدره يظهر على وجهه ، فيخونه ويمزق النقاب عن حقيقة أمره

ألقى الأمير على الشاب أسئلة عديدة ، لم يتمكن من الاجابة عليها بوضوح وجلاء ، بل اضطرب وتلعثم ، وجعل ينظر حواليه قلقاً حائراً كالذئب اكتنفه الصيادون من كل صوب

وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يثبت على الشاب تهمة معينة . فاعتقد الجميع أنه غريب عن تلك الديار . دفعه حب الاستطلاع فقط إلي تعدي خطوط الجيش ، وأن ارتباكه وحيرته انما مبعثهما الخوف من عاقبة عمله ، لا الذعر من اكتشاف ذنبه ، لانهم لم يثبتوا عليه ذنباً

ثم إن الشاب كان اكثر منهم دهاءومكراً ، فتظاهر بالغباوة والبله ، وذلك ما جعل اعتقاد القوم ببراءته يرسخ في أذهانهم . فنهض أحدهم وخاطب الأمير قائلا :

— مولاي . لاأظن هذا الشاب أهلا لاهتمامنا . ويلوح لي أنه مصاب بضعف في قواه العقلية . فلندعه ينصرف ويذهب إلى حيث يشاء . ولا أعتقد أن عمل جاسوس حقير — إذا فرضنا أن هذا الرجل جاسوس — يؤثر فينا أو يحول بين جيشنا وبين النصر !

فاستصوب الحاضرون هذا القول ووافقوا عليه . وكاد ابراهيم يأمر باطلاق سراح المتهم ، وإذا بجندى يقف بالباب مستأذنا بالدخول أذن له الأمير فدخل . وسأله ابراهيم :

— ما وراءك ؟

اعتدل الجندى فى وقفته . وأدى التحية العسكرية وأجاب :

— مولاي . عثرنا على جثة حارس من حراس الليل مطروحة وراء صخرة في أطراف المعسكر . وقد مات الجندي بضربة خنجر في ظهره !

فانتفض ابراهيم وصاح:

— والقاتل ؟

— لم نعرف عنه شيئاً ولم نعثر على دليل يدلنا عليه .فقد ذهب تعبنا في البحث سدى

سكت ابراهيم . وعم الصمت المكان ، وأطرق الأمير مفكراً ثم التفت الى الجندي وقال :

— انصرف . وضاعفوا الحراس في جميع الجهات . سأنظر فى هذا الأمر بنفسي

خرج الجندى من حضرة القائد . وبعد سكوت قصير ، خاطب ابراهيم الحاضرين سائلا :

— لقد كثرت حوادث الاعتداء على الحراس في الأيام الأخيرة . فما رأيكم في ذلك ؟ وهل نطلق سراح هذا الشاب بعد ما وقع ؟

تبادل القوم النظرات . ولم يدركوا مراد الامير من هذا القول .

ثم نهض أحدهم ـ وهو الذى أشار من قبل بالافراج عن الشاب المتهم ـ واستأذن بالـكلام :

ــ عفواً يامولاي. أية علاقة بين الحادث الذي رواه ذلك الجندي ، وبين هذا الشاب والتهمة التي وجهت اليه والشكوى التى حامت حواليه؟ انى مازلت على رأيي الأول ، وهو أن نطلق سراح هذا المسكين الابله الذى ليس في مقدوره أن يمسنا بأذى

فاستصوب الجميع هذا الـكلام مرة أخرى ووافقوا عليه

لـكن نصاراً نهض من مجلسه واستأذن وقال :

ــ مولاى . ظللت صامتاً لاأبدى رأيا ولا أفوه بكلمة . لـكننى أرى أنـكم تركبون متن الخطأ ، وتقدمون على عمل سوف تعضون غداً اصابعـكم ندما عليه. لاتطلقوا سراح هـذا الشاب فانه مجرم يستحق العقاب !

دهش القوم لهذا الـكلام. واستولى على مصطفى اضطراب شديد . لانه عرف أباه وأيقن انه هالك لا محالة

قال ابراهيم :

ــ افصح يانصار . انك تتهم رجلا لاتعرفه ، ولم نستطع ان نثبت تهمة عليه. فاذا كنت مطلعاً على دخائل أمره، وتعرف مانجهل، ينبغي أن تمزق النقاب عن هذا السر وتفضى الينا بما تعلم

فأجاب نصار بصوت متهدج ولهجة ثابتة بالرغم من ذلك :

ــ أعرف هذا الشاب يا مولاي ، وهو يعرفنى ، ومن أجدر منى بمعرفته وهو ابنى !

نظر اليه الحاضرون ذاهلين باهتين، وصاح به ابراهيم :

ــ ماذا تقول يانصار ؟

فمسح الأب المسكين بطرف كمه دمعة نفرت من جفنه بالرغم منه ، وأجاب :

— أقول يامولاي إن هذا الشاب الماثل أمامكم هو ولدي مصطفى، الذي يحارب في صفوف الاعداء ،والذي يحترف الان مهنة خسيسة دنيئة. لقد هجر قبيلته ، وباع ضميره وتقاضى ثمنه فضة وذهباً .انني اتهمه أمامكم بالخسة والنذالة والجبن . وأرغب اليكم أن تنزلوا به العقاب الذى يستحقه ،والذى تنص عليه قوانين الحرب . فهوجاسوس الاعداء علينا . والجاسوس الذي يقبض عليه يعدم في الحال . هذا مايقضي علي الواجب بقوله . وقد قلته يا مولاى !

فسكت ابراهيم وقد هاله هذا الموقف . ثم التفت إلى الشاب وقال:

— ألا تدافع عن نفسك يا مصطفى ؟

فأجابه الجاسوس :

— لا أدافع عن نفسي لان أبي يتهمني وهو المدعى علي ، والابن لايقف أمام أبيه مدافعاً عن نفسه . أفعلوا بي ماشئتم . ولا يداخلنكم ريب في أمري . لقد صدق أبي : نعم ، تجسست عليكم ، ولو قدر لي الفرار من بين أيديكم ،لما ترددت لحظة في العودة إلى من أرسلني،لاطلعه على ما وقفت عليه في رحلتي . أقتلوني اذا أردتم . ان الموت بيد الجلاد أقل شرفاً من السقوط في الميدان .لكنني اتقبل الموت فرحا ، فقد قمت بواجبي في ميدان العمل الذى اخترته لنفسى ، فقوموا أنتم بواجبكم كما تحتمه عليكم قوانينكم العسكرية !

حار ابراهيم في أمره . ورأى نفسه في موقف حرج بين الابن والأب ، وكل منهما يطلب العقاب . فالتفت الى نصار وقال :

— أرغب اليك يا أخي أن تكون شفوقا رحيما . وأن تبقى على حياة ولدك . فقد عفوت عنه . ولا أطلب منه الا شيئاً واحداً ،وهو أن يظل أسيراً في معسكرنا الى مابعد انتهاء المعارك ،فنطلق سراحه حينذاك، ويعود الى قبيلته حراً طليقاً . أما اذا أردتم أن تعاقبوه ، فليكن ذلك في

مضارب قبيلتكم وبقرار من رؤساء عشائركم

فنهض نصار والشرر يتطاير من عينيه ، ووضع يده على قبضة سيفه وصاح :

— عفوك مولاى . ان من يخاطبك الآن ليس الزعيم المرءوس ، بل أمير قبيلة عربية ، لم تقدم قط على عمل معيب ، ولم تحد قيد شعرة عن قواعد الشرف والتقاليد الموروثة ، ورب أسرة بدوية لم يلطخ أحد من أفرادها سمعة ذويه بنقيصة أوخيانة . أتطلب مني يامولاى ان أسكت على فعلة شنعاء كهذه ؟ إن الماثل أمامكم الآن جاسوس أرسله العدو للايقاع بكم . فاذا كنتم جميعاً تشفقون عليه اكراما لى ، فشفقتكم في غير محلها ، واكرامكم اهانة . دعونى على الاقل أقتص منه بيدى ، وأنزل به العقاب الذى تترددون في الحكم به عليه ، اذا كنت يا مولاى ترباً بسيافك أن يقطع رأس هذا الجبان لانه ابن قائد من قوادك ، فدعني اذن أقم مقام ذلك السياف ، وأقطع بيدي رأس هذا الابن العاق ، الذى لم يعد أهلا للدخول في حظيرة أسرته ، والتربع في مضارب عشيرته !

واستل نصار سيفه وهم بالانقضاض على ابنه . فوقفه ابراهيم باشارة منه ، وهومضطرب قلق ، لايدري أي قرار يتخذ . ثم التفت الى مصطفى قائلا :

— وفر علينا يا مصطفى مؤونة هذا المشهد الهائل . لا تدع أباك يرتكب على مرأي منا فعلة فظيعة كهذه . انزل بنفسك العقاب بيدك ان كنت رجلا !

فساد المجلس سكوت رهيب ، واكتنفه سكون أشبه بسكون القبور !

وفجأة ، وضع مصطفى يده على قبضة خنجره ، واستله بسرعة ، وأغمده دفعة واحدة في صدره ، فخر على الارض صريعاً يتخبط بدمه وأعاد نصار سيفه إلى غمده ، وألقى بنفسه على جثة ولده يغسلها

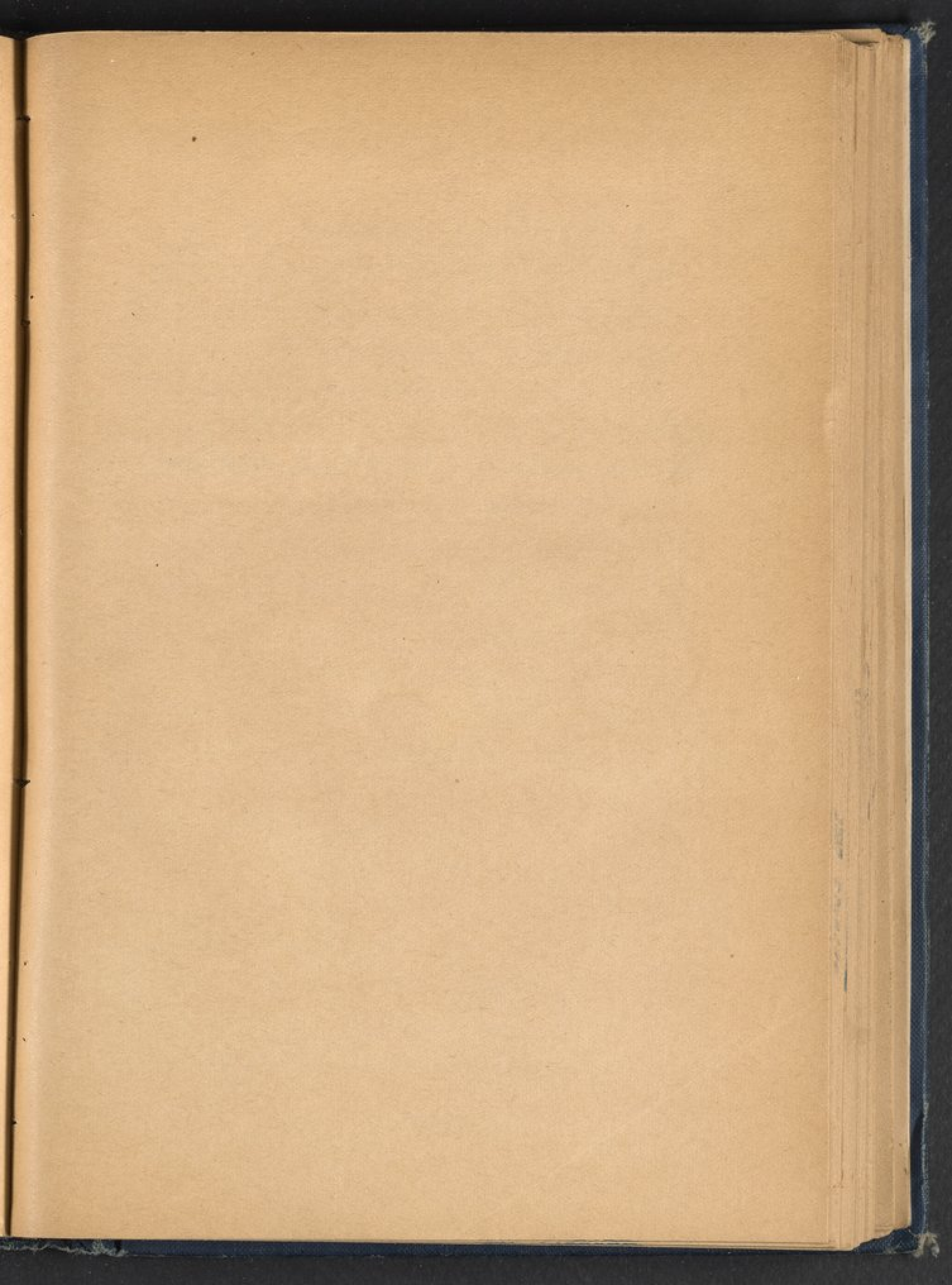
بدموعه . ويقبل ذلك الوجه الذى كان منذ لحظة لايجرؤ على النظراليه

ثم نهض والدمع ينهمر من عينيه وقال :

— مولاى . علمتنا الشجاعة والحنكة في القتال . وعلمتنا الحكمة وأصالة الراى بعيداً عن ساحة الحرب . فدع الآن هذا الأب الحزين المسكين يقبل يدك شاكراً !

بسط له ابراهيم يده فغمرها بالقبلات . ووضع الأمير على جبين ذلك الأب النبيل قبلة حارة وقال :

— لقد ألقيت علينا جميعاً يانصار درساً في الشهامة والشرف والتمسك باهداب الفضيلة . وليت الآباء جميعاً يسيرون في الطريق الذى سرت فيه ، وينسجون على منوالك ، واضعين الواجب فوق العاطفة !



- ١٣ -

كوتاهية

في شهر مايو سنة ١٨٣٣ حطت قافلة كبيرة رحالها في تدمر ، بين الخرائب والآثار ، الناطقة بعظمة عهد مجيد مضى وانقضى . وبعد أن رفع العربان عن جمالهم الاحمال والاثقال ، وضربوا في ذلك المكان أطناب الخيام ، تفرق الجميع طلبا للراحة من عناء السير مدة خمسة أيام بلياليها

وفي مضرب رفيع العماد، منبسط في وسط الخيام الأخر ، في كنف قوس النصر المتهدم ، جلست عشرون امرأة وفتاة من بنات الاعراب ، حول غادة هيفاء ، قمحية اللون ، حادة النظر ، قوية العضلات ، توسطت حلقتهن وخاطبتهن قائلة :

— لقد قطعنا الآن يا اخواتى العزيزات المرحلة الأخيرة من سفرنا الشاق . وغداً ، بعد أن نأخذ نصيبنا من الراحة ، سنفترق وتعود كل جماعة منا إلى حيها ومضارب عشيرتها . ولا شك عندى في انكن تحملن بين جوانحكن ، كما أحمل أنا ، أحسن أثر لتلك الاعمال المجيدة التي قمنا بها ، في صفوف الغازى المظفر !

فوافقت النساء والفتيات جميعاً على قولها ، وانفرط عقدهن ، وذهبت كل منهن إلى خيمتها

وفي اليوم التالي ، شدت القوافل الرحال من جديد ، واتجهت كل

منها إلى ناحية ، في تلك الصحراء المترامية الاطراف

أما الغادة الهيفاء ، القمحية اللون ، الحادة النظر ، القوية العضلات ، فقد امتطت صهوة جواد عربى أصيل ، وأطلقت له العنان ومعها خمسة فرسان يمتطون مثلها الجياد المطهمة ، وانطلق الجميع ينهبون الارض نهباً إلى دمشق الفيحاء ، المتربعة هناك ، وسط « غوطتها » الخضراء ، وينابيعها العذبة ، وأزهارها العطرة

***

من هن أولئك النسوة ، ومن هي تلك الفتاة الحسناء ؟

لنعد قليلا إلى الوراء ، الى اثنى عشر شهراً مضت ، الى مايو سنة ١٨٣٢ ، عندما كان الجيش المصرى بقيادة ابراهيم بن محمد على باشا يثب الى الامام وثبة بعد وثبة ، ويضرب جيوش الاتراك فى سورية ضربة بعد ضربة ، ويدون بالحديد والنار ، في سجل التاريخ ، معركة بعد معركة ونصراً بعد نصر

في مايو سنة ١٨٣٢ ، أعدم الاتراك ضربا بالسيوف خمسة من زعماء القبائل العربية ، كانوا قد انضموا برجالهم إلى المصريين ، وجعلوا يهاجمون الحاميات التركية ويطاردون رجالها ، الى أن خانهم الحظ في احدى المعارك ، فوقعوا في كمين اقامه الاتراك في صحراء تدمر ، وكان نصيبهم التعذيب فالموت

لكن رجال القبائل لم يلقوا السلاح بعد مصرع زعمائهم ، بل ظلوا يقاتلون الى النهاية . واستعرت في صدورهم نار الحقد ، فراحوا يطالبون بالثأر ويسعون اليه بحد السيف وطرف السنان

وبلغ النساء في مضارب القبائل خبر مقتل الزعماء . فغضبت احداهن ، وهي « ماء السماء » بنت حمدان الزغبى ، من عربان بني صخر ، ورفعت عقيرتها داعية نساء العرب وبناتهم الى السلاح ، لمشاركة الرجال فى طلب الثأر والانتقام للدم المسفوك

فلبت النساء والبنات الدعوة الى القتال . وسارت ماء السماء بنت حمدان الزغبي على رأس كتيبة من ثلاثين امرأة وفتاة ، يطلبن الطعن والنزال في الميادين

واشتركت تلك الكتيبة في المعارك التي دارت رحاها بين المصريين والاتراك ، في سنتي ١٨٣٢و١٨٣٣ ، في دمشق وحمص وحلب وبيلان وقونية وغيرها . وقتل من أولئك «الفارسات» الباسلات عشر نساء وفتاة ، وعادمنهن الى احياء العربان عشرون فقط

ولم يحملهن على العودة الى الصحراء خور النفس أو ضعف القلب، بل حملهن على ذلك وقوف رحى القتال ورجوع المصريين الى الوراء ، بعد أن عقد السلطان مع محمد على باشا معاهدة وضعت حداً للحرب والكفاح

***

بعد أن طحن ابراهيم الجيش التركي طحناً في معركة قونية الدموية، ظل الفاتح مقيما في تلك المدينة بضعة أسابيع. ثم نهض بجيشه الى الامام ، واحتل مدينة «كوتاهية» بلا مقاومة ، ولبث ينتظر فيها أوامر ابيه

وكانت السياسة في اثناء ذلك تلعب دورها. وتدخلت روسيا وانجلترا وفرنسا لحسم النزاع بين العدوين المتحاربين . وسافر الجنرال مورافيف الروسي الى الاسكندرية لمفاوضة محمد على باشا ، بعد أن طلب الى ابراهيم باشا أن لا يتقدم بجيشه نحو البوسفور ، انتظاراً لنتيجة تلك المفاوضة

وفي ١٣ يناير (كانون الثانى) سنة ١٨٣٣ وصل الجنرال مورافيف الى الاسكندرية ، ووصل اليها أيضاً رسول السلطان محمود الثاني . ودارت بين الثلاثة محادثات ودية ، ما عتمت أن تحولت الى مناقشات حادة ، قال في خلالها القائد الروسي إن حكومته لن تسمح لابراهيم بان يتخطى حدوده ويستولى على الاستانة

واشترك في المفاوضات مندوبون آخرون ، يمثلون تركيا وفرنسا وانجلترا ، ووافق محمد على باشا على الامتناع عن التقدم الى الأمام ، لكنه تمسك بمطالبه ، ورفض اجابة الدول الى الشروط القاسية التى أرادت أن تمليها عليه ، وقال إنه سيحتفظ بالقوة بالولايات التى انتزعها من السلطان بالقوة !

اعتصم محمد على باشا بالحزم . واعتصمت روسيا بالحزم أيضاً . ورأت فرنسا وانجلترا أن استمرار الحرب بين مصر وتركيا سوف يؤدي إلى تدخل روسيا تدخلا عسكريا ، فراعهما ذلك ، لاحباً بمحمد على وبمصر ، بل خوفا على مصالحهما ، فحملتا السلطان على الخضوع ، وطلبتا منه أن يعقد مع عدوه المنتصر صلحاً يضمن حقوق الطرفين

وفي ٦ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ — الموافق ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٤٨ — صدر الخط الشريف بتأييد حكم محمد على باشا على مصر وجزيرة كريت ، والتنازل له عن الحكم في سورية ولبنان وادنه ، وتجديد ولاية ابراهيم باشا على جدة ، ومنحه لقب شيخ الحرم المكى

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ — الموافق ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٤٨ عقدت معاهدة كوتاهيه بين السلطان محمود الثانى ومحمد على باشا ، ووقع عليها مندوبا الفريقين ، أي البارون روسان سفير فرنسا في تركيا بالنيابة عن السلطان محمود ، وابراهيم باشا بالنيابة عن أبيه

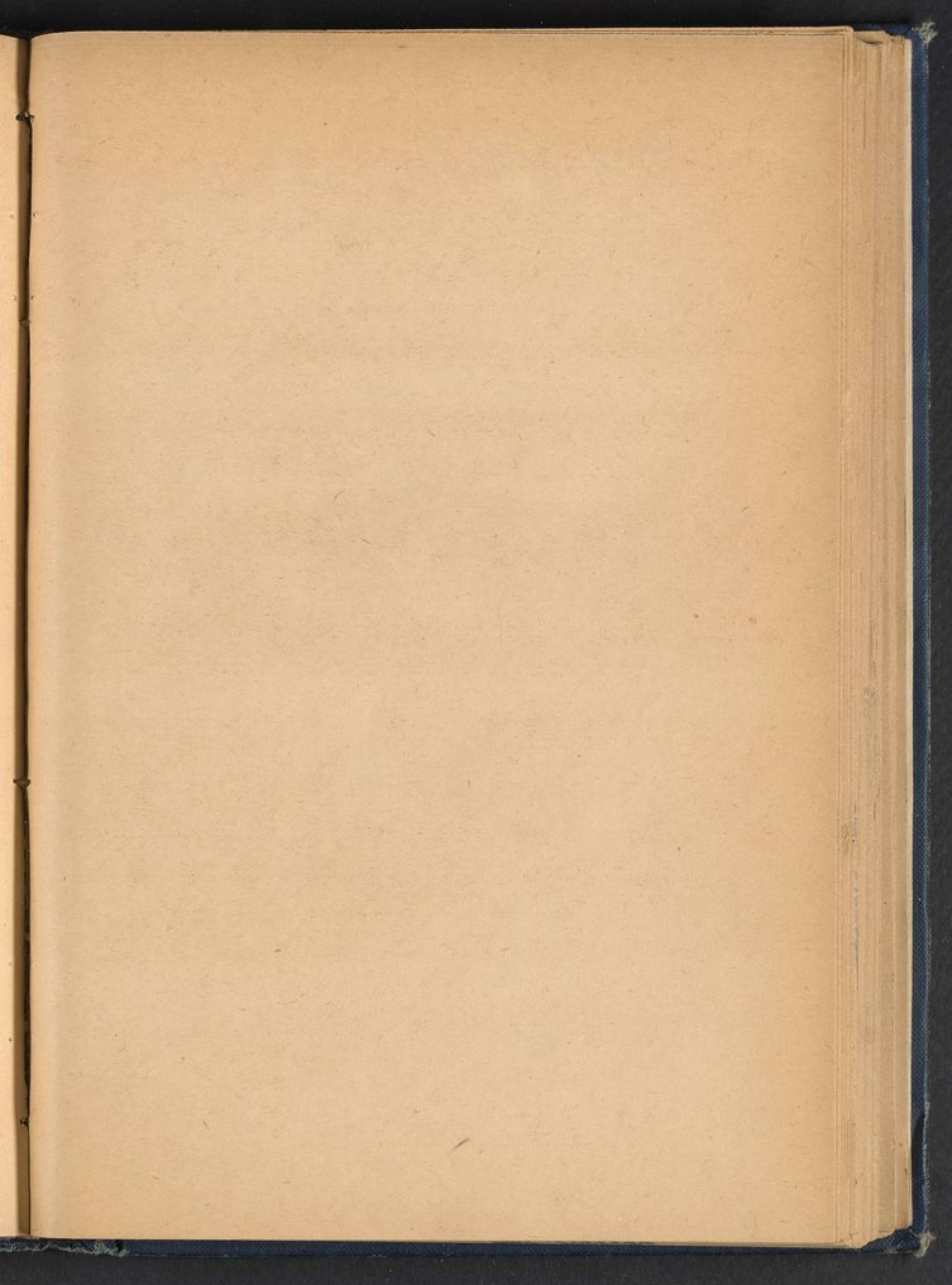
وبعد التوقيع على هـذه المعاهـدة ، وضعت الحرب أوزارها في الاناضول ، وعاد ابراهيم باشـا أدراجه بجيشـه المظفر ، الى ما وراء الحدود التى عينتها نصوص معاهدة كوتاهيه

وعاد المتطوعون الى أوطانهم ، فرحل العربان الى الصحراء ، ورجع اللبنانيون الى جبالهم ، ودخل الفتح المصرى فى طور جديد ، طور الادارة واصلاح ما افسدته الانظمة السابقة ، وظروف الحرب ومقتضياتها

وتعد معاهدة كوتاهية خاتمة المرحلة الأولى من عهد الحكم المصرى في سورية ولبنان والاناضول . فبعد أن أظهر ابراهيم باشا مواهبه النادرة كقائد وجندى ، بقى عليه أن يظهر مقدرته كحاكم وادارى

* * *

وقد عادت المتطوعات العربيات ، بقيادة ماء السماء بنت حمدان الزغبي ، مع من عاد الى المضارب والاحياء من متطوعى البادية . وجعلت كل منهن تقص على الذين تخلفوا في الديار ، أخبار المعارك التي خاضت المتطوعات غمارها ، وجنين ثمارها ، انتصاراً للمصريين وانتقاما من اعدائهم ، وطلباً لثأر الزعماء الذين أعدموا بحد السيف !



— ١٤ —

حليمة الوهابية

بعد أن تم التوقيع على معاهدة « كوتاهية » بين السلطان محمود الثاني ومحمدعلى باشا ، تراجع ابراهيم بجيشه ، وانسحب من المناطق التى لم تعترف المعاهدة بسلطة أبيه عليها ، الى ما وراء الحدود التي تقرر أن تكون فاصلة بين سورية الخاضعة لمصر ، والاناضول الخاضع لتركيا . وانصرف ابراهيم باشا الى تنظيم الادارة ، واقامة حاميات عسكرية في البلاد ، لجعلها في مأمن من هجوم جديد . وكان جيش ابراهيم باشا يبلغ في ذلك الوقت سبعين الف مقاتل . فحشد معظم تلك القوة في الشمال . ووقع اختياره على انطاكية فجعلها مقراً له ، ومركزاً عاما للقيادة ، نظراً الى موقعها الحربي

أما من الناحية الادارية ، فان ابراهيم باشا أدخل تعديلات كثيرة على النظام الذى كان متبعاً من قبل ، فاصبحت القاهرة مرجعاً أعلى لادارة الاقطار السورية . وأصدر محمدعلى باشا مرسوما بتعيين ابنه ابراهيم حاكما عاما على البلاد ، وقائداً للجيش المصرى فيها. واختار ابراهيم أشد أعوانه اخلاصاً له ، فعينهم حكاما على الولايات التى انشئت في سورية من جنوبها الى شمالها ، فأصبح شريف باشا حاكما على فلسطين والشام ، وحاملا لقب « حكمدار عربستان » وسليمان باشا الفرنساوي حاكما على صيدا ، واسماعيل بك حاكما على حلب ، وأحمد منيكلي باشا حاكما

على ادنة ، وغيرهم من القواد حكاما على مختلف الولايات والمقاطعات
والقيت مقاليد الامور في جبل لبنان ، إلى حليف المصريين في حروبهم ،
الأمير بشير الشهابى الكبير ، اعترافا من ابراهيم بخدماته واخلاصه

***

عزم ابراهيم ذات يوم على القيام برحلة في انحاء البلاد ، للوقوف بنفسه على مبلغ العناية بتنفيذ أوامره ، وقيام الحكام والمتسلمين والمباشرين بواجبات مناصبهم ووظائفهم ، فغادر انطاكية في موكب عظيم ، وبدأ طوافه من الشمال

وصل إلى حلب ، فقوبل من السكان بالترحيب والهتاف ، ونزل في قلعة المدينة التاريخية ، تلك القلعة التي لعبت في تاريخ مصر وتركيا دوراً عظيما ، والتي بنى فيها السلطان « قانصوه الغوري » السيء الحظ برجا هائلا ، وضاعف حصونها وأسوارها ، على أمل أن يعتصم فيها ويصد جحافل الاتراك عن ملكه . ولكنه أصيب بالفشل ، ولقى حتفه في معركة « مرج دابق » المشهورة

أقام ابراهيم في القلعة ، وطاف المنادى في المدينة طالباً ممن عنده مظلمة أو أمنية أن يرفعها إلى القائد الحاكم

وفي اليوم التالى ، وصلت إلى القلعة كوكبة من الفرسان العرب ، فترجل أحدهم عن جواده ، وتقدم إلى قائد القلعة طالباً منه السماح بمقابلة ابراهيم :

— قل للامير إن ابن « غالية الوهابية » يرغب في المثول بين يديه

وما سمع ابراهيم هذا الاسم ، حتى نهض من مكانه وعلى شفتيه ابتسامة الرضى ، وقال :

— ليدخل . وليدخل معه رفاقه إذا كان قادما مع فرسانه الاشاوس.

ولما تخطى الشاب العربي عتبة الباب ، أسرع إلى ابراهيم وتناول يده وطبع عليها قبلة وقال :

— جئت لتحية الأمير مع أبناء عشيرتى ، بعد أن شفيت من الجرح الذي أصابنى في قونية

— أهلا بك يا سرحان . إنني أحفظ لك الجميل على ماصنعته فى قضيتنا المشتركة . فبارك الله فيك وفي اخوانك ليوث الصحراء !

***

من هو سرحان ؟ ومن هى امه غالية ؟

إن لتلك المرأة قصة ، كان ابراهيم يذكرها في كل مجلس :

لبى محمد على باشا نداء السلطان ، وأعد عدته لتجريد حملة عسكرية على الحجاز ، وانتزاع المدن المقدسة من الوهابيين ، الذين كانوا قد احتلوا مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبسطوا سلطانهم على شطر من جزيرة العرب ، ومنعوا المسلمين من القيام بفريضة الحج ، ودعوا العالم الاسلامى بأسره ، الى اعتناق تعاليم الامام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي النجدي

خرجت الحملة المصرية في سنة ١٨١٢ بقيادة الامير طوسون ، نجل محمد علي باشا. وكان في ذلك الوقت شابا يناهز الثامنة عشرة من العمر . فاصطدم المصريون بجموع الوهابيين في « بدر » وأحرزوا عليهم فوزاً مبيناً

لكن الوهابيين نظموا صفوفهم من جديد ، وجمعوا شملهم ، وحملوا على الجيش المصري حملة شديدة ، اضطرت طوسون إلى التقهقر والعودة إلى « ينبع » على ساحل البحر الأحمر

وأرسل محمد على باشا إلى ابنه النجدات ومعدات القتال . فاستأنف طوسون باشا الزحف الى الامام ، واستولى على المدينة ثم اخرج الوهابيين من مكة واحتل الطائف

— ولكن القبائل الوهابية لم تركن إلى الهدوء ولم تيأس من النصر ، بل أعادت الكرة وقاتلت الغزاة قتالا عنيفاً . وتمكن الامير سعود

من كسر الجيوش المصرية في موقعة « تربة » كسرة شنيعة . فأرسل طوسون باشا يستغيث بأبيه ، ورأى محمد على باشا ان خير وسيلة لانقاذ الموقف ، أن يشخص بنفسه إلى الحجاز على رأس جيشه

وفي سنة ١٨١٣ لحق محمد على باشا بابنه إلى أرض الحجاز ، ووقعت بين المصريين والوهابيين معارك دموية ، استبسل فيها الفريقان ، وسالت فيها الدماء ، فارتوت بها رمال الصحراء المحرقة

أربع سنوات رأت فيها الجزيرة العربية ما لم تر مثله من قبل ، منذ أن خرجت منها كتائب المسلمين في عهد النبي العربي الكريم والخلفاء الراشدين ، لفتح الاقطار وإخضاع الامصار : رأت قبائل تسير إلى القتال وفيها الشيوخ والكهول والاطفال والنساء والفتيات

رأت جنوداً مدربين ، في ازياء لم تعهدها من قبل، يجرون وراءهم معدات الهلاك والدمار ، وعتاداً لم تألفه الصحراء في سابق الايام

رأت الجحافل تشتبك في معارك تلمع فيها السيوف والرماح، وتقذف فيها النيران من أفواه حديدية ، بين صهيل الخيول وصيحات المقاتلين ، ويتسابق فيها الفريقان الى النصر ، وقد صح فى هؤلاء وأولئك قول النابغة الذبيانى :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب !

وظل المصريون والوهابيون بين أخذ ورد ، وكر وفر ، وهجوم ودفاع ، الى أن استولى محمد على باشا على معاقل خصومه واحداً فواحداً، ولم يبق أمامه غير بلدة « الدرعية » وهى التى انبعثت منها دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب ، قبل ذلك الوقت بمائة سنة

واستدعت أحوال مصر عودة محمد على باشا الى القاهرة ، فوصل اليها فى الشهر السادس من سنة ١٨١٥ ، تاركا ابنه طوسون باشا في

الحجاز ، حيث احتل الدرعية وعقد الصلح مع الأمير عبد الله الوهابي ولكنه اضطر الى اللحاق بأبيه الى مصر ، حيث وافته منيته في سنة ١٨١٦

***

وقد حدث لمحمد علي باشا ، فيحروبه مع الوهابيين ، حادث ظل ذلك الرجل العظيم يذكره طول أيام حياته ، ويقصه على سامعيه في المجالس والولائم

كان ذلك في سنة ١٨١٤ ، قبيل معركة «تربة» الثانية ، التيانتصر فيهاالمصريون على الوهابيين ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وأرغموا القبائل الحجازية بعدها على التخلى عن الأمير عبد الله خليفة الأمير سعود ، والانضمام اليهم ومساعدة الجيش المصرى بالمؤن والذخائر

كانت بعض القبائل العربية ، من شمر وعنزة والحويطات وغيرها ، محافظة على تقاليد موروثة في البادية جيلا عن جيل ، وبين تلك التقاليد عادة متبعة عند تلك القبائل ، في الحروب والغزوات

كانت للمرأة عند القوم منزلة خاصة . وكان للجمال عندهم احترام واجلال . وكانت كل قبيلة تباهي وتفاخر بالغيد الحسان اللواتي تأويهن مضارب القبيلة ، ويتسابق فرسانها لارضائهن والفوز بعطفهن

واذا ما غزت احدى القبائل قبيلة أخرى ، كان كل من الفريقين يخرج من الخيام غادة حسناء ، ترتدى أفخر ما عندها من ثياب ، وتضع في معصميها الأساور وفي كعبيها الخلاخيل ، وتجلس في هودجها على ظهر ناقة ، فيلتف حولها الشيب والشبان ، ويستميت الفرسان في الدفاع عن هودج الحسناء ، ومنع الأعداء من الدنو منه ، بينما صاحبة الهودج تنشد الشعر وتبعث الحماسة في نفوس المحاربين ، فتتساقط جثثهم حولها كاوراق الشجر في الخريف !

وكان فريق من عرب شمر يحارب في ذلك الوقت مع الوهابيين ، وان لم تـكن قبائل نجد والحجاز وبادية الشام قد اعتنقت جميعها مذهب محمد بن عبد الوهاب

وحدث قبيل معركة تربة الثانيـة ، ان هاجم فريق من الجيش المصري قبيلة معادية ، فشتت شملها ، وأسر زعماءها ، وبينهم امرأة تدعى « حليمة » جيء بها إلى محمد على باشا في مضربه

كان عزيز مصر قدسمع بأمرها من قبل ، وعلم أن امرأة تقود قبيلة عربية نجدية ، وتحارب في صفوف الوهابيين منذ اليوم الذي هبط فيه المصريون أرض الحجاز ، وانها ابلت في المعارك بلاء حسناً ، وأن جنوده يخافونها ويحسبون لها الف حساب

ولما جيء بها اليه ، خاطبها قائلا :

— لقد بلغتني أخبارك يا حليمة . وقيل لى انك تقودين الفرسان فى الميادين . ولا يسعنى الا أن اجل فيك الشجاعة والاقدام والاباء . وساعفو عنك وأطلق سراحك ، إذا كنت تعدينني بالاقلاع عن الحرب ، والاخلاد إلى السكينة . فهل تعدينني بذلك ؟

فأجابته حليمة :

— كلا . لا اعدك بذلك يا باشا . وإذا خرجت من هنـا ، فانى سألحق بقومى وأعود إلى الحروب والقتال !

— إذن ستظلين أسيرة عندنا !

وأمر محمد على باشـا باعتقالها ومعاملتها بالحسنى . فارسلت حليمة النجدية الى المكان الذى أعد لاقامة الاسرى

وبعد أيام ، وقعت معركة تربة الثانية ، وكان محمد على باشـا يقود الجيش المصرى فيها بنفسه

وفي اثناء القتال ، جاءه أحد ضباطه ، وقال له إن جموعا غفيرة من

العرب تتقدم من الميسرة . فانتقل محمد على باشا إلى مكان الخطر ، وأصدر أوامره حسبما تقتضيه الحالة ، وبات ينتظر نتيجة القتال

وتغلب المصريون على الوهابيين في تلك المعركة ، وأجلوهم عن مراكزهم ، فانطلقوا بجيادهم النجدية يطلبون النجاة في الصحراء ، يطاردهم فرسان الجيش ويتعقبون آثارهم . وكان لذلك الانتصار أثر عظيم في إستقرار الحال ، وبسط نفوذ محمد على باشا على الاماكن المقدسة

وانتقل عزيز مصر بعد المعركة إلى محلة الاسرى ، وجعل يعرضهم ويتفقد الجرحى من المصريين والوهابيين ، وإذا به يقف مبهوتاً أمام منظر لم يكن في الحسبان

رأى محمد على باشا بين الجرحى امرأتين !

وعرف إحداهما ، فخاطبها قائلا :

— كيف اجدك في ميدان القتال ياحليمة ، وعهدى بك بين الاسرى بعيدة عن هذا المكان ؟

فرفعت حليمة رأسها ، وقالت بصوت خافت متهدج :

— لقد فررت من بين الاسرى وعدت إلى القتال لانني استشهد اليوم وأموت سعيدة . فقد قتل أخى ، وقتل زوجي ، وقتل ولدي في هذه المعركة ! وأراد الله أن يكون النصر حليفك اليوم . وسيكون حليفنا غداً !

والتفتت حليمة إلى رفيقتها ، وقالت :

— أستودعك الله ياغالية . وأرجو ان يكون حظك من الجهاد أوفر من حظى !

وفاضت روحها على مرأي من محمد على ورجال حاشيته . فأمر بأن تدفن مع زوجها وأخيها وابنها ، إذا استطاع الجنود أن يعثروا على جثثهم بين أشلاء القتلى

أما «غالية» رفيقة حليمة ، فقد أخلى محمد على باشا سبيلها ، وأمر اطباء جيشه بان يسعفوها بالعلاج

وإذا كانت حليمة النجدية الوهابية ، قد ماتت في الميدان والسيف بيدها ، فان رفيقتها غالية ، النجدية الوهابية مثلها ، ظلت تذكر عفو محمدعلى عنها ، وعطفه عليها ، فلم تعد إلى الحرب بعدأن شفيت من جراحها

وظل محمد على باشا يذكر المرأتين العربيتين الشجاعتين ، كلما دار في مجلسه حديث عن حروب الوهابيين

***

وعندما زحف ابراهيم على سورية بجيشه الفاتح،وانضم اليه فريق من العربان الضاربين في بادية الشام وشمال الحجاز ونجد ، نادت «غالية الوهابية» ابنها «سرحان» وقالت له:

— أى بني ! انى الآن على فراش الموت . وبعد أيام معدودة ، سوف أفارقك ، على أن نجتمع من جديد في جنة الخلد . ووصيتي اليك يا بنى أن تكون دائماً أبداً سباقاً الى ميادين القتال . ان الحرب القائمة الآن بين المصريين والاتراك ، تفتح أمامك ابواب الخلود . فسر الى القتال كما سارت اليه أمك من قبل ، وتقدم الى ابراهيم بن محمد علي ، وقل له إن أمي غالية، رفيقة حليمة الوهابية فى جهادها ، أرسلتني اليك لكى أخوض المعارك مع رجالك جنباً الى جنب !

وفاضت روح غالية في الوقت الذي كان فيه ابراهيم يضرب الحصار على عكاء . فغادر سرحان احياء قومه وخف الى الميادين

واشترك في المعارك من عكاء الى دمشق والزراعة وحمص ونصيبين وقونية ، حيث أصيب بجرح في صدره ، شفى منه بفضل عناية الاطباء المصريين به . فجاء الى حلب يستأذن من القائد العام بالعودة الى بلاده فأذن له ابراهيم وقال :

— ثق ياسرحان ان ذكرى غالية وحليمة ستظل حية في صدورنا ما بقينا نحن احياء !

— ١٥ —

صباح

أقام ابراهيم باشا في قلعة حلب مدة من الزمن ، صرفها في تنظيم الادارة وتوزيع المناصب والوظائف على أعوانه . فعين اسماعيل بك حاكما على المدينة وملحقاتها . وأقام الحاميات على الحدود . وأرسل في طلب زعماء العشائر ومشايخ العرب ، الذين حاربوا معه وخاضوا المعارك مع جيشه ، فعهد اليهم بالسهر على الأمن كل في منطقته

وكان ابراهيم يحفظ الجميل لأولئك العربان ، الذين شدوا أزره في الميادين وكانوا له عوناً على الاتراك . فقد وجد فيهم الادلاء الامناء ، والحلفاء المخلصين ، والاصدقاء الاوفياء . وعزم على الاحتفاظ بصداقتهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، لكي يساعدوه في المحافظة على الامن كما ساعدوه من قبل في احراز النصر

وكان يعجب على الخصوص بالنساء العربيات البدويات ، اللواتى كن يرافقن الرجال في الحروب ، ويقدن الكتائب أحياناً في ساحات الوغى . وكان يقول لجلسائه دائماً :

— ما دامت نساء العرب مخلصات لجيشي ، فانني لا أخشى هزيمة في الميادين !

وكان يحرص كل الحرص على استرضاء أولئك النساء المحاربات ولا يرفض لهن طلباً . واذا كانت القبائل العربية التى عاونته في حروبه

قد أخلصت له الود ومشت معه الى النهاية ، فالفضل كل الفضل في ذلك عائد بلاشك الى استبسال النساء ، وحثهن الرجال على الانضمام الى الغزاة الفاتحين

***

علم ابراهيم ، وهو مقيم في حلب ، أن عشيرة من البدو ضربت خيامها في سهل « مرج دابق » وأن تلك العشيرة تخضع لامرأة ، يذعن الرجال لارادتها وينفذون أوامرها بلا تردد ولا جدال ، وأن المرأة تطلب من القيادة المصرية السماح لها بالبقاء حيث حطت عشيرتها الرحال ، أي في مرج دابق ، على أن تبقى العشيرة تحت السلاح متأهبة دائماً للقتال

أرسل ابراهيم في طلبها ، فجاءت وحولها كوكبة من الفرسان ، وعلم منها ابراهيم ان العشيرة تنتمي الى عرب « عنزة » وانها تحافظ على تقاليد موروثة من قديم الزمان ، وتسير دائما الى الحروب بقيادة امرأة

ومعظم النساء اللواتي قدن العشيرة من قبل الى الغزوات يحملن اسم « صباح » عملا ايضاً بتلك التقاليد التي تحافظ عليها العشيرة

فكيف نشأت تلك التقاليد ؟ ومن هي « صباح » ؟

لنترك ابراهيم في قلعة حلب ، يصغي الى العربان وهم يقصون عليه قصة عشيرتهم ، ولنتصفح نحن تلك الصفحة التي دونتها نساء العشيرة بدمائهن ، فأهملها التاريخ ولم يحتفظ بها في سجلاته

***

في أوائل القرن العاشر للهجرة ، الموافق للقرن السادس عشر للميلاد ، كانت مصر خاضعة لحكم السلاطين الشراكسة ، وكان أولئك السلاطين قد بسطوا نفوذهم أيضاً على الاقطار الشامية ، فامتد ملكهم من ضفاف النيل إلى جبال طوروس

وفي سنة ١٥٠٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٠٧ للهجرة ، سقط طومان باى الأول تحت خناجر المماليك ، الذين بايعوا قانصوه الرابع ، فجلس على العرش ، ولقب بالملك الأشرف قانصوه الغورى

وهو الذي شيد الجامع المعروف بجامع الغورى ، وأطلق اسمه على أحد أحياء القاهرة المعروف بالغورية

وكان بين القواد الذين أولاهم السلطان الغورى ثقته ، وعلق عليهم آماله في صد الغزاة عن حدود مملكته الشاسعة ، رجل عربي يدعى « هانىء » جاء من بادية الشام الى مصر ، وأقسم يمين الطاعة للسلطان ، فولاه قيادة كوكبة من الفرسان ، فكان ذلك العربي الوحيد بين القواد الذي لايمت الى المماليك بنسب ، والذى لم يخرج من البيئة التى خرجوا منها

وكانت تعيش في قصر السلطان في ذلك الوقت ، بين السراري والجوارى ، امرأة ساحرة العينين ، وضاحة الجبين ، ممتلئة الجسم ، أرسلها « خير بك » نائب حلب هدية الى مولاه . وكانت تلك المرأة تتألم من الاسر ، وتحن الى الصحارى والقفار ، لأنها عربية قادها رجال خير بك سبية ذليلة في احدى الغزوات ، فلم تطق صبراً على حياتها الجديدة ، وظلت تتحين الفرص للهرب من قصر السلطان ، والعودة اذا استطاعت الى باديتها ورجالها وعشيرتها

وكان هانىء العربى أحد رجال القصر الذين تمكنت تلك المرأة — واسمها صباح — من الاتصال بهم لتمهيد سبيل الفرار لها . وقد سطت على الشاب العربي بسحر عينيها ، وأثارت في صدره النعرة القومية ، فغلت مراجل الدم البدوى في عروقه ، وجعل يعد العدة لانقاذ المرأة من أسرها ، وترحيلها الى بلادها ، دون أن يشعر سيده ومليكه بأنه يخون الأمانة ويستغل الثقة

ونجح « هانىء » في تنفيذ الخطة التى رسمها لانقاذ « صباح » .
وفي سنة ١٥١٤ ، كانت المرأة بعيدة عن القاهرة ، في طريقها الى صحراء سيناء وجبال لبنان وسهول حمص وحماه - وبادية الشام مقر قبيلتها

ولكن منقذها ندم على ما صنعت يداه ، وجاءت ندامته بعد فوات وقتها : ندم على ترحيل المرأة عن مصر ، لأنه شعر بعد رحيلها بعاطفة لم يكن قد أدرك معناها ومداها من قبل !

شعر هانىء بانه يحب المرأة ، وأن حبه ليس وليد ساعة بل ربيب شهور ، ولكنه لم يفطن اليه الا بعد أن أصبحت الحبيبة بعيدة عن ديار يقيم الحبيب فيها !

فما العمل ؟

لم يبق أمام العاشق الا أن يلحق بتلك التى أثارت في صدره غرامه العميق ، والتي أغضب فرارها الملك الأشرف فانتقم من العبيد والحرس الابرياء ، وقتل منهم أربعة بتهمة الاشتراك في اخراج المرأة العربية من قصره

ولم يدر قط في خلد السلطان الغوري ان لهانىء يداً في فرار صباح ، فعهد اليه بالبحث عنها ، وطلب منه أن يلحق بها إلى أرض الشام ، على أمل أن يعثر عليها في الطريق ، ويعيدها ذليلة خاضعة الى القصر ، حيث ينزل بها السلطان الشيخ عقابا استحقته وعذابا أرادته لنفسها

كان قانصوه الغوري في ذلك الوقت قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره .
ولكنه أبى الاذعان لصوت العقل ، ولم يعترف للطبيعة بحقها على البشر رجالا ونساء ، وبأن امرأة في مقتبل العمر ، جميلة قوية تجري في عروقها دماء نقية فتية ، تأنف البقاء في كنف رجل أحنت السنون ظهره ، وأخمدت الشيخوخة بريق عينيه ، ودب الفتور الى جسمه المشرف على الفناء

أصدر السلطان المتألم في كبريائه أمره الى القائد العربي ، وزوده بالمال والرجال ، وأطلقه في أثر المرأة الهاربة

وهذا ما كان هانيء يرغب فيه ويتوق اليه !

* * *

سنة ١٥١٦ للميلاد — الموافقة لسنة ٩٢٣ للهجرة

سنة دونت في صفحة التاريخ بأرقام من حديد ودم ونار ، وأقامت فاصلا بين عهد وعهد ، وبين عصر وعصر ، وبين ماض ومستقبل !

زحفت جيوش العثمانيين ، بقيادة السلطان سليم الاول ، على تخوم الشام . ووقفت في السهول والجبال ، ترقب الفرصة السانحة للانقضاض على الممالك والامارات الخاضعة لسلاطين مصر . ودارت مفاوضات بين السلطان العثماني الفاتح . والسلطان الاشرف قانصوه الغورى ، ظهر من مقدماتها أن الحرب واقعة لامحالة بين الفريقين ، وأن الميدان لايتسع لمطامع الخصمين ، وأن لابد من خضوع أحدهما للآخر

وجعل الامراء والاقيال يتباحثون ويتشاورون ، وكل واحد منهم ينظر إلى مصلحته ، ويفكر في الالتحاق بهذا أو بذاك من الجيشين

فأين كان هانيء البدوى : بينما كانت السيوف تشحذ للحرب ، والخيل تسرج للهجوم ، والكتائب تعبأ للزحف ؟

كان هانيء في ذلك الوقت ينشد أنشودة الغرام في بادية الشام . فقد اهتدى إلى مقر المرأة التي أحبها ، وعاد الى عشيرته ، وزفت اليه صباح ، وتحالفت العشيرتان على السراء والضراء

وعندما ارتفع في سهول الشام صهيل الخيول ، ولمع في فضائها بريق الصوارم والرماح ، عقد شيوخ العشيرتين مجلسهم ، وتشاوروا فيما بينهم ، وكان رأي الاغلبية أن يلتحق القادرون على الحرب بجيش السلطان العثماني الغازى ، وأن يفتكوا بانصار المماليك في المعاقل والحصون التي يعتصمون فيها

فعارضهم هانىء في هذا الرأى ، والتمس منهم مهلة معينة ، للذهاب إلى السلطان الغورى ، والوقوف على مبلغ قوته ، والاتفاق معـه على شروط قد يكون فيهـا الخير للعشيرتين ، والضمان لابناء الصحراء في مستقبل الايام

وغادر هانىء مرابع الحى على أن يعود عندما يتم القمر دورته !

***

شهر اغسطس (آب) سنة ١٥١٦

دار القمر دورته الاولى . . .

ثم دار دورته الثانية ، وهانىء لم يرجع الى الحى تنفيذاً لوعده

عقد الشيوخ مجلسهم مرة أخرى ، ووقفت بينهم صباح ، وقدحلت شعرها وعفرت وجهها بالتراب ، وصاحت قائلة :

— لقد بطش الملك الاشرف قانصوه الغورى بهانىء ابنكم وزوج ابنتكم . لقد غدر ذلك الثعلب الهرم بليث البيداء . فاغسلوا الدم بالدم ان كنتم رجالا ! اسرعوا الى ملاقاة أولئك المماليك ، وسأنطلق في مقدمتكم ساعية الى الثأر والانتقام !

وفي اليوم التالى ، كان فرسان العشيرتين ينهبون بخيولهم الارض نهباً ، في طريقهم الى حلب

أما هانىء فانه كان منطلقاً من جهته الى حلب أيضاً ، ولـكن في صفوف المماليك

فقد التقى بسيده ومولاه ، وأعجب بشجاعة ذلك الشيخ الوقور ، الذى لم يتردد فى السير أمام جيشه ، حاملا على منكبيه عبء ثمانين عاماً ، مكللا بشعوره البيضاء ، وبيده سيف مسلول أعده لمقارعة الابطال في الميادين ، دفاعا عن ملـكه وذوداً عن حياضه

وقع نظر الملك الاشرف قانصوه الغورى على القائد العربي ، فحياه قائلا ، قبل أن يفوه هانىء بكلمة :

— مرحى ، مرحى ! كنت واثقاً انك لن تتخلف عن المجيء يا هانيء . خذ مكانك بين الاوفياء من رجالى ، واطربنا بصليل سيفك في حومات الوغى !

فسار هانيء الى القتال مع السائرين اليه . ونسى أن هناك زوجة يطير فؤادها شعاعا عليه ، ورجالا ينتظرون عودته لتقرير خطتهم في ذلك العراك الخطير

***

٢٤ اغسطس (آب) ١٥١٦

مرج دابق !

سهل شاءت الاقدار ان يحفر اسمه بأطراف الاسنة على جبهة الدهر !

في ذلك السهل التقى الجيشان . وفي ذلك السهل التحم الابطال !

وفى ذلك السهل لعبت الخيانة دورها ، فغدر اثنان من الامراء بالملك الاشرف ، وهما خير بك والغزالي ، وانضما برجالهما إلى جيش سليم فى ميدان الحرب. وكانت خيانتهما هذه نذيراً بانكسار المماليك ، ورجحت بسببها كفة السلطان العثماني

واستماتت رجال قانصوه في الدفاع عن أنفسهم . وعندما أدرك السلطان الشيخ أن الدائرة ستدور عليه ، همز جواده ، وصاح فى حاشيته صيحة دوت كهزيم الرعد ، واخترق الصفوف ضاربا بسيفه يميناً ويساراً ، مجندلا من الفرسان عشرات وعشرات . . .

ولم يعد الى رجاله ...

ولم يقع عليه النظر بعد تلك الساعة الرهيبة . . .

ولم يعثر احد على جثته في الميدان !

فان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، قد مات موت الابطال الأباة ، في ساحة الشرف !

***

— علي به ! علي به ! الخائن يقتل !

صيحات ارسلتها حناجر العربان ، عند ما جيء اليهم بالقائد هانيء العربي ، موثق اليدين ، والدم يسيل من جرح في كتفه

فقد رآه بنو قومه بين صفوف المماليك ، يتقدم الفرسان ويستحثهم على القتال . فاعتقد أولئك العربان ان الرجل خانهم ، وانه ابى الا ان يحاربهم ويقاتلهم

وعند ما اصيب الفارس الشجاع بجرح في كتفه ، وسقط عن جواده ، احاط به أبناء عشيرته ، وأوثقوه وقادوه الى شيوخهم

وكانت «صباح» بين أولئك الشيوخ . وما وقع نظرها على زوجها حتى صاحت به قائلة :

— لقد خنت السلطان بالامس من اجلي . وخنتني اليوم من اجل السلطان . ووقعت في قبضة رجالنا اسير حرب وأنت تقاتل في صفوف الاعداء ، بعد ان خنت القبيلة واخفيت عنها اغراضك ومراميك . فليقل فيك الشيوخ كلمتهم يا هانيء !

وعبثا حاول الرجل ان يدافع عن نفسه . فان الشيوخ اصدروا حكمهم عليه ونفذوه فيه

وكان الحكم يقضي باعدام «الخائن!»

قام حب هانيء على اساس الخيانة ، وغرق في تهمة الخيانة !

وراح ذلك الفارس العربي شهيد خيانة أولى لم يعلم بها السلطان ، وشهيد خيانة ثانية لم يرتكبها !

***

عاد العربان الى باديتهم المترامية الاطراف . وتركوا الجيوش الفاتحة تتوغل في السواحل ، وتجتاح الاقطار العامرة ، وتقيم حكما جديداً على انقاض حكم بائد

وظلت «صباح» منذ ذلك الوقت مشرفة على شئون عشيرتها. ومرت الاعوام فاذا برجال العشيرة ينظرون الى نسائهم نظرة اكبار وإجلال ، ويرون ان خير ما يصنعونه في الحروب ، ان يسلموا قيادهم لاحدى أولئك النساء الباسلات ، وان ينسجوا في ذلك على منوال سواهم من ابناء البادية

وبعد موت « صباح » الاولى ، عقد كبار رجال العشيرة مجلساً ، وتشاوروا فيما بينهم ، فوقع اختيارهم على المرأة التى تحل محلها ، واطلقوا عليها اسم « صباح » تيمناً . وهكذا حملت كثيرات من النساء اللواتي تتابعن في قيادة العشيرة ذلك الاسم الميمون

ولكن شاءت الاقدار أن تكون « صباح » التى قادت فرسان العشيرة في حروب ابراهيم باشا في سورية والأناضول ، آخر امرأة تحمل ذلك الاسم . بل شاءت تلك الأقدار القاسية أن يكون فناء العشيرة على يدها

فقد أراد اسماعيل بك ، حاكم حلب المصرى ، أن يجمع من العربان أموالا اميرية باهظة ، وأن يرهق الرجال بأعمال « السخرة » التى لم يعهدها البدو الاحرار من قبل . فوقفت «صباح » في وجه الحاكم الغاشم ، وأرادت ان تمنع عن قومها الظلم والحيف . فقابل الحاكم عصيانها بالعناد ، وسير عليها الجنود لاخضاعها . وعبثاً حاولت المرأة ان ترفع شكايتها إلى ابراهيم ، فان القائد المصرى الكبير كان قد غادر الشمال إلى لبنان ، حيث كان عماله قد أساءوا التصرف ، واغضبوا الناس ، وحولوا عن المصريين القلوب

ووقعت معركة بين العشيرة والجند المصرى ، فحصدت المدافع خيام العرب ومن فيها ، وتركت مكانها أكواماً من الجثث والانقاض

وهكذا قضي اسماعيل بك ، الحاكم الظالم ، على « صباح » أخت

الرجال وسيدة الفرسان ، وعلى رفاقها الأمناء ، فماتوا جميعا قتلا بقنابل المصريين ، بعد أن كانوا للمصريين عوناً على أعدائهم

وكان ابراهيم في شاغل عنهم ، يواجه الصعاب والمشاكل التي أثارها أعوانه في أنحاء البلاد ، فكانت نذير شؤم عليه وعلى حكمه في سورية ولبنان

— ١٦ —

الضريح الخاوى

ان حادثة «الضريح الخاوي» من الحوادث التى شغلت بال ابراهيم باشا في لبنان ، فهي جديرة بان نفسح لها مكاناً هنا ، بين ما نورده من وقائع الحروب والثورات ، وندونه من أقاصيص وذكريات ، عن تلك الحقبة من التاريخ وما تبعها من حوادث

رأينا أن محمد على باشا كتب إلى الأمير بشير الشهابى أمير لبنان ، بأن يوافي ولده ابراهيم باشا في صحراء عكاء ، أمام أسوار المدينة المحصنة ، برجاله الجبليين الاشداء وفرسانه الشجعان ، وأن ينضم اليه في حروبه وغزواته ، تنفيذاً للعهود التي قطعها الأمير بشير على نفسه ، عندما كان في ضيافة محمد على باشا في مصر قبل ذلك اليوم بسنوات

ولبى الأمير دعاء صديقه وحليفه عزيز مصر ، وسار من مقره « بيت الدين » يصحبه مائة فارس إلى سهول عكاء ، حيث التقى للمرة الاولى بابراهيم باشا ، قائد الجيش المصري المظفر

وكان ذلك في ختام سنة ١٨٣١

وأصدر الأمير بشير أوامره الى زعماء لبنان وأقياله ومشايخه، بأن يوافوا ابنه « الامير خليلا » بالف مقاتل ، ينضمون الى المصريين ويحاربون معهم جنباً الى جنب . وأوفد رسله إلى أنحاء الجبل ، يدعو القوم الى القتال ، ويطلب منهم مساعدة الجيش المصري في حله وترحاله

وبعد أن وضع الأمير ، بالاتفاق مع ابراهيم باشا ، خطة العمل في الايام المقبلة ، قفل راجعاً الى قصر بيت الدين ، حاملا من القائد المصرى العظيم وعداً بأن يزوره في ذلك القصر ، وينزل في ضيافته ، عندما تسمح الظروف والاحوال

وصل الامير إلى قصره ، فاذا به يفاجأ بخبر غريب ، دهش له ذلك الرجل الذى عركته الأيام والحوادث ، والذي كان يعتقد أن لا شيء يدهشه بعد أن رأى من الدنيا ما رأى !

قيل له ان عبيد القصر كانوا يعملون في الحمامات كعادتهم ، بعد رحيله الى عكاء بيوم واحد ، فعثروا في الدهاليز على جثة امرأة لم يتبينوا هويتها ، ولم يعرفوا كيف دخلت الى ذلك المكان خلسة ، دون أن يقع عليها نظر الحراس ، وكيف قتلت دون أن يسمع لها أحد صوتاً !

ثار ثائر الأمير لهذا الخبر . وسأل القوم عما فعلوه بالجثة ، فأجابوه إنهم يحتفظون بها في احدى قاعات القصر ، بعد أن صبوا عليها الادهان والعطور ، في انتظار عودة الأمير لاطلاعه على ذلك الحادث الغريب

ذهب بشير الى تلك القاعة ، فاذا به أمام جثة فتاة كانت بلا شك جميلة فاتنة ، وقد ظهرت في عنقها آثار خنق ، تدل على أن القاتل استخدم حبلا للقضاء عليها ، وفي معصميها أساور ذهبية ، وفي قدميها خلخالان من الفضة ، وفي شعرها الاسود الطويل المسترسل حليتان ثمينتان

أدرك الامير أنه أمام فتاة تنتمى الى احدى الاسر الغنية الشريفة ، وعزم على تمزيق الحجاب عن سر تلك الضحية المسكينة

وزاد في عزمه ما كان يعتقده في نفسه من قوة الارادة وبعد النفوذ

أما كان الناس في جميع أنحاء لبنان ، يروحون ويجيئون هادئين مطمئنين ، في ضوء النهار أو في دجى الليل ، دون أن يعترضهم أحد في الطريق ، ودون أن يقع فى البلاد حادث اعتداء أو سطو أو سرقة أو قتل ؟ أما

كانت الامثال تضرب بالامن في انحاء ذلك الجبل الاشم ، مما جعل محمد على باشا نفسه يقول : « لاجعلن مصر آمنة كما جعل بشير لبنان آمناً ؟ »

كيف اذن تقع مثل تلك الجريمة في بيت الدين ، داخـل قصر الامير ، وأي تأثير سيء ستحدثه في البلاد ؟

حاول الامير أن يعرف الحقيقة، وعرض جثة الفتاة على الناس. وأرسل المنادين يطوفون القرى المجاورة ، وأوفد الرسل الى أطراف امارته ، وأذاع الخبر فى كل مكان، وعذب الحراس، وجلد الخدم، وأمر بقتل العبيد. ولـكن ذلك كله لم يجد نفعاً، وظل أمر الفتاة الغريبة، التي وجدت مخنوقة فى دهاليز الحمامات في بيت الدين ، مجهولا من سيد لبنان الذي كان يعتقد أنه لا يجهل شيئا مما حدث ، ولن يجهل شيئاً مما سوف يحدث !

فامر بشير بان تدفن الفتاة المجهولة فى قبر يحفر لها في حديقة القصر، بين الورود والرياحين . وغادر الامير مقره في بيت الدين ، على رأس فرسانه وفي صحبة ابنائه ، الى ميادين القتال وساحات الشرف

وقص على ابراهيم باشا قصة الفتاة، فلم يخف القائد المصرى دهشته ، وقال لحليفه :

— أيجرؤ القتلة والسفاحون على الابرياء في قصرك يا أمير، وهم الذين يرتعدون لذكر اسمك، ولا يتعرضون للمسافرين في امارتك ، خوفاً من عقابك وبطشك ؟ ان هذا الحادث لأغرب حادث سمعت به الى الآن !

فأجاب بشير :

— سوف أعرف حقيقـة أمرها . والا فان هذا السر سينغص علي الحياة !

***

شغلت الحروب والمعارك الامير اللبنانى عن متابعة البحث والسؤال والتحقيق، في أمر تلك الفتاة الغريبة . وكان كلما عاد الى بيت الدين، يعير

هذا السر الغامض شطراً من وقته واهتمامه . ولكنه لم يفز بنتيجة ترضيه ، لا بالوعد ولا بالوعيد

وزاره في قصره الطبيب الفرنسي الشهير كلوت بك ، موفداً من لدن محمد علي باشا ، لمرافقة الجيش المصري في سورية ولبنان. وأقام عنده ضيفاً بضعة أيام. واغتنم الامير الفرصة السانحة ، وعهد الى الطبيب الكبير بأن يطلب من محمد علي باشا السماح لأربعة شبان من اللبنانيين ، بالذهاب الى مصر لدرس الطب فيها مجاناً . فاجاب محمد على باشا صديقه الامير اللبناني الى رغبته ، وأرسل الامير أول بعثة طبية لبنانية الى مصر

وفي اثناء اقامة كلوت بك في بيت الدين ، قص عليه الامير بشير قصة الفتاة القتيلة الغريبة ، وأفضى اليه بدهشته وغيظه من عجزه عن معرفة القاتل وهوية الفتاة

وخطر للامير خاطر عزم على تنفيذه فى الحال . فنادى رئيس الحراس ، وأمره بان يعهد الى العمال بنبش القبر واستخراج جثة الفتاة المجهولة !

وأسرع رئيس الحرس والعمال الى تنفيذ الأمر . فرفعوا الاتربة وأزاحوا بلاط الضريح ، في حضور الامير والطبيب كلوت بك

وتراجعوا جميعاً مذهولين حائرين ، ينظر كل منهم الى الآخر ... كان القبر خاويا لا شيء فيه !

وثارت ثائرة الأمير الشهابي من جديد ، كما ثارت قبل ذلك اليوم بسنوات ! ونادى حوله الضباط ورجال الحاشية وخدم القصر والعبيد ، وحاول أن يعرف منهم شيئاً عن اختفاء الجثة ، وعن هذا السر الجديد الذي شغل باله كالسر القديم

ولكن الجميع أقسموا أنهم لايعرفون شيئاً ، وأنهم لم يروا أحداً يقترب من الضريح أو يعبث به

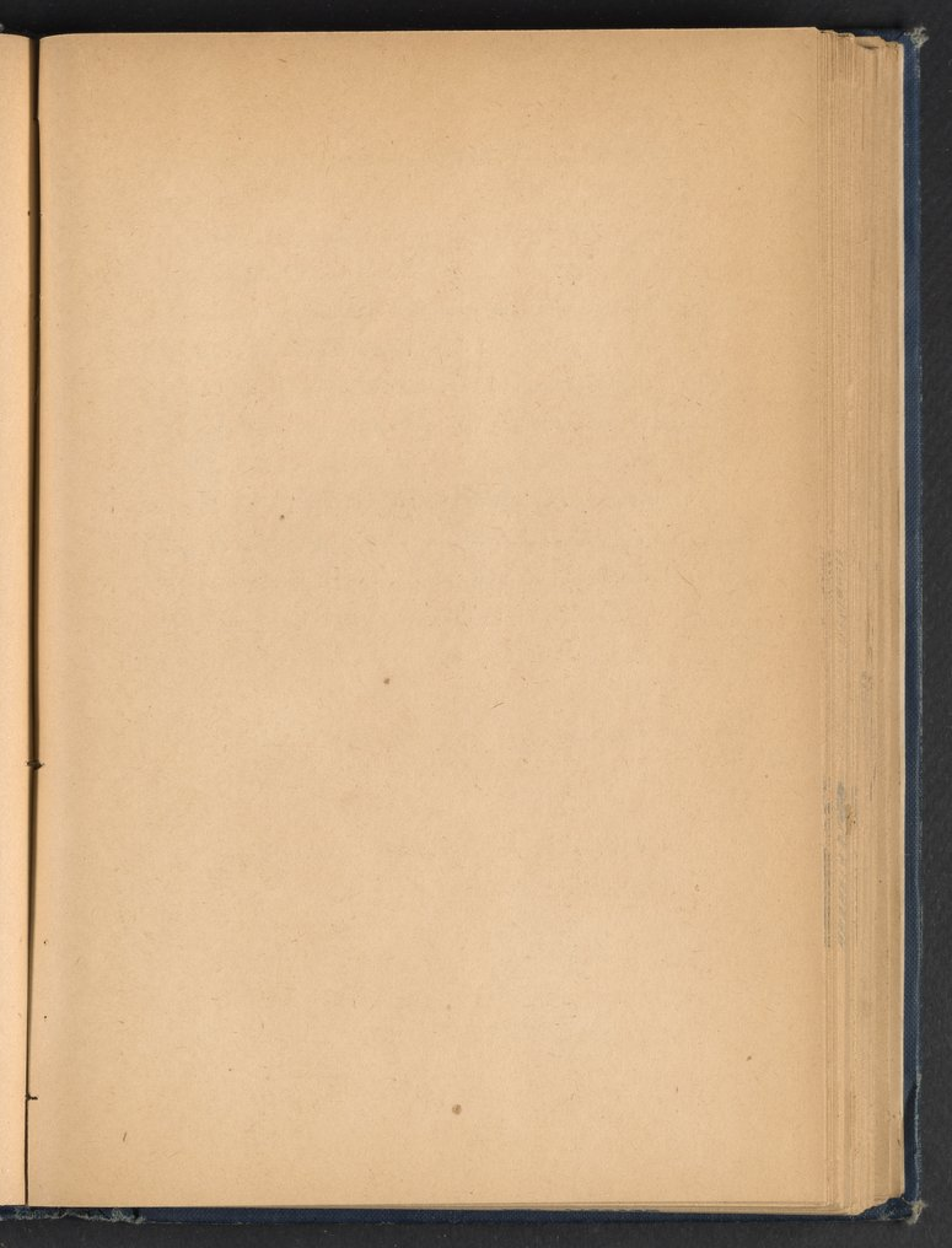
وقال أحد العبيد ، وهو رجل أهداه احمد باشا الجزار ، صاحب عكاء ، إلى الأمير بشير :

— انى أرى فى هذا الامر يا مولاى يد ابليس اللعين ! ولا يبعد أن تـكون تلك الفتاة من الجان !

فضحك الامير وهدأت ثورته . وبعد أيام غادره الطبيب كلوت بك، فودعه بشير وأغدق عليه العطايا ، وقال له :

— يخيل الي أن أمر هذه الفتاة سيظل سراً دفيناً في هذا القصر . وهو على كل حال السر الوحيد الذي عجز بشير الشابى عن كشف الستار عن حقيقته !

ولم يعلم أحد إلى الآن من كانت تلك الفتاة الغريبة ، وكيف دخلت القصر ، ومن أدخلها اليه ، وأية يد امتدت اليها وخنقتها وتركتها جثة هامدة في دهاليز الحمامات ، ومن هو القاتل الذي تبع فريسته الى القبر ، فسرق جثتها وأخفاها في مكان مجهول !



— ١٧ —

حطين

أيها المسافر ، انت يا من تجتاز أرض فلسطين المقدسة ، عرج بنا إلى شاطىء تلك البحيرة الهادئة الساكنة ، وقف بنا حيناً أمام تلك القرية، الصغيرة بمساحتها، الكبيرة باسمها ، الخاملة في حاضرها ، المشهورة في ماضيها ، وطأطىء الرأس خاشعاً أمام تلك الاطلال المحيطة بها ، وهي البقية الباقية من أسوار منيعة ، شيدت من حجارة البراكين الكالحة ، وزعزعتها الدهور إلى أن زلزلت الأرض زلزالها في سنة ١٨٣٧ ، فتهدمت تلك الاسوار ولم يبق منها غير ما ترى عينك الآن

طالما أحدقت بها الجيوش واندفعت نحوها سيولا جارفة . لكن حجارة البراكين حطمت هجمات تلك الجيوش، فعادت عنها مقهورة ذليلة

فسلام على « طبرية » والف سلام على بحيرتها !

***

أسسها هيرودس في العام السادس عشر قبل الميلاد . واتخذها الاسرائيليون بعد خراب اورشليم عاصمة لهم . واستولى عليها عمر بن الخطاب في سنة ٦٣٧ للميلاد . وأصبحت مركزاً دينياً ومقراً لأساقفة المسيحيين في عهد الحروب الصليبية . وسقطت في يد صلاح الدين سنة ١١١٨ للميلاد . وعاد اليها الصليبيون من سنة ١٢٤٠ إلى سنة ١٢٤٧ . وانتقلت مرة أخرى إلى أيدي العرب ، ثم إلى أيدي الاتراك . واشتهرت

في الجيل الثامن عشر عند ما اتخذها الشيخ « ظاهر » مركزاً لثورته على الباب العالى

وانتهى بها الأمر الآن إلى ما ترى : فهي رابضة على شاطىء البحيرة التى تحمل اسمها ، حائرة حزينة

وبعد أن تقف خاشعاً أمام طبرية وبحيرتها ، عرج بنا أيضاً إلى ذلك الجبل المنيع ، واذكر بالخير أولئك الابطال الذين سقطوا فى « حطين » وقل معي : ألا ترسل الاقدار إلى الشرق ، في هذا العصر العصيب ، بطلا كيوسف صلاح الدين ، يعيد الى أبناء الشرق الثقة بنفوسهم ، والى الشرق العظمة البائدة والمجد الضائع والاستقلال المنشود ؟

***

أرسل محمد على باشا اوامره الى ابنه ابراهيم بان يحتكر تجارة الحرير في الاقطار السورية، ويحصل الاموال الاميرية، وينزع السلاح من السكان ويجندهم في جيشه . وكان ابراهيم في ذلك الوقت يقيم في مدينة يافا . فجمل يعد عدته لتنفيذ تلك الاوامر ، التي كانت خطوة أولى نحو الفشل النهائى ، الذى منيت به الجيوش المصرية في البلاد التى اجتاحتها بالاتفاق مع أهلها . وكان ذلك العمل الذى أقدم عليه محمد على باشا وابنه ابراهيم ، فاتحة الخلاف الذي جعل يتفاقم منذ ذلك الحين ، فأفضى الى تعدد الثورات ، واتساع القلاقل ، وانفصام عرى الاتحاد بين القاهرة والقدس وبيروت ودمشق

اذاع ابراهيم على الملأ أوامر أبيه ، فتململ السكان وعقدوا الاجتماعات وتشاوروا فيما بينهم ، وانتهى الأمر بان قامت الثورة في أنحاء فلسطين ، في شهر مارس (اذار) سنة ١٨٣٤

شخص ابراهيم الى القدس ، وارسل في طلب زعماء البلاد ومشايخ القبائل وأصحاب الوجاهة ، للتداول معهم أو لحملهم بالوعد والوعيد على الهدوء والسكينة

وعقد في أوائل ابريل (نيسان) سنة ١٨٣٤ اجتماعاً عاماً حضره عشرات من قادة الرأي في القدس ويافا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية . ونهض في ذلك المجلس شيخ وقور من اسرة « طوقان » المقدسية ، واستأذن من القائد المصرى بأن يقص عليه قصة يتناقلها الناس في البلاد منذ مئات السنين

فقال ابراهيم :

— ما جئت أيها الشيخ لسماع الاقاصيص ، وأراكم في هذه البلاد مغرمين بها . فانني لا أهبط مدينة ولا أحضر مجلساً ، الا وينهض أحدكم طالباً أن يقص علي قصة أو يذكرني بحادثة وقعت في زمن مضى !

فأجابه الشيخ طوقان :

— ولكن القصة التى أريد الافضاء بها اليك أيها القائد ، ذات مغزى قد تستفيد منه وأنت في عنفوان شبابك . فاصغ الى شيخ أحنت السنون كتفيه وقربته من القبر

***

وقص الشيخ طوقان على ابراهيم القصة الآتية :

في اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة ، التقى فارسان يمتطي كل منهما صهوة جواد عربى أصيل ، في الطريق الوعرة المؤدية من مدينة صور إلى حصن عكاء . فأوقف الفارسان جواديهما ، وانطلقت من بين شفاههما ، في آن واحد ، هاتان الكلمتان :

— يا لمحاسن الصدف !

وقال أحدهما :

— كنت مسرعا اليك يا عامر لوداعك الوداع الأخير ، قبل التحاق بجيش سيدى الكونت رودمير ، المرابط على مقربة من هنا

فأجاب الآخر :

— وكنت من ناحيتي أيضاً مسرعاً اليك يافيليب ، لوداعك الوداع الأخير ، قبل التحاقي بجيش السلطان صلاح الدين الزاحف على مواقع الافرنج في هذه الديار

وترجل الفارسان ، وتعانقا طويلا ، وجلسا على حافة الطريق ، فوق صخرة تشرف على البحر الهادىء ، وجعلا يتبادلان الحديث والذكريات ...

***

كان فيليب دورسال الفرنسى جنديا في خدمة الكونت رودمير ، الذى كان يحارب في صفوف الصليبيين ، ويتنقل من ميدان الى ميدان برجاله وعتاده ، على حسب الظروف والاحوال ومقتضيات الحروب

وحدث ذات يوم ، فى إحدى المعارك التى دارت رحاها في جبال نابلس ، أن انتحى فيليب ناحية من ميدان القتال ، فاذا به أمام جريح يفقد دمه بغزارة ويئن من الألم . فاقترب منه الجندى الفرنسي وعرف فيه بطلا عربياً مشهوراً ، كثيراً مارآه فيليب في الميادين ، وكان الافرنج أنفسهم يعترفون له بالشجاعة ويقرون له بالبسالة ، لأنه لم يكن بين أبطال ذلك العهد المجيد من ينكر على صاحب الفضائل والخصال فضائله وخصاله

كان الجريح يطلب ماء ، فحمله اليه فيليب ، وعندما روى العربى ظمأه ، فتح عينيه وتمتم قائلا :

— اقتلنى الآن ايها الجندى الصليبي ، فاني أرحل عن هذا العالم قرير العين بعد أن وفيت الواجب حقه . وأرجو أن يكون النصر في هذه الموقعة لاعلام المسلمين !

فقال له فيليب :

— وهل سمعت يا ابن الاكارم أن أحداً من رجال رودمير اجهز

على جريح أو تهجم على اعزل ؟ لقد عرفتك يا عامر التهامى ، وشاهدت فعالك في الميادين . وثق أن الجندى الذى تراه الآن أمامك يجل فيك الشهامة والاباء : سأنقذ حياتك. وقد تسنح لك الفرصة في مستقبل الايام فتنقذ حياتى !

وانتهت تلك المعركة بانهزام المسلمين. ولكن فيليب دورسال الفرنسى لم يلحق برفاقه ، عند ما اندفعوا في مطاردة اعدائهم ، بل ركب جواده ، وحمل معه عامراً التهامى الجريح ، إلى مكان منعزل في الجبل ، حيث قضى ليلته بقربه ، وضمد جراحه ، وأعاد اليه الحياة

وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين ، فانتقلا معاً إلى جبال لبنان ، حيث أقاما مدة من الزمن، بعيدين عن الحصون والقلاع وساحات القتال

وكانت الحوادث تتتابع وتتسارع في أثناء ذلك ، ونيران الحرب تندلع السنتها في كل مكان بين المسلمين والصليبيين . فقال عامر ذات يوم لفيليب :

— أي صديق . انني أحن إلى ديار أهلى ومضارب عشيرتى . فسأقصد إلى وادي التيم حيث ينزلون ، وأقضي بينهم مدة من الزمن، ثم أبعث اليك باخباري أو أوافيك في عزلتنا هذه !

فأجابه فيليب :

— انى أدرك ياصديقى الدافع الذي يحملك على ذلك ، لانني أشعر به أيضاً ، وأرغب مثلك في الذهاب إلى الأهل والخلان . فسأقصد من ناحيتى الى عكاء حيث ينزل رجال رودمير ، وبينهم اخوتى وأبناء عمى. ولن تفرق الأيام بيننا يا عامر

وافترق الصديقان على أمل اللقاء !

وكان اللقاء في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة . فقد حل عامر التهامي في مضارب عشيرته بوادي التيم ، وقوبل

بالتهليل والتكبير ، وكان القوم يظنونه ميتاً . وعلم الرجل أن الملك الناصر يوسف صلاح الدين قد أوفد رسله إلى القبيلة يطلب قيامها الى القتال ، والتحاقها بجيش المسلمين في طبرية

وعلم فيليب على أثر وصوله الى عكاء أن الملك « جي » الصليبي قد اوفد رسله إلى الامارات والحصون والقلاع المسيحية ، يطلب من رجالها الاستعداد للحرب، وموافاته إلى بحيرة طبرية للقاء المسلمين والقضاء على جيشهم

ورأى عامر ، ورأى فيليب ، أن الواجب يقضى على كل منهما بالسير حيث تأمر السلطة العليا . وأراد كل منهما قبل اللحاق باخوانه أن يعود إلى صديقه ويودعه الوداع الاخير

واتجه عامر الى عكاء للقاء فيليب ...

واتجه فيليب الى لبنان للقاء عامر ...

وشاءت المصادفات أن يلتقيا في ذلك الطريق المؤدي من صور الى عكاء . . .

فكان بينهما حديث وكانت دموع وكان فراق ! فسار كل من البطلين العدوين الصديقين ، إلى حيث يدعوه الواجب ، ملبياً نداء الدين والملك

***

قرر صلاح الدين السير في القتال الى النهاية ، وانتزاع الاماكن المقدسة من ايدى الصليبيين وأمرائهم وأقيالهم وأساقفتهم ، فاطلق الحرب من عقالها ، ونادي بقومه أن هبوا إلى الجهاد قبل أن يعد الاعداء عدتهم للدفاع ، وتصل الامداد التى وعدوا بها من بلاد الغرب، والتي تحملها اليهم سفنهم العديدة فوق مياه البحار

وانقضت سنة كاملة والحرب سجال بين الفريقين . فتارة يضحك النصر للمسلمين وتارة يعبس في وجوههم . وسالت الدماء حول اسوار

المدن وفوق قمم الجبال وفي بطون الاودية ، من عكاء الى اورشليم الى نابلس الى الكرك والصحراء

وأراد السلطان أن يضرب ضربة قاضية ، عند ما بلغه ان جيشا لجباً يقطع البحار الى سواحل المسلمين . فحشد كتائبه في الكرك والشوبك . ووافاه هناك جيش من حلب بقيادة زين الدين داردم ، وجيش من دمشق بقيادة قيماز النجمي ، وجيش من البادية بقيادة مظفر الدين كوكي ، وغيرها من الجيوش جهزها الامراء والقواد من حدود مصر الى تخوم العراق ، فزحف السلطان بتلك القوة الهائلة الى بلدة طبرية الحصينة

وكان الافرنج من ناحيتهم قد جمعوا جموعهم وساروا للقاء المسلمين ، قبل أن يصلوا الى ساحل البحر ، فالتحم الجيشان في موقعة فاصلة ، في يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميلاد

قاتل الفريقان قتال الاسود ، وقد أيقن كل منهما أن الأرض المقدسة ستؤول الى من يعقد له النصر في تلك المعركة ، فاشتبكت الركاب بالركاب ، وتطايرت الرءوس عن الاعناق ، وارتفعت صيحات المحاربين الى كبد الفضاء ، وغاصت قوائم الجياد في انهر من الدماء ، وتساقطت الجثث أكداساً فوق أكداس . وبعد ساعات من طعن وضرب لم يدون التاريخ مثلهما ، تمايلت صفوف الافرنج ، ودب اليأس من الفوز في صدورهم ، ورأى الجنود خمسة من امرائهم يهوون على الارض مجندلين ، فصاح أحدهم : « العدول عن القتال خير وأوفى ! » فردد آخرون هذه الكلمات . وما هي الا ساعة حتى تراجعت كتائب الصليبيين ، واندفعت تطلب النجاة في جبل حطين

وألهب انهزام العدو صدور المسلمين حماسة ، فانطلقوا في مطاردة

الصليبيين، وأحاطوا بهم في حطين إحاطة السوار بالمعصم ، فتحولت المعركة الى مذبحة هائلة ، ولم ينج من الافرنج ـ وكان عددهم نحو ثمانين الف فارس وراجل ـ غير بضعة آلاف طلبوا الأمان من صلاح الدين . فأمر السلطان بالكف عن القتال ، وأخذ الاسرى إلى قلاع المسلمين في بلاد الاسماعيلية

وعندما اجتمع قواد الجيش الظافر ، بعد معركة طبرية وحطين ، حول سلطانهم المحبوب المطاع ، قال لهم صلاح الدين :

ـ لقد دون جيشنا الباسل اسمه اليوم في جبهة الدهور . ويحق للمسلمين بعد هذا النصر المبين ، أن يجعلوا من جبل حطين كعبة ثانية ، يحجون اليها مكبرين مهللين مستبشرين !

* * *

ـ وماذا تريد يا عامر أن تصنع بهذا الرجل ؟

ألقى صلاح الدين هذا السؤال على عامر التهامى ، فأجاب البطل العربى :

ـ مولاي ، وعدتنى في ميدان القتال ، عندما مررت أمامك وسيفى مخضب بدم الاعداء ، أن تجيبني الى رغبة واجدة أفضي بها اليك بعد انتهاء المعركة . وها قد جئت إلى مولاى طالباً منه الوفاء بالوعد . وما كان صلاح الدين يوما من الحانثين !

ـ جئتني اذن يا عامر تطلب العفو عن جندي مسيحي ، حاول في الميدان أن يضرب بسيفه عنق صلاح الدين ! فان ذلك الأسير الذي تحدثني عنه ، هو بعينه ذلك الرجل الذى اشتبك سيفى بسيفه ، وكان يريد أخذى على حين غرة

ـ أعلم ذلك يامولاي . ولو كان ذلك الرجل جنديا خاملا ، لما رأيت منى اهتماما بأمره . لكنه من أبطال الصليبيين المعدودين ، ومن فرسانهم المغاوير . وقد أنقذ هذا الرجل حياتي ، فاقسمت أن أنقذ حياته ،وأقابل

صنيعه بمثله ، عندما تسنح لى الفرصة ، وقد سنحت اليوم !

طلب صلاح الدين أن يؤتى اليه بذلك البطل الصليبي ، فساق الجنود اليه فيليب دورسال ، صديق عامر التهامي ورفيقه وصاحب الفضل عليه

فقال صلاح الدين :

— لقد حاولت قتلنا ياهذا ، ونحن الآن نعفو عنك ! فهل تحفظ لنا جميل الذكرى على صنيعنا هذا ؟

فأجاب فيليب ، بعد أن ألقى نظرة على حاشية السلطان :

— أيها المولى ! انك تعفو عني اجابة لرغبة عامر التهامى ، الذي أنقذت حياته فأراد اليوم أن ينقذ حياتي . فلست إذن مديناً لك بعطف أو معروف . وانما أنا مدين بهما الى هذا الصديق الوفي . ولولاه لما عفوت عني ، بل لضربت عنقى !

فمد صلاح الدين يده إلى فيليب دورسال وقال :

— وددت والله لو لم يطلب عامر العفو عنك ، لكى أصدر ذلك العفومن تلقاء نفسى، مكافأة لك على صراحتك، واعترافاً منى بشجاعتك . فصافح أيها البطل هذه اليد التىلم تصافح غيرايدي الشجعان الصناديد . لقد أجبت عامراً التهامي الى رغبته ، وعفوت عنك ، وأضيف علىذلك انني لن احتفظ بك أسيراً ، وأنك يا أخي حر طليق !

* * *

هجر عامر عشيرته ، وهجر فيليب قومه ، وعاش الاثنان معاً ثلاث سنوات كاملة ، في جبال السامرة ، وأقاما في صومعتين ، وانعكف كل منهما على الصلاة والعبادة على حسب تعاليم دينه ، وكان الناس يقصدون اليهما للتبرك منهما ، والاصغاء إلى ارشاداتها

وأبديا رغبتهما لكل من كان يقترب منهما ، في أن يرقدا رقادهما الاخير جنباً إلىجنب ، فيجبل الزيتون في اورشليم ، سواء أكانت المدينة

المقدسة في إيدي المسلمين أم في ايدى الصليبيين

وفي سنة ١١٩٣ للميلاد ، كان الصاعد الى جبل الزيتون ، يرى تحت شجرة وارفة الظل ، قبرين صغيرين ، يعلو أحدهما شاهد من حجر ، ويعلو الآخر صليب من خشب

فقد نفذت رغبة الصديقين الأخيرة . ونام الاثنان نومهما الابدي في ظل تلك الشجرة ، في سفح جبل الزيتون . وللمرة الأولى في التاريخ ، تجاورت الشارتان ـ صليب فيليب وشاهد عامر ـ وكان ذلك دلالة ملموسة على أن القلوب في استطاعتها أن تتصافى ، مهما كانت العقائد الدينية الراسخة في الصدور ، وأن الناس جميعاً إخوة في السراء والضراء ، والدين للديان !

***

أراد الشيخ طوقان المقدسي أن يقول لابراهيم ، القائد العظيم الذي أسكره النصر فراح يقلب ظهر المجن للذين كانوا له عوناً على اعدائه ، إن التفاهم خير من التخاصم ، وإن في استطاعة المصريين ان يعيشوا مع ابناء البلاد التى فتحوها في صفاء وهناء . فقد ختم الشيخ قصته بهذه الكلمات :

ـ أكبر صلاح الدين يا مولاى عاطفة الاخلاص عند رجلين ، فعفا عن جندى من جنود الاعداء . أفلا يجمل بك أنت يا ابن محمد علي أن تكبر عاطفة الاخلاص عند أمة بأسرها ، فتمتنع عن محاربتها في عاداتها وتقاليدها ، وهى التي حاربت معك الاعداء ، وامتزجت دماء ابنائها بدماء جنودك في الميادين ؟

سكت ابراهيم باشا هنيهة ، ثم قال :

ـ قد تكون مصيباً فيما ذهبت اليه أيها الشيخ . ولكن أوامر ابي صريحة ولا سبيل الى مخالفتها !

***

خشى محمد على باشا ان ينتقض عليه السكان في فلسطين وسورية ولبنان ، كما انتقضوا من قبل على الدولة العثمانية ، فاراد أن يحتاط للامر ، ووقع في ذلك الخطأ الشنيع

وكان السكان يقولون : « يظهر أن عزيز مصر يريد أن يتغدانا قبل أن نتعشاه ! »

وأضمروا له الشر منذ ذلك الوقت

والغريب في ذلك كله ، أن الذين انتقضوا على ابراهيم باشا وجيشه ، في بادىء الامر ، هم المسلمون والدروز ، وأن الذين ظلوا له موالين مخلصين ، هم النصارى اللبنانيون

قامت الثورة الاولى إذن في فلسطين ، واستمرت ستة أشهر كاملة ، وقعت في خلالها ، بين الثائرين وجنود ابراهيم ، معارك ومناوشات عديدة ، كان فيها النصر تارة لهؤلاء وتارة لاولئك ، إلى أن نجحت سياسة التفريق التي عمد اليها ابراهيم لتهدئة الحالة ، فانتهت الثورة بالقضاء على القائمين بها ، وفرار بعض زعمائهم إلى الصحراء

وبينما كان ابراهيم يحارب الثوار الفلسطينيين بنفسه ، قامت ثورة أخرى في دمشق في شهر مايو (ايار) سنة ١٨٣٤ . فقضى عليها شريف باشا في مهدها

وتآمر سكان طرابلس على الفتك بالحامية المصرية ، فسار اليهم الامير خليل ، ابن الامير بشير الشهابي ، على رأس الف مقاتل من نصارى لبنان ، ففتك بهم ، وقبض على زعمائهم ، وانقذ الحامية المصرية من الهلاك . وكان ذلك في شهري يونيو ويوليه (حزيران وتموز) سنة ١٨٣٤

وما هدأت الحالة في طرابلس ، حتى قامت ثورة أخرى في صافيتا وعكار وحصن الاكراد . فزحف القائد المصري سليم بك والأمير خليل وفرسانه اللبنانيون على الثائرين ، في شهري اغسطس وسبتمبر

(آب وايلول) سنة ١٨٣٤ ، ففر العصاة من وجه الجيش الزاحف ، وقبض سليم بك والامير خليل على زعمائهم ، وأرسلوهم إلى اللاذقية وطرابلس مكبلين بالحديد ، فنفى بعضهم إلى قبرص

ولكن تلك الانتصارات لم تضع حداً للقلاقل ، بل تضاعف بسببها عدد الخصوم والاعداء ، ولم يعد في استطاعة ابراهيم أن يطمئن على سلامة جيشه ، وأن يعتمد على أحد من حلفائه السابقين ، غير الامير بشير وابنائه وسكان لبنان الموارنة

- ١٨ -

انشودة العيد

كان « عبدالله آغا عذرة » صاحب قلعة « المرقب » بين الزعماء الذين قبض عليهم سليم بك والامير خليل ، في ثورة عكار . وكان إبراهيم باشا يعلم ان ذلك الزعيم العنيد يكرهه كرها شديداً . فأصدر أمره باعدام الاسير لانه أهان ضابطاً مصرياً واشترك في الثورة علناً

ونفذ حكم الاعدام في عبدالله آغا عذرة ، في سوق اللاذقيـة ، ودهش المصريون عندما سمعوا ، في اثناء اعدام الرجل ، أصوات النساء ترتفع بالغناء

نعم ، كانت النساء التابعات لعبدالله آغا عذرة ، ينشدن باصوات تقطع نياط القلوب ، أنشودة حزينة ، تعرف عندهن بانشودة العيد ولهذه الانشودة قصة . . .

* * *

كانت تلك الليلة ليلة عيد في قلعة «المرقب» حيث اجتمع الاشراف والفرسان حول زعيمهم قائد ذلك الموقع الحربي المنيع . وتلألأت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتساماتهن الحلابة . وارتفعت في ارجاء المكان أنغام الموسيقى الوترية والاناشيد الدينية والقومية

كان القوم يحتفلون بعيد الميلاد ، وذلك في سنة ١١٧٢ مسيحية ، وقد

عقدوا مع اعدائهم هدنة ، تعهد الفريقان بالامتناع عن الحروب والغزوات في خلالها

وكان الصليبيون والمسلمون يلجأون إلى ذلك فى المواسم والاعياد ، فلا تنطلق السيوف من أغمادها ، إلا بعد انقضاء المدة المتفق عليها

أما قلعة « المرقب » التي كان يقام فيها الاحتفال ، فقد بناها العرب في سنة ٤٥٥ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٦٣ مسيحية ، في بلاد « الاسماعيلية » أو « الحشاشين » كما كانوا يسمونهم ، على قمة جبل يشرف على البحر . وكان في استطاعة من يقيم في تلك القلعة أن « يراقب » الطريق المؤدية من طرابلس الى انطاكية ، والطرق المتشعبة منها الى المناطق الجبلية الداخلية . ويعرفها الافرنج باسم قلعة « ماركا » اما العرب فقد أطلقوا على ذلك الحصن اسم « قلعة المرقب »

وانتزع ذلك الموقع المنيع من العرب ، القائد الصليبي روجيه أمير انطاكية ، في سنة ١١١٧ للميلاد . وانتقلت القلعة فيما بعد الى « فرسان الهيكل » الذين تعهدوا بالاحتفاظ بها ، والسهر منها على سلامة المواصلات ، بين حصون الافرنج وقلاعهم على سواحل سورية ولبنان

***

وفي تلك الليلة التي كان الفرح فيها شاملا ، وصل إلى أسوار الحصن الخارجية فارس عربي ، طلب من الحراس أن ينزلوا المعبر على الخنادق المملوءة بالماء ، لكي يدخل الحصن ويقابل قائده ، ما دامت الهدنة قد أعلنت ، وما دامت الايام أيام عيد ، لاحرب فيها ولا قتال ، ولا غدر ولا خيانة

وترجل الفارس ودخل القلعة . وما وقع نظر الحراس عليه حتى عرفوه ، لانه كثيراً ما كان يتردد على قائد الموقع

وعندما بلغ خبر وصوله مسامع المجتمعين في قاعة الحصن الكبرى ،

لم يظهروا شيئاً من الامتعاض ، بل وافقوا على أن يشاركهم الضيف الغريب في فرحهم ولهوهم ، وأوفدوا اليه رسولا يدعوه للدخول

لكن الفارس لم يدخل ، بل أفضى الى الرسول برغبته في أن يرى الفتاة « بلانش » ربيبة سيد الحصن ، لانه سائر الى ميادين القتال ، ويود أن يودعها ويودع حماة الموقع في شخصها

ولم يمانع أحد من الجالسين في قاعة الحصن في خروج الفتاة للقاء الفارس العربي ، لانهم كانوا جميعاً على بينة من أمرها ، يعلمون أن الفارس أنقذ حياتها في احدى الغزوات ، وأنها تحمل له في صدرها عاطفة محبة قوية ، ممزوجة بالاحترام وعرفان الجميل

***

هرولت بلانش الى صحن القلعة ، حيث كان الفارس العربي ينتظرها ملتحفاً بردائه الأبيض ، تحت البرج الشاهق القائم في وسط المكان

وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعي ذلك الغريب ، قائلة بصوت يبدو فيه القلق والاضطراب :

ــ علاء الدين ! علاء الدين ! ماذا أسمع ؟ أعائد أنت الى الميادين حقاً كما انبثت منذ لحظة ؟ ألا يعيد اذن سلطانكم الشجاع السيوف الى الاغماد والراحة الى النفوس ؟ أكتب لكم أن تقضوا حياتكم كلها في كر وفر وهجوم ودفاع ، تتقاذفكم الاقدار من نصر الى هزيمة ومن هزيمة الى نصر ؟ أما لهذه الحالة من آخر ياعلاء الدين ؟

فضم الشاب العربي الفتاة إلى صدره ، وداعب جدائلها المسترسلة ، وقال بصوت لا يقل اضطراباً وقلقاً عن صوتها :

ــ هكذا شاءت الاقدار يا بلانش، بل هكذا شاءت الامم الافرنجية التي تنتمين اليها ، والتي دفعت جحافل الصليبيين الى هذا الشرق . انني أقوم بواجبي كعربي ومسلم في صفوف العرب والمسلمين ، كما يقوم

أصدقاؤك وبنو قومك بواجبهم كافرنج ونصارى ، في صفوف الصليبيين .
أتريدينني حانثاً بالعهود ، جاحداً لسادتي ، محجما عن تلبية نداء الدين ـ ديني أنا يا بلانش ؟

— كلا يا صديقي . لا أريدك هكذا ، بل أريدك دائماً أبداً حافظاً للعهود ، طائعاً لسادتك ، أول الملبين للنداء . لقد أنقذت حياتي ياعلاء الدين من موت محقق . وكنت في ذلك اليوم العصيب مثال النبل والشرف والمروءة . وانني أحفظ لك الجميل على حسن صنيعك ، كما أن قومي يقرون لك بذلك الصنيع الحسن . فأنت هنا دائماً بين أصدقاء أوفياء ، سواء أكنا في أيام حرب أو في أيام سلم . ولكنني أرغب اليك في شيء واحد وهو أن لاتطيل غيبتك عني ، وأن تزور هذا الحصن مرة أو مرتين في السنة ! هذا كل ما أطلبه منك . وأعدك بأنني سأفكر فيك ليلا ونهاراً ، وأرفع صلواتي إلى الله عز وجل — إلى الله الذي يعبده قومي كما يعبده قومك ياعلاء الدين — بان يدفع عنك الاذى ، ويحفظ حياتك ، ويجعلك سعيداً ... سعيداً كما أريد أنا أن تكون ... سعيداً على الخصوص في الحب ياعلاء الدين !

— وهذا ما أرجوه لك ياصديقتي !

— حقق الله رجاءنا ! وسأطلب من الله ايضاً ، في هذه الليلة التي نحتفل فيها بميلاد السيد المسيح ، أن لايسمح بموت احدنا بعيداً عن الآخر !

— وسأطلب منه أيضاً أن لا يغمض عيني للمرة الاخيرة إلا بالقرب منك يا بلانش . الوداع !

— بل إلى اللقاء يا منقذى من الموت . إلى اللقاء القريب ! كن شجاعاً ، ولكن لا تجازف بنفسك ولا تقتحم المخاطر طائشاً

— الى اللقاء . ! .

***

رحل علاء الدين السنجارى عن حصن المرقب فى ذلك الليل الذى أراد الله أن تكون السماء فيه صافية الاديم مرصعة بالنجوم . وغاب الفارس العربى الكريم عن الانظار متغلغلا في الظلام ، والفتاة مطلة من أعلى البرج الشاهق، ناشرة خمارها الابيض ، مشيرة به لتحية الصديق المسافر ، بينما كانت الرياح تداعبها بلفحاتها الباردة

وأجهشت الفتاة فجأة بالبكاء ، فأفلت الخمار الابيض من يدها ، وحملته الرياح على أجنحتها ، ودفعت به الى حيث تمتد الطريق الوعرة ، من أسوار الحصن إلى أسفل الجبل

ونظرت بلانش إلى الخمار في طيرانه ، وما هي إلا دقيقة واحدة ، حتى سمعت الفتاة صوتاً بعيداً عرفته من نبراته ، يصيح فرحاً :

— سأحمله في صدري ، وسيكون لى درعاً يرد عني أسنة الرماح ! إلى اللقاء !

***

في يوم من أيام الشهر الثاني عشر سنة ١١٩٢ للميلاد ،الموافقة لسنة ٥٨٨ هجرية ، وصل مدينة طرطوس ، في رابعة النهار ، شيخ هرم ، يجر نفسه جراً ، وعلى ظهره كيس مهلهل يحمل فيه قوته ، وفي وجهه أثر جرح بليغ ، وشعوره البيضاء تجلل رأسه وتتساقط على كتفيه

كانت المدينة فى ذلك اليوم في فرح ، لان الكنيسة التى شيدها الصليبيون ، وهدمها السلطان صلاح الدين يوسف في غزوة سنة ١١٨٨ قد أعيد ترميمها واصلاحها ، بعد أن عقد الصلح بين السلطان وريكاردوس قلب الاسد . وكان الناس في ذلك اليوم يقيمون الزينات استعداداً للاحتفال بعيد الميلاد

مر الشيخ الغريب في المدينة قاصداً الى الكنيسة الكبيرة ، فالتقى في ساحتها بكاهن جليل من كهنة الصليبيين فسأله قائلا :

— أفي استطاعتك يا حضرة الاب أن تعطيني أخباراً عن حصن المرقب ومن يقيم فيه الآن ؟

— نعم يا أخي . في استطاعتي أن افعل ذلك إذا كان الامر يهمك . أقاصد أنت الى ذلك الموقع المنيع ؟

— نعم . إنني أسير اليه على قدمي ، منذ شهور

— إن الحصن لا يزال كما كان منذ عشرات السنين ، في حوزة فرسان الهيكل

— والفتاة بلانش ؟ أتعرف عنها شيئاً ؟

— الفتاة بلانش ؟ لقد زرت القلعة في العام الماضي ، ولكنني ما عرفت فيها فتاة بهذا الاسم . غير أن في الحصن اليوم سيدة تدعى « بلانش » هي زوجة الكونت هكتور ، الذي بلغت مسامعك بلا شك أنباء انتصاراته الباهرة ووقائعه الرائعة . إن زوجته تدعى بلانش ، نعم . وابنته الصبية تدعى كلوتيلدة . . .

— آه . . شكراً لله . . استودعك الله !

— بسلامة الله يا أخي !

***

وكانت تلك الليلة أيضاً ليلة عيد في قلعة المرقب ، حيث اجتمع الاشراف والفرسان في سنة ١١٩٢ ، كما كانوا مجتمعين في سنة ١١٧٢ ، فتلألأت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة ، وابتساماتهن الخلابة ، وارتفعت في ارجاء المكان انغام الموسيقى الوترية والاناشيد الدينية والقومية

وكان القوم يحتفلون ـ في تلك الليلة ايضا ـ بعيد الميلاد السعيد
وفي سكون الليل ارتفع وراء الاسوار صوت يطلب من الحراس الاذن بالدخول

من يكون ذلك الشيخ المتهدم ؟ انه بلا شك درويش حط عليه الزمن ، أو متسول قذر ، أو حاج نذر لله السير على قدميه إلى بيت المقدس

أنزل له الحراس المعبر فدخل . وجلس في ناحية من الساحة قائلا للجند انه يرغب في رؤية السيدة زوجة الكونت هكتور . فامتعض الجند ولكنهم حملوا الخبر الي السيدة ، لان التقاليد تقضي بان لا يرفض لاحد طلب فى أيام الاعياد

خرجت بلانش الى ساحة الحصن ، واتجهت الى الركن الذى جلس فيه الغريب ينتظر . فاذا بها أمام رجل لا تعرفه

— بلانش !

انبعثت هذه الكلمة من فم الغريب الشيخ ، فانتفضت المرأة لسماعها هذا الاسم ينطلق فجأة من بين شفتين مرتجفتين ، وقالت بدهشة ممزوجة بشيء من الغضب :

— من أنت ؟

— أنا . . .

سكت الرجل وعض على شفتيه . ثم وضع يده في صدره ، وتناول منه شيئاً نشره أمامه . فاذا بالمرأة ترى خماراً ابيض ، ناصع البياض ، يخفق مضطرباً وقد لعبت به خطرات النسيم !

— علاء الدين !

— نعم علاء الدين يا بلانش !

— انت ؟ على هذه الحالة ؟ هنا ؟ . . انهض . انهض من مكانك وقص علي قصتك

— لا . لا استطيع النهوض ، فقد خارت قواي . وما جئت الى هنا إلا لكي أقضى نحبي في هذا الركن المنعزل من أركان حصنك يا بلانش

— هكتور . . . هكتور . . .

دوى صوت السيدة في ارجاء القلعة ، فاسرع الكونت هكتور ، زوجها ، تصحبه ابنته ، وهي في الخامسة عشرة من سنها

— هكتور . لقد افضيت اليك غير مرة ياحبيبي العزيز بما حدث لى من زمن بعيد ، يوم هاجمنا الاعداء وأحدق بى الخطر من كل صوب ، فأنقذنى فارس عربي شهم نبيل

— علاء الدين ؟

— انظر : انك ترى منقذي أمامك !

— هذا الشيخ الهرم ؟

فرفع علاء الدين رأسه ، وقال بصوت عادت اليه نبرات الشباب :

— ان هذا الشيخ الهرم أيها المولى ، لم يبلغ بعد الخمسين من العمر . لكن الويلات والمصائب التى حلت به ، والعذاب الذى قاساه ، والضرب المبرح الذى تحمله بصبر وأناة ، كل ذلك جعله يشيخ قبل الأوان !

كانت بلانش قد جلست على الأرض بجانب منقذها ، وأرهفت أذنيها تستمع اليه ، فقال :

— وقعت أسيراً في حروب عسقلان منذ عشرين سنة . فقادنى الصليبيون الى قلاعهم وحصونهم . ثم أرسلوني مع من أرسل من إخواننا العرب الى بلادهم ... نعم الى بلادكم أيها المولى ، حيث طافوا بنا كما يطوف المروضون بوحوشهم ، لكى يتفرج علينا الناس فى المدن والقرى والحقول !

— ماذا تقول يا علاء الدين ؟

— الحقيقة . وقد فررت من الأسر ، وهمت على وجهى في بلاد لا أعرف لغة أهلها . فسرت من قطر الى قطر ، متنكراً ، باسطاً يدى للتسول ، أتحمل العذاب وشظف العيش ، وليس لي غير أمنية واحدة

وهي أن أرى بلادي قبل أن أموت ، وأن أموت في هذا الحصن يا بلانش!

— ستعيش يا علاء الدين . ستعيش وسننسيك نحن ما الحقه بك بنو قومنا هناك من ضرر !

— ما جئت لكي أعيش بل لكي أموت . وقد حقق الله رجاءنا يا بلانش : أما طلبنا منه هنا ، منذ عشرين سنة ، ألا يسمح بموت أحدنا بعيداً عن الآخر ؟ وقد أراد الله أن تغمض عيني بيديك . انني أشعر بالحياة تنسل من جسمي انسلالا ، فاقول لك اليوم يا بلانش : الوداع ! الوداع الأخير ! إن هذه الليلة ليلة عيد عندكم يا كونت .فارجو ألا تعكروا على أنفسكم صفو هذه الافراح . انكم تحترمون ارادة الميت الأخيرة . وارادتي الاخيرة هي أن تدفنوني في سفح هذا الجبل ، بين تلك الصخور الشاهقة ، وأن يكون ذلك على أنغام الموسيقى ، وعلى لحن أنشودة العيد ، التي كانت بلانش الفتاة تغنيها منذ عشرين سنة ، والتي أرغب الى بلانش الزوجة والأم أن تغنيها الليلة أيضاً !

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١١٩٢ ، دفن علاء الدين السنجاري في سفح الجبل ، على طريق قلعة المرقب ، على أنغام أنشودة العيد . وأبت صديقته بلانش ، التي أنقذها من الموت فكان نصيبه الاسر والتعذيب والتشريد ، الا أن تقيم على قبره شاهداً حفرت عليه هذه الكلمات باللغة العربية : « في ذمة الله . انا لله وانا اليه راجعون ! »

***

وجعل الناس يتناقلون منذ ذلك العهد البعيد ، أنشودة العيد هذه ، حتى اذا ما نسيها قوم ، وضع غيرها قوم آخرون . وظل السكان في أفراحهم وأتراحهم على السواء ، وفي أيام الحروب والقلاقل والثورات ، وفي أيام السلم والطمأنينة ، يغنون « أنشودة العيد » التي تجمع بين الحب والشجاعة والفروسية والاخلاص . وسواء أ كان صاحب قلعة

« المرقب » مسيحياً أم مسلماً ، عربياً أم اجنبياً ، فان « أنشودة العيد »
كانت تنتقل الى صاحب القلعة بانتقال القلعة اليـه ، كأنها جزء متمم
للحجارة الصماء ، والاسوار الضخمة ، والابراج الشاهقة ، التي يؤلف
منها ذلك الحصن المنيع

وهذا ما جعل النساء — في اليوم الذي أعدم فيه عبد الله آغا عذرة
في اللاذقية ، ينشدن على مسمع من الجند المصرى « أنشودة العيد ! »

— ١٩ —

الشيطان فى الدير

اذا توغلت في صحراء سيناء ، ممتطياً متن جواد أو راكباً سيارة أو سائراً مع الاظعان « تطوى البيد طياً » ـ فعرج على ذلك الدير المنعزل الذي يبدو لك هناك ، في سفح جبل موسي ، أشبه بقلعة حصينة ، شيد أسوارها أقوام من المردة لصد غزوات الغزاة وغارات المغيرين

ذلك الدير يعرف الآن بدير « القديسة كاترينا » ويتضح من الوثائق والمخطوطات المحفوظة فى مكتبته القيمة ، أنه شيد في المكان الذى ظهر فيه الرب لموسى الكليم ، وسلمه لوحة الشريعة والوصايا

واذا وصلت الى ذلك الدير ، وولجته بعد استئذان الرهبان المقيمين فيه ، فاذهب مسرعاً الي تلك المكتبة ، وابحث بين وثائقها ومخطوطاتها ، اذا كنت من هواة البحث في مجاهل التاريخ وحوادثه المطموسة المبهمة ، فانك سوف تخرج من بحثك بنتيجة تجعلك تستهين بالتعب الذى عانيته للوصول الى ذلك الدير

وبين الحوادث التي تضمها أوراق السجلات القديمة في دير القديسة كاترينا ، قصة « شيطانين »

الشيطان الاول يدعى تيوفيلوس . . .

والشيطان الثاني يدعى فوزان الادرعى . . .

ولنبدأ بقصة الشيطان الثاني !

***

ترك ابراهيم باشا أعوانه وضباط جيشه وحلفاءه اللبنانيين يحاربون الثائرين في الشمال ، وانصرف من ناحيته الى مطاردة العصاة في فلسطين ، فكان يقود الحملات بنفسه ، ويخوض غمار المعارك في مقدمة جيشه . وكان الثائرون يستبسلون في القتال . غير ان الدائرة كانت في معظم الاحيان تدور عليهم ، فيهرعون الى الجبال أو الى الصحراء ، واثقين أن الجيش المصري النظامي لن يقتفي أثرهم ، وأن ابراهيم باشا لن يخاطر بنفسه وبرجاله فيلحق بهم

وكان بين الثائرين في جبال نابلس ، شيخ من عربان الصفاء ، يقود كوكبة من الفرسان ، ويشن الغارة على مخازن الجيش ومستودعات أسلحته ومؤونته وذخيرته . واسم ذلك الشيخ « فوزان الادرعى » نسبة إلى مدينة درعا

عجز ابراهيم عن اخضاعه ، وعزم في النهاية على أن يسير اليه بنفسه على رأس قوة كبيرة ، فلا يعود أدراجه الا والشيخ فوزان في قبضته

ظن ذات يوم انه وصل الى بغيته ، عندما أحدق جيشه بهضبة وعرة فسيحة ، قيل له ان عدوه معتصم فيها . ولكن الجيش لم يجد في تلك الهضبة أحداً ، فان الشيخ فوزان الادرعى كان قد أخلاها وابتعد برجاله عنها ، قبل أن يصل اليها ابراهيم باقل من ساعة

غير ان القائد المصرى وجد في كهف صغير ، رمحاً مرتكزاً إلى صخرة ، وفي سنانه ورقة كتبت عليها هذه الكلمات :

« لا تحاول المستحيل يا ابراهيم فالقبض على الشيطان أهون عليك من القبض على فوزان ! »

فاستشاط القائد المصري غيظاً ، وانطلق من جديد في طلب غريمه . . .

وكانت مطاردة جنونية ، في الجبال والسهول ، والهضاب والصحاري

وبعد خمسة أيام لم يفز فيها ابراهيم بطائل ، جاءه أحد جواسيسه بالخبر اليقين : « الشيخ فوزان الادرعى نفذ الى سيناء وقصد إلى دير السيدة كاترينا القائم في وسط الجبال . »

فصاح ابراهيم :

— الى الدير !

***

عند ما أشرف القائد المصرى على مسكن الرهبان ، أمر جنوده بالنزول عن خيولهم ، وأوفد الى الدير رسولا يطلب من رئيسه الاسراع لمقابلة « الباشا »

ولم يصل الرسول الى الدير ، لانه التقى في الطريق بالرئيس قادما الى المعسكر مع بعض الرهبان . فعاد معهم الى ابراهيم ، وكان قد جلس في خيمته ينتظر رجوع الرسول

نهض ابراهيم وخف الى باب الخيمة لاستقبال القادمين ، والابتسامة على فمه ، وبادرهم قائلا :

— لست أضمر لكم شراً أيها النساك الابرار . لكننى أطلب اليكم أن تخرجوا الرجل الذى فزع اليكم ، وتطلقوه في هذه الصحراء ، لأنى لحقت به لكى أثبت له ان القبض عليه أسهل من القبض على الشيطان ، خلافا لما يقول

فأجابه الرئيس :

— ان لفوزان الادرعي يا مولاي الايادى البيضاء على هذا الدير . فانه حليف الرهبان من قديم الزمان . وقد أخلص لنا أعوانه الود في السراء والضراء . وعند ما جاءنا منذ يومين هاربا من وجهك ، القينا اليه الحبال من فوق أسوارنا ، ورفعناه مع رجاله الى داخل ديرنا . لان هذا الشيخ المسلم يجد نفسه في أمان واطمئنان بين رهبان النصارى

سكت ابراهيم وجعل ينظر الى رئيس الدير ، وهو معتقد ان الرهبان سيرفضون تسليم الضيف الى عدوه

واستطرد الرئيس قائلا :

— غير ان الشيخ فوزان الادرعي أيها الامير ، كان يعتقد في هذه المرة ان نجمه قد أفل ، وانه واقع في قبضتك بلا ريب ، وان منافذ النجاة قد سدت في وجهه

فقاطعه ابراهيم قائلا :

— نعم . لانني كنت عازما على مطاردته الى النهاية ، واللحاق به الى حيث يذهب

فقال رئيس الدير مبتسما :

— لم يكن فوزان الأدرعي خائفا منك ايها الامير ، لانه لم يعرف الخوف في حياته ، ولان فعاله منذ نعومة أظفاره الى الآن جعلتنا نطلق عليه اسم « شيطان الصحراء ! » واذا قال لك صديقنا إن القبض على الشيطان أهون من القبض عليه ، فصدقه يا مولاى !

— إذن . . . لماذا قال فوزان الادرعى إن نجمه قد أفل وإن منافذ النجاة قد سدت في وجهه ؟

فمسح رئيس الدير دمعة ترقرقت بين جفنيه ، واجاب :

— لانه سقط عن سور الدير وهو يتدلى إلى الداخل ، فكسرت ساقه ، واصبح عاجزاً عن الحراك

فوجم ابراهيم وقال متأثراً :

— اذن ، لقد عفونا عنه !

— لكنه لم يعد في حاجة الى عفوك . فقد مات منذ ساعة ، عند ما أقبلت علينا برجالك

— كيف ؟

— كان فوزان الادرعي يحمل معه سما زعافا ، يعده لمثل هذه الساعة . وقد تجرع السم عند ما تراءى له شبح العار من بعيد . فان ذلك العربي يا مولاي كان يؤثر الموت على الوقوع اسيراً !

سكت الرئيس هنيهة ، ثم نهض مستأذنا وهم بالانصراف وقال :

— انتم ضيوفنا اليوم أيها الامير . فقد رحل رجال فوزان الادرعى ، وتوغلوا في الصحراء تاركين لنا جثة زعيمهم . وسنحتفل بدفنها غداً ، فنواريها التراب في سفح هذا الجبل ، على مقربة من المكان الذي يضم رفات « شيطان الدير »

نهض ابراهيم ومد يده لمصافحة الرهبان ، ووعدهم بانه سيزورهم قبل غروب الشمس ، ويشترك في اليوم التالى في الاحتفال بدفن الميت وشيع زائريه الى خارج الخيمة . ولكنه استوقف الرئيس وسأل مستفهما :

— ومن يكون « شيطان الدير » الذى عزمتم على دفن « شيطان الصحراء » بجانب قبره ؟

فاجاب الرهبان بصوت واحد :

— هو تيوفيلوس !

* * *

فمن هو تيوفيلوس ؟

لندع ابراهيم باشا يأخذ نصيبه من الراحة في خيمته ، ولننطلق وراء الشيطان الاول ، بعد ان تركنا الشيطان الثانى جثة هامدة يغسلها الرهبان بأيديهم ويكفنونها ويعدونها للمقر الاخير

* * *

جلس الامبراطور يوستينوس الثانى على عرش بيزنطة في سنة ٥٦٥ للميلاد ، على أثر وفاة عمه يوستينيانوس الشهير ، زوج الامبراطورة

تيودورة ، المرأة الفاتنــة الجهنمية ، التى دونت اسمها في بطون التاريخ بأحرف لن تمحى ، والتى نبغت في ميادين السياســة والحب والحرب على حد سواء

وكانت الامبراطورة « صوفيا » زوجة الامبراطور يوستينوس ذات سلطان على زوجها ، كما كانت من قبل الامبراطورة تيودورة ذات سلطان على يوستينيانوس . كأن الاقدار أبت الا أن تـكون الامبراطورية الرومانية الشرقية في ذلك العهد ، خاضعة لارادة النساء دون ارادة الرجال

كانت صوفيا من النساء اللواتى لا يطفىء نيران قلوبهن وأجسامهن غير الحب العنيف والغرام الفاسد . فبحثت عن عشاق بين الاشراف والصعاليك ، والكهول والشبـان . وجعلت نفسها مشاعاً بين هواة الحوادث الغرامية وطلاب الحب الممنوع . فأعادت الى بيزنطة ، من هذه الناحية ، عهد تيودورة ، ابنة مروض الوحوش التى رفعها جمالها الى سرير الملك

أحبت صوفيا من الرجال أشكالا وألوانا ، وضافت في مخدعها نماذج من جميع الاجناس والمذاهب . فمر في ذلك المخدع ليوم واحد أو ليلة واحـدة ، الروماني والبيزنطي والسورى والفينيقى والعربى والمصري والبربري

ولم يقف في وجه الامبراطورة المتعطشة الى الغرام ، الباحثة في كل مكان عن الرجال الأشداء الاقوياء ، غير رجل واحد ، أو بالحرى فتى واحد ، زجر المرأة ولم يؤثر فيه اغواؤها . وبلغ به الامر الى ضربها بعصاه ضربة مؤلمة على كتفها ، كتمت الامبراطورة خبرها ، لا خوفا من الشاب الذى لم يكن له حول ولا طول ، بل خوفا من العار والفضيحة

ذلك الفتى هو تيوفيلوس الرومي ، الجميل الطلعة، المفتول الساعدين، الساحر العينين

جاء به الامبراطور يوستينوس من قرية نائية ، حيث كان الشاب يرعى الماشية ويروض الخيول ويصارع الثيران . وجعله جندياً ثم ضابطاً في حرسه . غير أن الشاب ظل محتفظاً بخلقه الريفي ، وطبعه الشرس ، وظل عائشاً بين الناس كما كان عائشاً من قبل بين الحيوانات

رأته الامبراطورة وهي تطوف في ثكنات الجند ، في احدى ليالي الشتاء الباردة . وكان الشاب عاري الذراعين والصدر والظهر ، يداعب فرساً جامحاً ويحاول اخضاعها ، والعرق يتصبب من جبينه

راق الامبراطورة منظر ذلك الفتى القوى الشجاع ، الذي لا يؤثر فيه البرد ، والذى لا يحتاج لاتقائه الى الاصواف والفراء

وحاولت المرأة ان تغري الرجل وتستهويه . لكن تيوفيلوس لم يؤخذ بحبائلها ، ولم يدع لسهام عينيها منفذاً الى صدره . فحنقت عليه الامبراطورة العاشقة العاتية ، وأضمرت له الشر وبيتت له الانتقام

***

سايرت الاقدار يوستينوس في بادىء الأمر ، وساعدته الظروف والاحوال، فانتصر على اعدائه الكثيرين ، ورد القبائل عن تخوم مملكته الشاسعة ، وأعاد الى شعبه الطمأنينة . ولكن المجهود العظيم الذى بذله ذلك الامبراطور في صيانة ملكه وتنظيم شؤونه ، أدى به الى خطر لم يكن فى الحسبان

اقدم الامبراطور فى سنة ٥٧٣ على اعمال تنم عن اضطراب عقلي ظاهر . فعهدت الامبراطورة صوفيا الى اشهر اطباء المملكة فى فحصه ، واتضح لهم ان يوستينوس مشرف على الجنون

وفي سنة ٥٧٤ ثبت لدى الامبراطورة ولدي الاطباء وعظماء المملكة ، أن المسكين مصاب بالجنون ، وأنه لابد من اختيار أشخاص يتولون الحكم بجانبه

وفي انتظار ذلك ، جعلت الامبراطورة تصدر الاوامر إلى أتباعها باسم زوجها ، بعد موافقة الامبراطور المعتوه عليها . وكان أول أمر أصدرته صوفيا ، موقعاً عليه باسمها ، ممهوراً بختم الامبراطور يوستينوس ، أمراً بنفي تيوفيلوس ، الضابط في الحرس ، الى دير جبل سيناء ، بحجة أن الرجل مسكون وأن شيطاناً رجيماً قد اتخذ من جسمه مقراً له !

تهمة باطلة كانت عقلية القوم في ذلك الوقت تميل الى تصديقها . وقد ساعدت طباع الرجل الشرسة على اثبات التهمة واصدار الامر بالنفى

وأرسل تيوفيلوس الرومي ، الذى احتقر الامبراطورة وزجرها ورفض ما عرضته عليه من غرام أثيم ، الى دير سيناء للاقامة فيه بين الرهبان والنساك ، الى أن يطرد الشيطان منه وتغادره الروح الشريرة ؟

عبثاً حاول الرجل أن يدافع عن نفسه ، وأن يثبت أن ليس للشيطان علاقة به . وأخيراً ثار ثائره ، فأهوى بعصاه مرة أخرى على الامبراطورة صوفيا ، أمام وزير الامبراطورة « تيبيروس » فاتخذ عمله هذا برهاناً جديداً على حلول الشيطان فيه

ولكن تيوفيلوس لم يلبث أن أصيب بالجنون . على أثر وصوله الى الدير وحبسه فيه ، خرج ذات يوم من الحجرة التى كان مسجونا فيها ، بعد أن كسر قيوده وتخلص منها ، وصعد الى أعلى الاسوار والقى بنفسه الى الخارج فسقط على الارض جثة مهشمة هامدة

ولم يدفن تيوفيلوس أو « الشيطان » كما كان يسميه سكان الدير في المقبرة التى يرقد فيها الرهبان والنساك رقادهم الاخير . بل نقلت جثته الى سفح الجبل ، ودفنت فى حفرة بين الصخور ، حيث تبنى النسور

وكناتها ، ولم يقبل أحـد من الرهبان ان يتلو على قبر « الشيطان » صلاة الاموات ، لان الله لا يقبل نفس من اتخذه ابليس مقراً له

ولو حفرت بين الصخور ، فى الناحية الشرقية ، لعثرت على عظام الشيطان تيوفيلوس ، الذي راح ضحية الظلم والاستبداد ، والذى يعتقد الناس أن روحه قد ولت الى الجحيم مقر الشياطين ، بينما هم يعتقدون ان روح الامبراطورة صوفيا الفاجرة ، تقيم فى جنة الخلد بين الملائكة والابرار والقديسين !

* * *

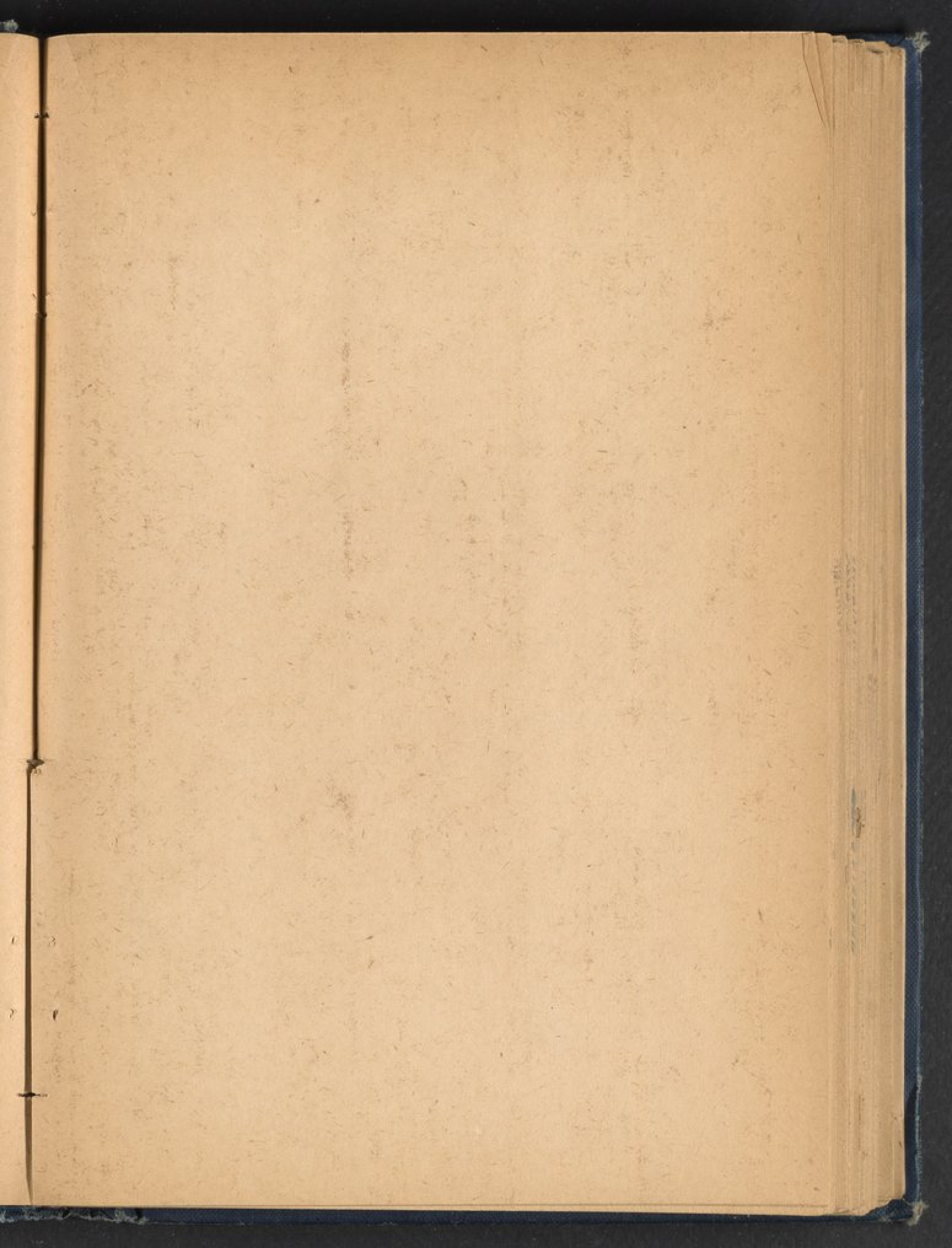
بجوار ذلك المكان ، الذى كان الرهبان يعتقدون أن عظام تيوفيلوس مدفونة فيه ، حفر الجماعة حفرة وأعدوها لدفن جثة صديقهم وحليفهم فوزان الادرعى

وفي اليوم التالي ، شهدت تلك الصخور الصماء والحجارة البركانية والرمال السوداء منظراً لم تألفه من قبل

فقد حمل الرهبان المسيحيون على أكتافهم نعش ذلك الشيخ العربى المسلم ، ومشوا به الى مقره الاخير ، بين صفين من الجنود المصريين

وامر ابراهيم جنوده بأن يحيوا الميت التحية الاخيرة ، ويرافقوه بصلاتهم . فارتفعت اصوات الجنود بالتكبير ، على انغام النواقيس التى كانت تنقرها ايدي الرهبان !

ورقد شيطان الصحراء بجوار شيطان الدير !



- ٢٠ -

سيف الأمير

كان ذلك اليوم يوم فرح وحبور في الاسرة الروسية العريقة في الحسب والنسب ، فأقيم مهرجان فخم احتفالا بزفاف الاميرة الشابة ، ابنة رب البيت الوحيدة ، وهى من أبرع فتيات روسيا جمالا ، وأفتكهن لحظاً

وكان العريس ضابطاً في الجيش النمساوي ، خاض غمار حروب كثيرة ، وسافر الى روسيا حيث التقى بالفتاة الفاتنة في حفلة ساهرة ، فعلق بها وهامت به ، ولم يتردد والدها في أن يزفها إلى ذلك الجندي الباسل

وبعد حفلة الزفاف ، تقدم الامير الروسى من صهره وبيده سيف بديع الصنع مرهف النصل ، وقال :

— ليس عندي يا بني هدية تليق بك اكثر من هذا البتار ، الذي خرج من مصانع روسيا في الجيل الخامس عشر ، ونقشت عليه من الجهة الواحدة صورة العذراء مريم عليها السلام ، ومن الجهة الاخرى صورة الصليب المقدس وبعض الصلوات ، التى اذا ما تلاها حامل السيف قبل خوضه المعركة ، كتب له النصر وفاز على عدوه فوزاً مبيناً . فخذه يا صديقى وتقلده ، وليحفظك الله ويدفع عنك شر الانسان وعاديات الزمان !

فأخذ الضابط « ورمزر » السيف التاريخي من يد الامير ، ووضع على صورة العذراء قبلة ورع واحترام ، ثم على جبين زوجته قبلة حب وهيام ، وتقلد السيف وبسط ذراعه مقسما وقال :

— لن أخون وصيتك ابتاه !.. ستسمع عن فعالي وهذا السيف الى جنبي ، مايسرك ويطربك. أما اذا قلب لي الدهر ظهر المجن واضطررت الى تسليمه ، فانني لن أسلمه إلا الى بطل أرفع مني شأناً واكثر حظوة لدى إله الحرب والسلام !

***

سنة ١٧٩٧

سنة دموية مروعة، نفخ فيها ملوك أوربا وطغاتها في أبواق الحرب ، وجردوا جحافلهم الجرارة ، وسيروها إلى ميادين القتال ، لاطفاء نيران الثورة الفرنسية المتأججة ، ودرء الخطر الدائم المنبعث من ذلك البركان الباريسي ، حيث قام أبناء الشعب ورفعوا عقيرتهم صائحين :

— إن للشعب حقوقا هضمتموها يا أرباب التيجان ، وعليكم نحو رعاياكم واجبات تقاعستم عن ادائها ، فالشعب الآن ينتقم لنفسه وينهض من سباته ، طالباً أن ترد اليه تلك الحقوق ، ساعياً اليها بحد الحسام ورؤوس الحراب !

وتدفقت جيوش الثورة على الدول الاوربية ، تقتحم المدن وتحرر الامصار ، وتصدت لها جيوش أوربا بأسرها ، ترد غزواتها وتدفع خطرها

واجتاز القائد بونابرت جبال الالب . وانحدر بجيشه على ربوع ايطاليا . فسحق الجحافل النمساوية سحقاً ، ووصل الى أبواب مدينة « مانتو » الحصينة فأحاطها برجاله ، وضيق على حاميتها الخناق فاضطر قائدها الى التسليم

ولم يكن ذلك القائد الذي خانه القدر غير الضابط ورمزر ، زوج الروسية الحسناء وحامل السيف المجيد التاريخي . وقد عهد اليه مليكه بعد أن أنعم عليه بلقب « قائد » بالدفاع عن مانتو وصد غارة الفرنسيين عن حصونها

أرسل ورمزر سيفه الى بونابرت مع هذه الكلمات :

— أقسمت ألا أسلم هذا الحسام الا الى بطل أرفع مني شأناً وأكثر حظوة لدى إله الحرب والسلام . وها قد وجدت ذلك البطل . فخذ السيف وادخل المدينة ظافراً منصوراً

***

سنة ١٧٩٩

سنة أخرى دموية مروعة . انتقلت فيها الحرب من الغرب الى الشرق ، فنزل الجيش الفرنسي الى السواحل المصرية ، وزحف على فلسطين وسورية لانشاء مملكة عربية واسعة ، يكون بونابرت الشاب رأسها وسلطاناً عليها

لكن انجلترا كانت للقائد الشاب بالمرصاد . فأرسلت اساطيلها الى عكاء وصافحت حاكمها احمد الجزار ، ووضعت قواها تحت تصرفه للدفاع عن مدينته

وكان ما كان من حصار وكر وفر وأمراض تفتك بوحدات الجيش الفاتح فتكا ذريعاً . فهال بونابرت الامر وبحث عن حليف يساعده على العدو العنيد ، وقرر أن يطلب النجدة من الاسد اللبناني بشير الشهابي الكبير ، الرابض في عرينه ، هناك في « بيت الدين »

أرسل القائد الشاب الى الامير كتاباً يطلب فيه المدد بالرجال والمؤونة ، وأرسل مع الكتاب سيفاً وقال :

— هو السيف الذي سلمه إلي قائد حامية مانتو النمساوية عربون

خضوعه . فخذه يا أمير الجبل هدية مني ودليل اخلاص ومودة .
وأسرع إلى برجالك للاستيلاء على عكاء ، والمناداة بك ملكا على لبنان

فأخذ الامير السيف وأرسل يقول للفرنسي :

— سأسرع اليك برجالي ، ولكن بعد استيلائك على عكاء !

فكان أمير الجبل أشد دهاء من القائد الفتى، وعاد الجيش الفرنسي أدراجه الى مصر ، وذاق بونابرت حينذاك للمرة الاولى طعم الانهزام المر . . .

***

مضت على ذلك الحادث ثلاثون سنة . فرأت ربوع فلسطين جيشاً آخر يتدفق عليها من الجنوب ، فلا يحول دونه جيش الا ويمزقه تمزيقاً . ذلك أن عزيز مصر وواليها محمد علي الكبير أراد أن يمثل الدور الذي فشل فيه بونابرت . فأرسل ابنه ابراهيم على رأس جنوده ، وأمره ألا يعود اليه إلا حاملا مفاتيح الشام

وبعد الاستيلاء على غزة والتغلغل في جبال فلسطين ووهادها ، بعث ابراهيم الى صديقه بشير يقول :

— كن على استعداد لتنفيذ الخطة التي وضعناها في مصر ، عندما جئتنا زائراً ونزلت علينا ضيفاً

فكان الامير عند حسن الظن به . ومشى مع رجاله ، وقد تقلد السيف المعهود ، على عاصمة الامويين حيث كان القائد التركي يعد العدة للدفاع . وكانت موقعة « المزة » الشهيرة . وفي صباح اليوم التالي دخل الحليفان ابراهيم وبشير عاصمة سورية فاتحين

فنادى بشير ولده خليلا وقال :

— لقد خضت غمار المعركة والى جنبي هذا البتار الذي أرسله إلى بونابرت . فخذه يا بني وسر على رأس جيشك مع حليف أبيك . فهو

يليق بأكف الابطال ولم يحمله قبل اليوم غير الأبطال

وشهد خليل معارك سورية والاناضول مسلطا سيفه على رءوس الاعداء . ولم يخرج من واقعة الا والنصر حليفه وسيفه مخضب بالدماء

***

وحارب الامير خليل ابن الامير بشير الثائرين من أبناء البلاد بعد أن حارب الاتراك ، والسيف المشهور الى جنبه ، والنصر معقود الالوية له ولرجاله

واستراح السيف من غمده فترة من الزمن

ثم انطلق من جديد يلمع في الفضاء !

***

سنة ١٨٣٧

في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من تلك السنة قام الدروز بثورتهم الهائلة ، التى زعزعت مركز ابراهيم باشا في سورية ، وجعلت موقفه منذ ذلك الوقت محفوفا بالخطر . وفقد الجيش المصرى بقيام الدروز عليه ، معونة أشد السكان مراساً وأرسخهم قدما في الحرب ، وقتل من رجال ابراهيم عشرة آلاف بطل

ظل الدروز يحاربون المصريين ويفتكون بهم من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٧ الى شهر أوغسطس (آب) سنة ١٨٣٨ وكانوا يخوضون المعارك وهم ينشدون اناشيدهم ويرددون اهازيجهم الحربية :

حنا بني معروف نحمى الجار ولو جار

نهوى المزند فتيلك مانداريه

وسيوفنا الحدب تبري كل زنار

وسلاحنا لو صدى بالدم نجليه

اراد ابراهيم باشا ان يجند أولئك الدروز الذين لم يخضعوا قط إلا

لزعمائهم ومشايخهم . فكانت النتيجة أن هبوا في وجه دفعة واحدة ، وفتكوا بالحملة الاولى التي زحفت عليهم بقيادة علي أغا البصيلي

وسار اليهم محمد باشا على رأس قوة أخرى ففتكوا بها أيضاً وقتلوا قائدها

ولم تكن الحملة الثالثة التي كان يقودها احمد منيكلي باشا ويصحبها شريف باشا اوفر حظاً من سابقتيها . فقد انهزمت وقتل من رجالها عدد كبير ، وبلغت أخبار هذه الانتصارات دروز وادى التيم ولبنان فهبوا لنجدة اخوانهم

وكان الأمير خليل قد أوفد ابنه الأمير محموداً لمساعدة المصريين . فحاصره الدروز في حاصبيا وأسرع الامير خليل الى نجدته وبيده السيف المعهود

وتمكن الامير من انقاذ رجاله . وابتعد الدروز الثائرون عن لبنان بقيادة شبلي العريان زعيم تلك الثورة ، وانضموا الى اخوانهم في حوران واللجاه وجبل الدروز

ورأى ابراهيم ان لاسبيل الى اخضاع الثائرين الا بالقيام اليهم على رأس جيش لجب . فطلب نجدة من أبيه ، وفي شهر ابريل (نيسان) سنة ١٨٣٨ ، كان ابراهيم قد حشد في حوران عشرين الف مقاتل ، قسمهم الى أربع فرق تولى قيادة إحداها . ووضع على رأس الفرق الثلاث الاخرى شريف باشا وسليمان باشا الفرنساوي ومصطفى كامل باشا

ووقعت بين الفريقين معارك قال ابراهيم إنها فاقت بهولها ماسبقها من معارك بين جيشه والاتراك . وظل الدروز يحاربون اربعة شهور أخرى ، تارة في اللجاه وتارة في وادى التيم ، الى أن تم الاتفاق بينهم وبين ابراهيم على التسليم والاخلاد الى السكينة ، مقابل اعفائهم

من التجنيد والضرائب والسخرة والسماح لهم بحمل السلاح
وكان ذلك في ٢٢ اوغسطس (آب) سنة ١٨٣٨

***

لعب آل الاطرش في تلك الثورة التى قام بها الدروز في حوران واللجاه دوراً عظيماً . وهم الذين آلت اليهم فيما بعد الزعامة على جبل الدروز ، في ظروف نلخصها فيما يلي :

كان جبل الدروز في قبضة الامراء الحمدانيين ، فتوسعوا في الحكم وبسطوا سلطانهم على السهول المجاورة وعلى القبائل الضاربة علىحدود الجبل . ولكنهم كانوا طغاة ظالمين مستبدين . فدب الكره شيئاًفشيئاً في نفوس أتباعهم.وأخذ الزعماء الآخرون يتحينون الفرص للانقضاض عليهم وانتزاع السلطة من أيديهم

وكان آل الاطرش فى مقدمة أولئك الزعماء وعلى رأسهم الشيخ اسماعيل . فجمع الرجل اعضاء أسرته وطلب اليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لاغتنام الفرصة السانحة ، والاستفادةمن الطوارىء

وشاء القدر فيذلك لوقت أن يمر في مدينة «عرى» عاصمة الحمدانيين بائع مواسى جاء الجبل لتصريف بضاعته

لكن المسكين أساء الاختيار ، لانه دخل بلاداً لا يحلق أهلها لحاهم، بل يعتبرون حلق اللحى عاراً شنيعاً ، وكان الدرزي فيذلك الوقت يقسم بلحيته كما يقسم بشرفه أو بالعزة الالهية

وصل البائع الى عري وطلب المثول بين يدى امير الجبل . فاذن له الحمدانى ودخل . ولما علم بأمره وبالاسباب التي حملته على طلب المثول بين يديه ضحك والتفت اليه قائلا :

— يخيل إلى يا هذا أنك غريب عن هذه الديار. فاعلم أنه لايوجد عندنا من يحلق لحيته لكي نشترى منك المواسى . ولكنك سوف

تجد في « القرية » من يبتاع مواسيك كلها . فاذهب الى الشيخ اسماعيل الاطرش واعرض عليه بضاعتك !

قال الحمدانى هذا تهكما بخصومه الطرشان . ولم يفطن بائع المواسى الى تلك الحيلة ، فاكب على يد الزعيم يقبلها ، شاكراً له نصيحته ، مؤكداً أنه سيسرع الى « القرية » مقام اسماعيل الاطرش وأسرته ويعرض عليهم مواسيه للبيع !

***

نزل الرجل ضيفاً على شيخ القرية ، عملا بالتقاليد المرعية هناك ، وفاتحه في أمره راجياً منه أن يبتاع ما يشاء من المواسى وأن يساعده على تصريف الباقى بين أفراد أسرته

فانتفض الشيخ اسماعيل وسأل البائع :

— من أوفدك إلى يا رجل ؟

فاجاب المسكين :

— عرضت بضاعتى على الحمدانيين فأعرضوا عنها ، وقالوا لى إننى لن أجد في الجبل كله من يحلق لحيته إلا أنت وأهل بيتك

فثار ثائر الشيخ للاهانة التى لحقت به ، وأدرك أن الحمدانى قد اتخذ ذلك البائع الجاهل آلة بيده وواسطة لتحقيره واذلاله . فنادى رجال بيته ، ولما أحاطوا به تناول المواسى من حقيبة الرجل وصاح بقومه :

— ليأخذ كل منكم موسى !

فوقع الجميع في ارتباك وحيرة ، وسألوا زعيمهم :

— ما معنى هذا ؟

فأجاب اسماعيل والشرر يتطاير من عينيه :

— إنها هدية من الحمدانى ! ذهب اليه هذا البائع الغريب وعرض

عليه مواسيه ، فأرسله الينا قائلا : إن عشيرة الطرشان هي الوحيدةفي جبل الدروز التى يحلق رجالها لحام !

فصدرتمن الصدور صرخة واحدة :

— إنها لاهانة !

— وأية اهانة ! لا يغسلها إلا الدم !

ولمع في قبضة كل منهم حسام مسلول
فسأل الشيخ اسماعيل وهو يكاد يختنق غيظاً :

— الى أين ؟

فكان الجواب واحداً :

— الى عرى !

***

جمع آل الاطرش جموعهم ، وانضم اليهم الاصدقاء والانصار ، فهاجموا الحمدانيين في عاصمتهم وعقر دارهم ، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة لا يزال الرواة يتحدثون بها . فتم النصر للشيخ اسماعيل وأبناء أسرته ، وانتزعوا من الحمدانيين الزعامة ونادوا بشيخهم وكبيرهم زعيما على جبل الدروز

والفضل في ذلك كما رأيت عائد الى بائع المواسي ، الذى لولاه لما تأججت نيران الغضب فى قلوب الطرشان ، ولما هبوا كرجل واحد للانتقام من عدوهم ومحو العار الذي لحق بهم

***

أخلد الدروز إذن الى السكينة . وأعادوا السيوف الى أغمادها . وعاد الصفاء الى ما كان عليه بينهم وبين المصريين من ناحية ، وبينهم وبين الموارنة أنصار الامير بشير الشهابى من ناحية أخرى

وعاد سيف الامير خليل الى غمده أيضاً
ولكن الى حين !

***

سنة ١٩١٣

كان الناس يتوافدون لزيارة سيدة جليلة في مدينة « جونيه » الصغيرة ، الواقعة على سفح جبل كسروان من جبال لبنان ، مظهرين احترامهم لتلك السيدة ، وهي غصن باق من الدوحة الشهابية العظيمة

« الست ملكة » هو الاسم الذى تعرف به أرملة الامير فايز الشهابى ، ابن الامير سعد ، حفيد سيد لبنان بشير الشهابى الكبير

وكان السيف الاثري المجيد في حوزة « الست ملكة »

ولكن للايام علواً وهبوطاً وعزاً وشقاء ، كما أن للجيوش في ميادين القتال كراً وفراً ونصراً وانهزاماً

كان الامير بشير غنياً ، وكان أحفاده لايملكون شيئاً

دارت الايام دورتها ، وأصبح أسياد الامس أفراداً من أبناء الشعب، بل ان الكثيرين من أبناء الشعب كانوا أوفر مالا من أسياد الامس

لكن أحفاد الامير العظيم كانوا أغنياء بتاريخهم المجيد ، وبالآثار التى احتفظوا بها عن آبائهم وأجدادهم

***

في شهر يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٢٧ ، نشرت الصحف في مصر الخبر الآتى :

« تكثر الصحف من الكتابة عن سيف الامير بشير الشهابي الكبير حتى باتت حكاية هذا السيف حديث المجالس في بيروت

« فانه بعد ما قرر مجلس الوزراء اللبنانى شراء هذا السيف من

وارثته الشرعية انبرى لشرائه وارث آخر هو الامير كامل عامر شهاب من أحفاد الامير الكبير »

* * *

فماذا حدث ؟

حدث أن السيدة الجليلة ، صاحبة السيف الاثرى ، اضطرت الى التخلي عنه

ذلك لأنها كانت فى حاجة الى المال . . .

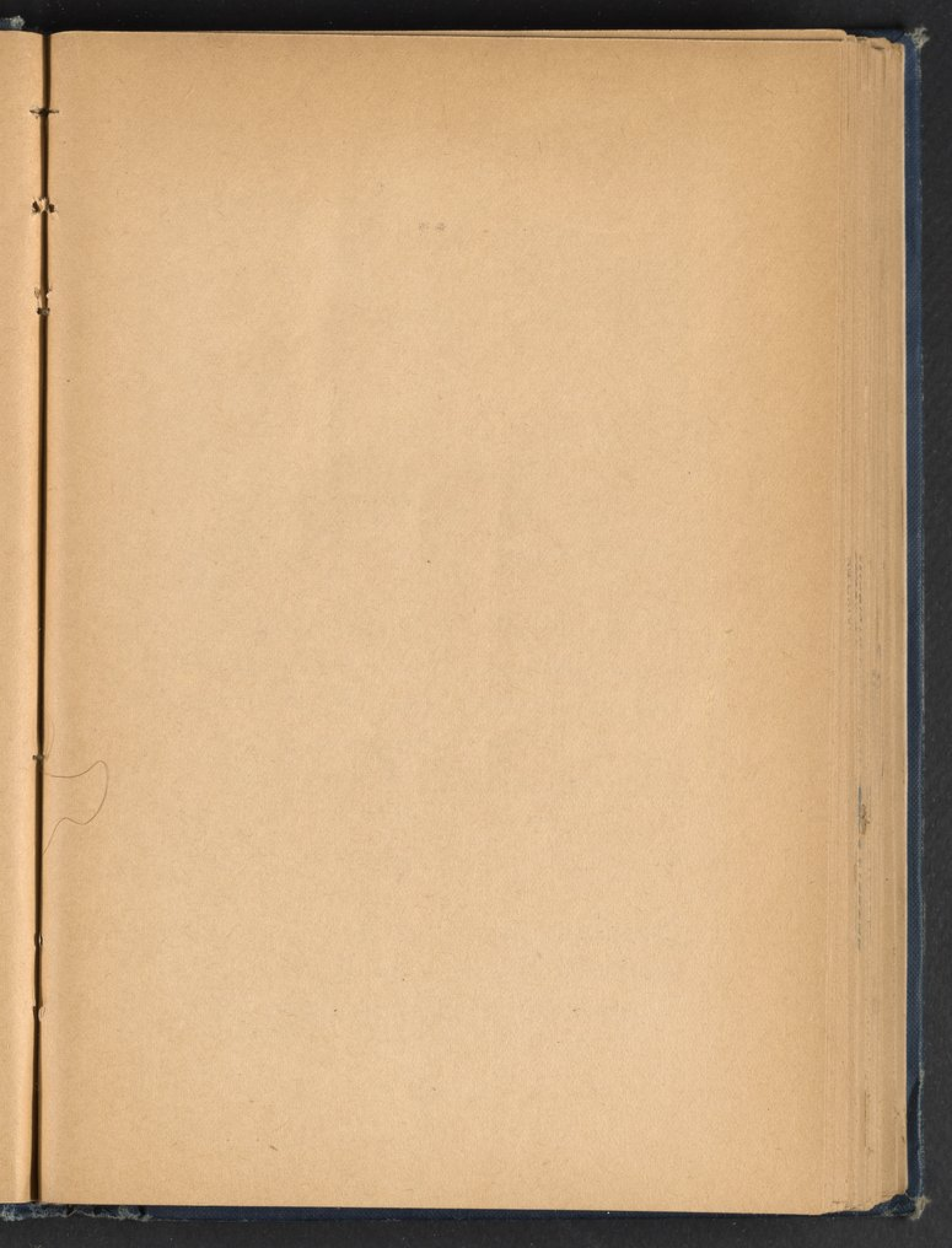
يالقسوة القدر ! . . حفيدة بشير تضطر الى بيع سيف بشير بعد أن كان بشير قابضاً على ثروة لبنان من أدناه الى أقصاه !

وتدخلت الحكومة في الامر وياله من تدخل شنيع معيب . . .
أرادوا أن يشتروا سيف الامير من حفيده الامير ، فحددوا له ثمناً خمسين ذهباً . . .

خمسون ذهباً لسيف يعود تاريخه الى الجيل الخامس عشر ، شهد المعارك في جبال الكربات والالب ، وفي سهول ايطاليا ، وفي ربوع مصر ، وفي وهاد فلسطين ، وفي لبنان وسوريه والاناضول ، وتقلده قواد وأمراء يعتز بهم التاريخ ويمجد العالم أسماءهم

لكن أميراً شاباً ، من الاسرة الشهابية ، هب لدفع هذا العار عن السيف الاثري ، بل عن حكومة بلاده ، فقدم مبلغاً من المال يفوق ما دفعته تلك الحكومة ، فحال دون المقايضة على هدية بونابرت مقايضة التجار على السلع

هذا ما فعله في سنة ١٩٢٧ الامير الشاب كامل عامر الشهابي ، الذي استحق شكر وطنه وأبناء عشيرته ، فاحتفظ « بسيف الصورة » — كما يسمون ذلك الاثر النفيس — وظل سيف الامير لاسرة الامير



- ٢٢ -

الساحرة

كان العظماء والصعاليك على السواء يستشيرون تلك الساحرة ويعتقدون في صحة تنبؤاتها

فقد استشارها نابوليون بونابرت فكانت معه صادقة

واستشارها ابراهيم باشا فكانت معه صادقة

واستشارها آخرون فكانت مع الجميع صادقة

ما اسمها ؟

لم تبح به لاحد . وكان الناس يعرفونها باسم « الساحرة » فقط

هل هي مصرية أم عربية أم تركية أم شركسية ؟

***

— أيها الجنود ! من أعلى هذه الاهرام أربعون قرناً تنظر اليكم !

بهذه الكلمات خاطب بونابرت جنوده ، وقد امتدت صفوفهم المتراصة في السهل وتأهبت لصد هجمات « مراد بك » وفرسانه . وكانت موقعة انتهت بانهزام المماليك وعرفت تلك المجزرة الدموية في التاريخ باسم « معركة الاهرام » أو « معركة انبابه »

وفي اليوم التالى توجه بونابرت إلى المضارب التى تحولت الى مستشفيات ، يتفقد الجرحى والمشوهين ، ويعزي أولئك الجنود المساكين ، الذين بقوة سواعدهم يفتتح الغزاة الاقطار والامصار ، وبدمائهم تشرى الصوالجة والتيجان

طاف القائد في ذلك المكان يسأل كلا من أولئك الجرحى عن اسمه وحالته ، حتى وقف أمام فتى لم يتجاوز بعد العشرين ربيعا ، وقد اصيب في وجهه بضربة سيف قطعت أذنه اليسرى وفلذة من فكه الاسفل :

ـ من هذا ؟

ـ شاب مصرى طلب أن يقاتل المماليك في صفوفنا فأجبناه الى طلبه ، وقد أصيب بهذا الجرح وهو ينجد أحد رجالنا

ـ حسناً . ابذلوا في سبيل انقاذه جهودكم ، وائتوني به بعد شفائه

وبعد خمسة أسابيع مثل الفتى المصرى بين يدى قائد الفرنسيين فسأله بونابرت بواسطة أحد التراجمة :

ـ ما اسمك وما هو الداعى الذى حملك على مقاتلة المماليك في صفوفنا ؟

ـ اسمي حسن ، وقد قاتلت في صفوفكم طلباً للانتقام

ـ ممن ؟

ـ من مراد بك

ـ ولماذا ؟

ـ لانه قتل أبى

ـ ولأى سبب قتله ؟

ـ لن أبوح بهذا السر لأحد يامولاي ، بل سأدفنه في صدري ، فيذهب معى الى القبر . لقد حاربت مع جنودك جنباً الى جنب ، وسأظل واحدا من رجالك والحق بك الى بلادك . فان الساحرة تنبأت لى بأنني سأموت بعيدا عن وطني

ـ أية ساحرة ؟

ـ لايوجد عندنا سواها ، وهى تقيم في غارها هناك على مقربة من الهرم الاكبر

وكان بونابرت يعتقد كثيراً بالخرافات والسحر ويقصد الى العرافين يستطلعهم الغيب . فما سمع كلام حسن المصري حتى أخذته الرغبة في أن يستطرق تلك الساحرة . فطلب من بعض قواده أن يرافقوه ، وسار في مقدمتهم الشاب حسن إلى مسكن المرأة

دخلوا ، واذا بهم في حجرة صغيرة ، لامنفذ فيها الا الباب الضيق كأنها نحتت في صخرة صماء لتقيم فيها الساحرة مع الارواح والابالسة، بعيدة عن موطن البشر في معزل عن العالم وضوضائه

كان القائد يظن أن عجوزاً شمطاء ستقابله في داخل ذلك الجحر . ولكن خاب ظنه ، إذ أن المرأة التي انتصبت أمامه كانت في مقتبل العمر ، جميلة الطلعة ، ترتدي ثوباً فاخراً ، وبيدها عصا كالصولجان . فاقتربت منه وحيته مبتسمة وقالت :

— أهلا بالقائد الأكبر

ثم التفتت الى الآخرين وحيتهم أيضاً ، ومدت يدها الى حسن فصافحته ، والقت نظرها على ماكان يحيط بها من تماثيل وحجارة وصدف ، ثم حدقت في بونابرت ، ووقفت واجمة لا تبدي حراكا

وكان في وسط الحجرة موقد أشعلت النار فيه فملأت المكان وهجاً ، وزادت الحرارة شدة والصدر انقباضاً ، وخيم السكون التام على الجميع . لكن صوت حسن ارتفع فجأة :

— تعلمين لماذا جاءك القائد مع حاشيته ، إذ لا يزورك أحد هنا إلا مدفوعاً برغبة واحدة . تنبئي إذن بالمستقبل . . .

جثت الساحرة أمام كومة من الصدف ، ثم نهضت وقد تناولت منه ملء قبضتها ، وتمتمت كلمات لم يفهمها أحد ، وبحركة رشيقة ألقت الصدف من يدها على قدمي بونابرت ، وأسرعت الى مرجل مملوء بالماء فنظرت فيه طويلا ، ورفعت رأسها ببطء وفاهت بهذه الكلمات :

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير !

***

كان لنبوءة الساحرة فى نفس بونابرت وقع شديد

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير !

ردد الفاتح هذه الكلمات ، ثم رددها ورددها أيضاً ، وكان يكثر من الطواف في ضواحي القاهرة ، فيقضي ساعات طويلة متنقلا بين مدافن الملوك والمماليك ، ناظراً الى نجمه يسطع في الفضاء سائلا نفسه :

— أيتحقق الحلم يا ترى ، وأعيد في هذا الشرق تشييد مملكة الاسكندر . فاجلس على عرشها ، وأدفن هنا ، في هذه القرافة ، فوق هذا التل المشرف على القاهرة ؟

ثم يشك في صحة تفسيره أقوال العرافة الجميلة ، فيتقطب جبينه ويعود الى سؤال نفسه :

— ماذا تعنى هذه المرأة ؟ أيبسم لى النصر اليوم ثم يعبس في وجهى غداً ، فاشيد مملكة لا أنعم بالعيش فيها ولا أتركها لابنائى من بعدى ؟

***

عاد الفرنسيون من مصر الى أوطانهم ، وكان بونابرت يسعى الى العرش الفرنسى بعد ماأفلتت منه عروش الشرق. فتم له ما أراد ، ودوخ الممالك وأسقط التيجان ودك العروش

وكان حسن ، الشاب المصرى ، قد تبعه الى فرنسا حيث ظل في خدمته واشترك فى جميع الحروب والغزوات والفتوحات

***

سنة ١٨١٥

خان إله الحرب أعظم قائد عرفه التاريخ . فسقط نابوليون الاول

عن عرشه وتشتت أنصاره والمقربون اليه فى طول البلاد وعرضها

***

سنة ١٨٢١

صعدت روح الرجل العظيم الى خالقها ، لتؤدى الحساب عما أتاه ذلك الرجل من حسنات وسيئات . . .

***

سنة ١٨٤٠

أصبح حسن المصري شيخاً جاوز الستين ، وكان يعمل فى حانة بباريس، يخدم الزائرين ويغنيهم أناشيد بلاده العربية

وفي تلك السنة عاد الى ذلك الجندى القديم شيء من الفرح والطرب ، عند ما تألبت جماهير الفرنسيين لاستقبال جثة الامبراطور ، وقد جاءوا بها من جزيرة القديسة هيلانة ، ذلك المنفى البعيد النائى ، عملاً بارادة نابليون وتنفيذاً لرغبته الاخيرة

وقد مات حسن بعد ما طعن في السن ، وتيسر له الوقوف أمام ذلك المعبود . ولعله كان يذكر حينذاك كلمات الساحرة :

— أرى عرشا كبيراً بجانب قبر كبير !

***

عندما عاد ابراهيم باشا الى مصر ، في سنة ١٨٣٥ ، خطر له أن يزور الساحرة في غارها ، حيث زارها من قبل نابوليون بونابرت ، وأن يستطلعها الغيب كما فعل القائد الفرنسى

وأعادت الساحرة تمثيل المنظر الذى مثلته من قبل

جثت أمام كومة من الصدف ، ثم نهضت وقد تناولت منه ملء قبضتها ، وتمتمت كلمات لم يفهمها أحد ، وبحركة رشيقة ، ألقت الصدف من يدها على قدمى ابراهيم ، وأسرعت الى مرجل مملوء بالماء ، فنظرت

فيه طويلا ورفعت رأسها ببطء وفاهت بهذه الكلمات :

— أرى جيشا ينطلق بسرعة الى الامام ، ثم يتقهقر بسرعة الى الوراء !

حدق فيها ابراهيم البصر مبتسما ، وهز كتفه وقال :

— اتعتقدين أنني جئتك لاستطلاع الغيب ؟ إن نجمي يا امرأة يسطع في الفضاء فيمزق نوره الحجب ، وينبئني بما كتب لي في صفحة القدر !

فاقتربت المرأة منه وقالت وهي تنظراليه وجها لوجه :

— كان بودي أيها القائد أن تكون الساحرة كاذبة وأن يكون نجمك صادقاً !

— وهذا ما سوف يكون !

— لننتظر ما يخبئه لك الغد . فان الغد لناظره قريب !

— لقد استطلعك بونابرت الغيب فهل صدقت معه نبوءتك ؟

— لا بد أن تكون قد صدقت معه ، ولا بد أن تصدق معك

— في اي عقد من السنين أنت ؟

— ليس للساحرات أعمار !

— في أي بلاد رأيت النور ؟

— في بلاد الجن وليس فيها مطامع ولا حروب !

— سوف أعود لزيارتك بعد ان يتم لي النصر

— لن تجدني في هذا المكان يا ابراهيم !

***

عاد ابراهيم الى سورية حيث كان الثائرون قد استأنفوا هجومهم . فكان ما كان مما ذكرناه ، ثم هدأت الحالة في داخل البلاد ، ولكن عقبات سياسية جديدة قامت في وجه الغزاة الفاتحين ، وأتمرت الدسائس الأوربية فعاد السلطان الى التحكك بابراهيم ، وفي شهر يونيه (حزيران)

سنة ١٨٣٩ ، زحف ابراهيم الى الامام لملاقاة جيش حافظ باشا

والتقى الجيشان في « نزب » في الرابع والعشرين من يونيه ، وطحن المصريون أعداءهم طحناً في تلك المعركة ، وفتحت طريق البواغيز من جديد أمام ابراهيم

ومات السلطان محمود الثانى في أول يوليه (تموز) سنة ١٨٣٩ ، قبل أن يبلغه خبر انهزام جيشه في نزب

* * *

سنة ١٨٤٠

أشد السنوات شؤماً على ابراهيم . . .

ففى تلك السنة انتقض عليه الاصدقاء الذين طالما عول عليهم في حروبه ، والذين لم يحسن السياسة معهم فقلبوا له ظهر المجن ، وثاروا في وجهه مع من ثار من أبناء البلاد الآخرين

أولئك الاصدقاء هم سكان جبال لبنان ، الذين أرهقهم ابراهيم بالضرائب وأصر على نزع سلاحهم واقامة نظام للحكم في جبالهم لم يألفوه من قبل . فتمردوا وثاروا على المصريين وعلى أميرهم بشير الشهابى ، الذي ظل الى النهاية مخلصا لحليفه ، فأفقده ذلك الاخلاص الامارة والحرية ، فمات منفياً بعيداً عن وطنه

بدأت الثورة اللبنانية في شهر مايو (أيار) ١٨٤٠

وكان يقود اللبنانيين في تلك الثورة بعض الامراء الشهابيين خصوم الامير بشير ، وبعض أمراء آل أبي اللمع ، والمشايخ آل الخازن وحبيش والدحداح ، والامير خنجر الحرفوش وابو سمرا غانم واحمد داغر وغيرهم من أبطال الحروب

ودارت رحى القتال بين الثائرين وجنود ابراهيم باشا . فكان النصر يحالف هؤلاء حينا وأولئك أحيانا . وما انتهت تلك السنة

المشؤومة ، حتى كانت الدول الاوربية قد اغتنمت الفرصة وتدخلت في الامر ، وشدت أزر الدولة العثمانية ، فمني الجيش المصري بخسائر فادحة ، واضطر الى التقهقر فالانسحاب شيئاً فشيئاً من البلاد . وكان انسحابه سريعاً كما كان زحفه من قبل سريعاً

وصدقت الساحرة !

***

كانت سنة ١٨٤٠ اذن خاتمة عهد المصريين في سورية ولبنان . فعاد ابراهيم الى مصر ، وانصرف مع ابيه الى ادارة الشؤون الداخلية بعد أن مني بالفشل في حروبه وغزواته . وسأل عن الساحرة التي لم ينس نبوءتها ، فقيل له إنها رحلت دون أن يعلم أحد مقرها

فتذكر ابراهيم ما قالته له في سنة ١٨٣٥ :

— أرى جيشاً ينطلق بسرعة الى الامام ، ثم يتقهقر بسرعة الى الوراء !

***

عكاء . . . الزراعة . . . قونية !

ثم نزب !

ثم ثورات ، فثورات ، فثورات !

لذة الانتصار — تعقبها بسرعة مرارة الانكسار !

ثم العودة الى مصر بعد ثمانية اعوام

صدقت الساحرة !

« تم الكتاب »

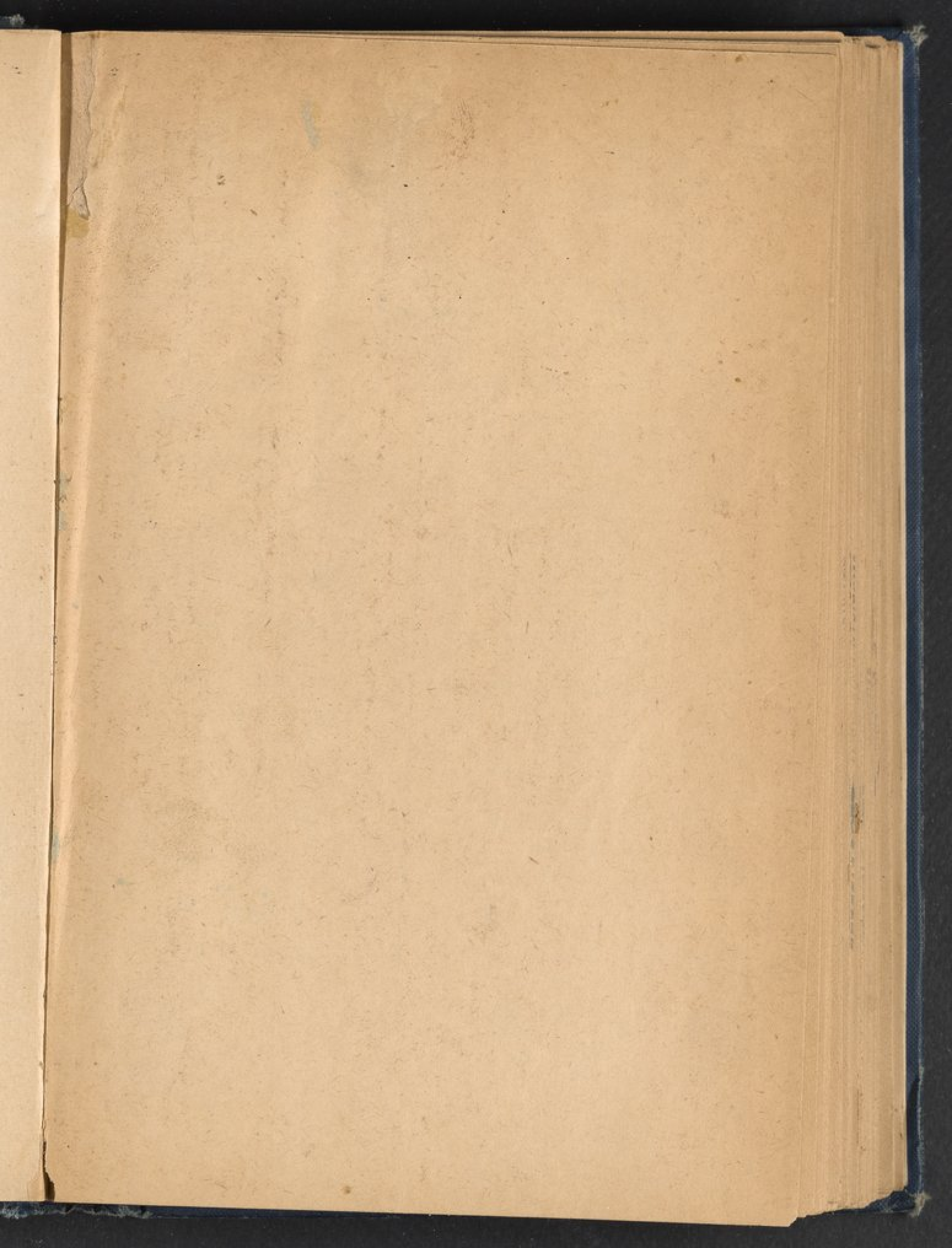
فهرس

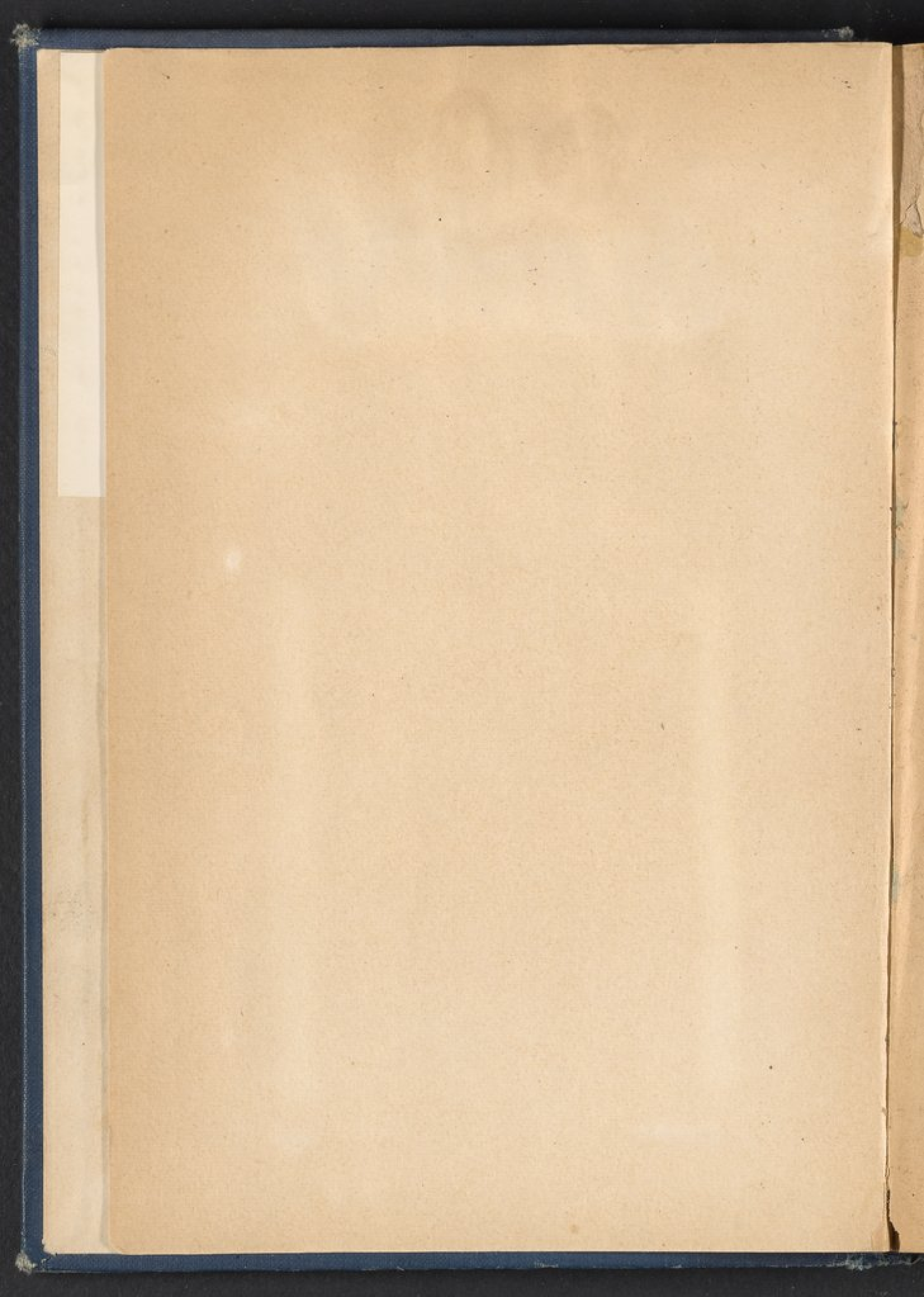
صفحة

٥ مقدمة
١٧ تحية ورجاء
١٩ درة بنت النصيري
٢٧ دموع سليمان
٣٧ خيط العنكبوت
٤٧ زهرة المغرب
٥٧ السلطانة والدة
٦٩ الأخذ بالثأر
٧٩ قبر العاشقين
٨٩ أفراح وأتراح
٩٩ انتقام الهوارة
١٠٩ خرساء البادية

صفحة

١٢١ الشيخ والراهب
١٣١ الأب والابن
١٤١ كوتاهيـة
١٤٧ حليمة الوهابية
١٥٥ صباح
١٦٥ الضريح الخاوى
١٧١ حطين
١٨٣ أنشودة العيد
١٩٣ الشيطان في الدير
٢٠٣ سيف الأمير
٢١٥ الساحرة






FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

